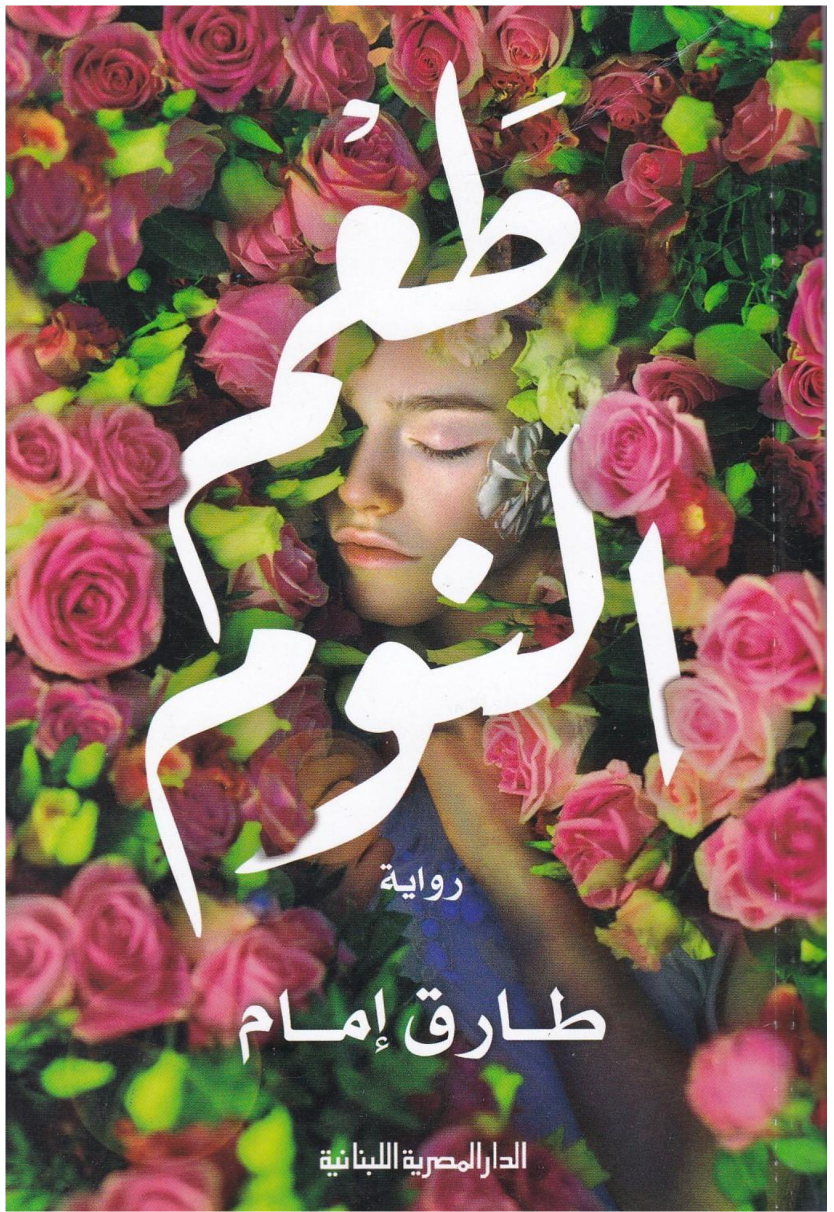

طعم النوم
رواية
طارق إمام
الدار المصرية اللبنانية

إمام، طارق.
طعم النوم: رواية / طارق إمام .- ط1.-
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2019.
344 ص؛ 20 سم.
تدمك: 6 - 231 - 795 - 977 - 978
1- القصص العربية.
أ- العنوان. 813
رقم الإيداع: 2019/4173



الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

الطبعة الأولى: 2019م



رواية

طارق إمام

الدار المصرية اللبنانية

إلى عينيكِ يا كرمة

«فقال من أنتِ فقلتُ أنا هدية وأريدُ إنجاز الموعد الذي وعدتَني به والآن لي ثلاثون يومًا لم أذق طعم النوم».

ألف ليلة وليلة

تدس الإبرةَ القاتلة في وريدِ الرجلِ العجوز، وتشعرُ براحةِ الاقترابِ من الموت، كأن السائلَ المميت بدأ يجري في عروقها هي.

كان يتحــرق شــوقًا - وكانت تعرف - لســماع حكايتهــا، الحكايةِ المثيــرة التي وعدته أن تحكيها له مع آخرِ حقنة، وكانت خلالَ المراتِ الفائتة، المراتِ غيرِ المميتة، ترفض.

أخيــرًا يتجرّأ ليســألها، كمن يستفســر عن ســر يخصه: هــاه.. مش هتحكي لي بقى؟ مش قلتي ان دي آخر جرعة؟

إنه لا يسأل، إنه بالأحرى يتوسّل، كطفل، وبطريقة طفل. لو استطاع لركع، تحــت قدميها، ضامًا كفّين مجعدتين نحو الإلهة العارية، وفوق ذلك الأشد منه عجزًا، وهو يفكر: الآلهةُ دائمًا أكثر شيخوخة منّا.

لكــن العجوزَ ممددٌ على ظهره، مريض، لا يقوى حتى على مغادرة أحلامه.

تُطرقع بإصبعين كمن نســي شــيئًا وتَذَكَّرهُ في الوقت المناسب، أو، بمعنى أدق، كمن نسي شيئًا وتَذكَره قبل فوات الأوان. تفعلُ ذلك بقوةٍ وخفـة لا تناســب وهن العجــوز الممدد وثقلــه، وتقــول: كويس انك

سـألت السـؤال ده.. أقصـد.. كويس انـك افتكرت تسـأله تاني.. كان ممكن تنسى وفي الحالة دي يمكن ما كنتش هسامح نفسي.. شوف يا سيدي.. أنا عندي بنت.. أو كان عنـدي بنت.. مش عارفة إيه الأدق.. هي مش موجودة دلوقت.. لكن لما كانت عايشـة بينّا.. كانت بتشتغل حاجـة غريبة قـوي.. أصلها ما كانتـش بتعرف تنام أبدًا في سـريرها.. ماكانـش بيجيلها نـوم ولا يغمض لها جفـن غير في البيـوت الغريبة.. البيوت اللي ما تعرفش أصحابها..اللي بتدخلها لأول مرة علشـان تنام فـي سـرايرها.. وأول مرة كانـت هي دايمًـا آخر مرة.. لإنهـا ماكانتش بتعرف تنام في سـرير واحد مرتين.. المهم انها كل ليلة تكون بين أربع جدران ما حلمتش تحت سقفهم امبارح.. ومن غير كده كان مستحيل تغمض أو تدوق طعم النوم.

تتنهد: وهي صغيّرة كنا كل ليلة نجيبها من مكان.. ومهما حبسناها أو ربطناها كانت بقدرة قادر بتقدر تفك نفسها من سريرها وتلاقي فَرشة تانية تنام فيها.. جبناها من شـقق وبنسـيونات ومستشفيات وجوامع.. اسكندرية كلها سَمَعِت عن العيِّلة اللي أمها كل ليلة تجيبها من سرير.. وانت كمان.. مش بعيد تكون سَمَعت..

تنظـر إليـه. إنـه يراقبهـا. كأنه يقـول لها لن أمـوت قبـل أن تكملي الحكاية، كأن الموت أكثر من مكافأة: قرار شخصي.

تُكمـل: لما كَبَرِت حبة بدأت ترِوح مـكان كده تنام فيه.. مكان زي بيـت بس مـش أي بيـت، بيقولـوا أُوَضُه ما تِعِـدِّش وسـرايره مالهاش نهاية.. كانت بتروحه بس علشان تنام.. يعني تقدر تقول كانت شغلتها

انهـا تنـام.. وحتى في المـكان ده.. كل ليلـة كانـت لازم تغيَّر الأوضة والسرير.. لكن في مرة...

عنـد عبارتها الأخيرة تنظر لوجه العجـوز، كأنما تطمئن أنه لا يزال يسـمعها، أو كأنها تسـتغل الثواني الزائدة في توقفها لتثير فضوله أكثر، لِتُميته.

وجـه الرجل متيبـس، عيناه جاحظتـان وثابتتان، وذراعاه مسـدلتان باستسـلام، كأن الجرعة التـي حصل عليها من الحكايـة هي التي قتلته وليس السـائل السـام فـي الحقنة التي دسـتها الممرضة فـي وريده قبل لحظات.

تنهـض بلا مبالاة. تتجه نحـو الرجل العجوز. تُغمـض عينيه كأنها تسدل ستارة خفيفة طلبًا لظلام كامل وتام، ثم تسحب الملاءة لتغطي بها وجهه الميت. تلتقط الإبرة، وزجاجة المحلول الصغيرة الفارغة. تتجه نحو كرسي في ركن الغرفة، تفتح حقيبتها، تدس الحقنة والزجاجة في أحد جيوبها وتغلق السوسـتة وفي هذه اللحظة تكتشـف، كأن شخصًا آخـر من يراها، أنها عاريـةٌ تماما، لأنها مع كل عبارة كانت تخلع قطعة من ملابسها. من تحت الحقيبة تأخذ البالطو الطبي الأبيض، ومن تحته ملابسـها الداخلية. ترتدي ملابسـها بعكس الترتيب الـذي خلعتها به. تلتقط سلسلة المفاتيح الملقاة بإهمال على الكومودينو بجوار الجثمان المسـجى. تُبرز منها مفتاحًا، وتُخرج من حقيبتها سلسلة مفاتيح دائرية كتلـك التـي تظهر فـي أفلام السـينما مـع اللصـوص التقليديين، تضع المفتـاح الجديد بجـوار عدد آخر من المفاتيح التـي تنزلق على محيط

الدائـرة المعدنيـة وتتركـه يحصل علـى مكانـه مهتزًا كعقرب سـاعة، تفرّهـم وكأنها تعدّهـم، ثم تدير الحلقة حول إصبعهـا كبهلوان إلى أن يصبـح التعـرف على ملامـح المفتاح الجديـد مسـتحيلًا، كأنها تمحو ملامحـه، فجميـع المفاتيح هي المفتاح نفسـه، الأبـواب فقط هي التي تختلف. كانت تقول هذه العبارة لنفسـها وللعجائز الذين تقتلهم كأنها حكمتها الأخيرة.

تُعيد السلسلة الصاخبة لحقيبتها وقد انضم أخٌ جديد لأسرة الصدأ، وتخطـو مبتعـدةً لتغـادر الشـقة، بينما تفكر فـي اللحظة التي سـتحكي فيهـا الحكاية كاملـة، اللحظةِ التي، بيقينٍ غامضٍ وأكيد، سـتنتهي فيها حياتُها.

(1)

«غمـر الحـزنُ النابـضُ فـي صـوت الفتـاة، وهـي تنـادي أمهـا، قلـبَ العجوز..

هل كانت تحسَبُ في الحلم أن العجوز هو أمها فحاولت أن تضمّه؟»

ياسوناري كاواباتا

«الجميلات النائمات»

منزل النائمات

(الفصل الأول)

أنا حلمُ شخصٍ آخر.

أكتبُ قصتي هـذه وأنا نائمة. الناس يعتقدون أننا لكي نحكي قصةً تخصنـا ينبغي أن نكون مسـتيقظين، كأن علينا أن نحمي حياتنا مرتين، حيـن نعيشـها وحين نرويهـا. وأنا أقـول إن أحدًا لا يسـتطيع أن يروي قصته الحقيقية، أو ما يظنها قصته الحقيقية، دون أن يكون مغمضًا.

يكتب النومُ هذه القصة، بلغته، لغة يسـتحيل على يدي المسـتيقظة أن تمتـد إلـى معجمها لتصيـغ عبارة. إنهـا إرادته هو، وسـواءً تعلمتُ بعض الكلمات أو لم أقرأ حرفًا على الإطلاق، فإنه يسرد هذه الحكاية نيابةً عني، ففي النوم يصبح الجميعُ شعراء.

لقـد كنـتُ دائمًـا نائمة، وقعـت حياتـي كلها وأنـا مغلقـة العينين، وتخللتهـا اليقظـة مثل نهرٍ نحيلٍ يشـق مدينة، فقـط ليجعلها تطل على شيء. وسيكون نوعًا من الخيانة، ولا أقول الظلم، أن تكتب يدُ اليقظة حكايةً لم تعشها.

فـي اليوم الأول لدخولي منزل الجميلات النائمات نظرَت الســت روزا في عينيّ مباشرةً، كأن عورتي الحقيقية هي قدرتي أن أرى.

أعتقدُ أنها رأت نفسـها يومهـا مضاعفةً في هاتين العينين، وأنها في تلك اللحظة بالذات، تعرّفت لأول مرة على وجه عدوها الحقيقي.

أنا أيضًا نظرتُ في عينيها، رأيتُ شخصًا لم ينم، ليس ليومٍ أو لأسابيع أو حتى لشهور، بل حياته كلها. هذه المرأة لم تُغمِض مَرة. ربما قرَّرَتْ أن تفعل ما تفعله بأولئك الفتيات، اللائي سأصير بعد قليل إحداهن، انتقامًا من النوم بالذات.

رغـم ذلـك كانت تحلم. لـم يكن صعبًا أن أعرف هـذا أيضًا، حتى أنني شـعرت في تلك اللحظة أنني أحد أشـخاص حُلمها، وأنها يكفي أن تستيقظ منه لأختفي للأبد.

إنهـا صاحبة المنزل. لا تحتاج أكثر من نظرة ليعرف الواقف أمامها أنه يواجِه قوّادة: فهاتان العينان تنظران من أجل الرجال لا بحثًا عنهم. إنها امرأة لا تشيخ، بسبب نظرتها تلك بالذات: نظرة مستعارة من عيني شخص آخر، أُلصِقت بعينيها قسرا لكي ترى نيابةً عن آخرين.

لـم يكن أولئك الآخرون سـوى العجائز الذين يتـرددون على هذا المنزل الغريب، ليناموا إلى جـوار عذراوات عاريات ومنوّمات، دون أن يفعـل الواحدُ منهم شيئًا سـوى تذكّر حياته على شـرف فتاة نحيلة وفقيرة، تصلح، بالكاد، شاهدا لقبره.

كان منـزل النائمات مكانا غريبا، يُسـمع فيه صـوتُ البحر بوضوح دون أن يكـون بالضرورة قريبا من البحر. لا يضرب الموجُ واجهته بل يتخبـط بالداخل بين جدرانـه دون أن يُرى كأنه مختـزنٌ بداخلها. كأن البحـرَ مدفـونٌ هنـا، في تلـك المقبرة الرحبـة للشـيخوخة، وحيث لا تحتاج الذاكرةُ فمًا لتنطق.

أذكـر أننـي عندما صـرتُ بداخلـه لأول مرة شـعرتُ بذلك الموج غيـر المرئـي يدغدغ قدميّ ويرتـد، كلصٍّ يرغب في الهـرب بأكثر مما يرغب في السطو ومن أجل ذلك يسرق في كل مرة شيئًا لا يريده. وقد ضاعـف حظرُ التجوّل، الـذي فُرض يوم دخلتُ المنزل لأول مرة، من عزلته، حيث تبخّر الإسكندرانيون بحلول السابعة مساء.

أصبحت الإسـكندرية، كبحرها، تختفي بغياب الشـمس، تموت مرةً واحدة مع الغروب كأنها تتقيأ نفسها في الماء، وستظل هكذا حتى السادسة من صباح اليوم التالي عندما يصدر الأمر العسكري بالاستيقاظ.

ربمـا يعرف بعضكم الآن شـيئًا عـن حكاية هذا المنـزل، الغامض والسري والمشبوه. لقد كُتبت هذه القصة مرتين من قبل، وفي الروايتين كان هناك عجوز يتردد على المنزل ويتذكر من خلال الفتيات النائمات قصة حياته(*).

كان مكانًا تديـره امرأة (مديرة منزل أم قوادة؟)، تعمل لديها فتيات عذراوات، يسـتقبلن في الفراش رجالًا عجائز، بعد أن تمنحهن منوّما

(*) الروايتان المقصودتان: «الجميلات النائمات» للياباني «ياسوناري كاواباتا»، و«ذاكرة عاهراتي الحزينات» للكولومبي «جابرييل جارثيا ماركيز».

قويا يستحيل معه أن يستيقظن. يتعرين تمامًا لهؤلاء العجائز، الذين لا يفعلون شيئًا سوى الفرجة، فقد كان قانون المكان يُجرِّم أن يخطئ أحد العجائز ويمارس الجنس مع العذراء النائمة. إنه مكان هدفه الوحيد أن يتذكر العجائز شبابهم المنقضي دون أن يضيفوا خطأً جديدًا لتاريخ آثامهم، بيت دعارة مخصص للرجال الذين «لا يجلبون المتاعب»، وهو تعبير مهذب يعني: الذين لم يعودوا رجالًا.

دعارة رمزية يثمنها أولئك الذين لم يعودوا يملكون جسدًا يقايضون به، يُقلِّبون الجسد الهامد لفتاة نائمة كقطعة عملة، يتشممونه كسمكة ميتة على الشاطئ، قبل أن يُفرغوا أفواههم مطمئنين _ وقد صار الحكي منيّهم الوحيد_ في رحمِ شاب، بحثًا عن امتدادٍ متأخر لا يمنحه ابنٌ، قَدْرَ ما تمنحُه ذكرى.

هناك مرة ثالثة، جاء فيها عجوز، ليكتب القصة من جديد، وربما حلم بأن يجمع الكاتبين اللذين سبقاه معا، لكني قررتُ إيقافه، قلتُ القصة هذه المرة لن يسردها عجوزٌ جديد يأخذ دوره بعد أن يطرق الباب بخفرٍ ليستعجل سابقَه في المغادرة.

الرواية الجديدة التي وقفتُ أمام عبورها كقاطعة طريق ستحكيها هذه المرة واحدة من أولئك الفتيات النائمات، اللائي لم يتكلمن أبدًا من قبل، وظللن مغمضات كأنهن جثن للقصة فقط كي يضاجعهن في الكتابة جميعُ الرجال الذين خانتهم الأَسِرَّة.

14 أغسطس 2013.

التاريـخ الذي سـأظل أتذكره، فقـط، لأنه عيد ميـلاد رجل قرر في ذلـك اليـوم بالـذات، أن يعبر ليـل المدينـة الصامتة وحيدًا ليشـاركني سريرًا، سألد عليه قصتي.

سـيقول إنه فعـل ذلك لأنـه أراد الحب، لكن الحقيقـة أنه فعل كل ذلـك لأنـه أراد الكتابـة. أيّ بيتٍ هذا الـذي يدخله الكُتّـاب كي يقتلوا الحب بالكلمات بدلًا من الرصاص؟

قساةٌ هؤلاء الكُتَّاب، يبحثون عن الجمال في الرفات، ولا يتوقفون لحظة ليسألوا كم من الأرواح أُزهِقت على شرف عبارةٍ جميلة أو معنى بـراق. وقد أتى «رجلي» لمنزل الجميـلات النائمات بحثًا عن ضحيته كمن يفتش عن اسمه، غير راغب في أن يعيد استخدام الضحايا اللواتي سبقه كُتّاب آخرون لتخليدهن.

جاء يبحث عن رواية سابقِيْه ليقتلهما، مُدركًا أن عليه لو أراد أن يجد قصته، أن يعثر على لغته، وكنت أنا من أوقعها القدر لتكون هذه اللغة.

لقـد أراد كتابةَ عذراء لا حُبًّا أوّل، ولهذا السـبب اشـترط في فتاته، متشـبهًا بسـابقه «ماركيز» هـذه المرة، أن تكـون ليلتها إلـى جواره في المنزل هي الأولى، عذراء ولا مانع أن تكون جيدة السمعة، كأنه دخل هذا البيت بحثًا عن زوجةٍ ريفية لا مومس.

هـذه المرة أنا من سـتكتب، حكايـة العجوز الثالـث، الذي أراد أن ينجو بقصته مدركًا أنها نفسـها جريمته. هي ربما حكايةُ عجوزٍ واحد،

لكنهـا رغم ذلك، أو بسـبب ذلك، قصةُ جميع العجائـز الذين أتوا إلى هنـا ليـروا أخيرًا عجزهـم وجهًا لوجـه كأنه طفلهـم التائـه، وكأن كل أزمنتهـم المنقضيـة لم تكـن كافيةً لكي يشـيخوا. وقد حانـت الفرصة الآن لأتكلـم بعـد كل تلك السـنوات الصامتـة لقطيع فتيـات بلا نبرة، يظهـرن فـي الروايات فقـط ليعرضن صمتهـنّ كبضاعةٍ مسـتعملة، لم تتفـوه واحـدة منهن بكلمة واحدة في عشـرات الصفحـات، مكتفياتٍ بصمت الكومبارس ليتكلم البطل الوحيد الذي يأتي إلى ذلك المنزل، في كل مرة، مثرثرًا لمستمعٍ لا يراه.

ربما يظن البعض أن القصتين انتهتا بصدور كتابين، وأنني أكتب لأضيف كتابًا ثالثًا لتخليد جميع الفتيات رغم أنف قصةٍ مصممة ليقرأها الرجال. لقد نسي هؤلاء، ببساطةِ قُرّاءِ القصص، أنه في رواية «كاواباتا» المعنونة بـ«الجميلات النائمات» فقدت فتاةٌ حياتها في سرير بطل الحكاية العجوز. استيقظ «البطل» مع السطور الأخيرة، وبينما تلفظ الروايةُ أنفاسها، غير منذرةٍ بجديد في إيقاعها الرتيب كنهر، ليجدها جثةً مثلجةً بلا نبض. إن هذا الموت، وحده، ما منح حكايته معنى، فلولا موت تلك الفتاة، مع زيارته الأخيرة لمنزل الجميلات النائمات، لبقيت روايته قصة خامدة يكرر فيها كل فصل من الفصولِ الخمسةِ سَابقَه، مُبدِّلًا فقط ملامحَ الضحية في عيني جلادها.

مـاذا حدث بعد أن اكتشـف العجوز موتها واسـتدعى مديرة المنزل (لم يمنحها اسمًا، لم يقل مرة «روزا»، كان يخشاها حتى في خياله) التي

راحــت تطمئنه، كأنه هو الضحية! لـم تقل الرواية. تُرِكَت النهاية مفتوحة لتُشعل خيالَ القراءِ، المقصودين بمتعة البحث عن مستقبل جثة.

غطـى العجوز جثمـان الفتاة بكفـن الكتابة، لفّ جثمانها ببسـاطة في ورقـة، وقد اسـتكثر عليها كفنًا حقيقيا في ليل عمرهـا القصير والمُحكم. بوصفٍ قاسٍ وضعها في خانة العبدة. لم تكن سوداء، كانت بلون الحنطة الـذي صقلتـه شـمس مدينتـه مثلما تفعـل شـمس مدينتي وتكفّـل البحرُ بتعميقه، لكنها بالنسبة له ظلت لونًا ناتئًا في لوحة ذلك المنزل الثلجية.

دُفنت الفتاة النائمة في مكانٍ بلا شاهد، لكن الأكيد أنه ليس قبرًا. ربما منحها الموتُ دليلًا وحيدًا، كانت بحاجةٍ إليه، على أنها وُجدت يومًا، لكن الأشد إيلامًا، أن هذا الدليل نفسه، هو الأكثر خفوتًا بين جميع الأدلة الواهية على أنها عاشت.

هذه الفتاة، وسـأقولها بنفس البساطة التي يتعامل بها قراء القصص مع الموت، كانت شقيقتي.

كان علـيّ، بـدءًا مـن تلك اللحظـة، أن أنتقـم ممن يميتـون الناس فـي الحياة ليخلدوهم فـي القصص، منتقمةً في الوقت نفسـه، لجميع الفتيـات اللائي وُجدن في الواقع فقط ليمتن في الخيال. وقد سـنحت الفرصةُ أخيرًا يوم فتحت لي الست روزا باب بيتها، لأحقق الانتقامين في شـخص واحـد، هو ذلك العجـوز الذي كان أكبر مـن أن يكون أبًا لي، فصار طفلي.

هكذا، وفور أن خطوتُ العتبة المظلمة لبيت الست روزا المتواري، كنت لـم أعد أعرف إن كنت شخصًا حقيقيًا يدخل بيتًا في الواقع، أم

أنني مجرد شخصية جلبها كاتبٌ ليصنعها من الكلمات بينما يُدخلها بيتًا على الورق.

لم أشغل نفسي كثيرًا، بينما أتبع جسد الست روزا للداخل، بمن أكون. كنتُ في تلك اللحظة قد عرفتُ أن لا فارق في نهاية المطاف بين حياةٍ وحكاية.

جئتُ لأفتش هذه الحجرات، فيما أتخبط في أحلامي كأنها البوصلة الوحيدة لاكتشاف واقع هذه المتاهة من الأجساد والجثامين وذكريات الشيخوخة ودم الحاضر. جئتُ، واثقةً من قدرتي على تمييز رفات شقيقتي وأن وجهها سينبعث إن أخرجتها من تحت الأرض ليناديني الفمُ الحجريُّ باسمي، لكنني، رغم ذلك، لم آتِ هنا فقط لأحصل على حفنة تراب.

جئتُ هنا لأنتقم، لأقتل من قتلها، حتى لو كان كاتبا آخر، باسمٍ مختلف، فثلاثتهم كانوا في النهاية الرجل نفسه، مثلما كانت جميعُ النائمات فتاةً واحدة، هي أنا.

حتى لو شكّك البعضُ في ألمي، مُدّعين أن تلك الشقيقة التي ماتت ذات يوم بعيد، لا تربطها بي صلة دم، بل صلة حبر، وأنها محض أختٍ في قصة، داعمين ادِّعاءهم بالسنوات الطويلة التي تفصل بين القصتين، وبالأمكنة المتباعدة التي تعزلها محيطاتُ العالم ويابسته، وباللغات المتنائية. لستُ بحاجةٍ لأخبر المتبجّحين أن كل هذه السنوات التي فصلت بين القصتين لا شيء، وأن المدن المتباعدة، كلها المدينة نفسها، وهي تعيد تسمية نفسها في كل مرة لتُخفي حقيقتها، حيث

البحر هويتها الوحيدة، والزمن نفسه، وصاحبة البيت ذاتها، التي تبدو انعكاسَ جسدٍ ما، كظلٍّ لا يشيخ، ذلك أنها من أولئك الذين يكونون قد شاخوا بالفعل لحظة ولادتهم، ولم يكن عندي أدنى شك أن الست روزا استقبلت العالم مُكتملة التجاعيد.

إن أقصى أحلام كاتب هو أن يعيد كتابة قصةٍ قرأها، تدوير للخيال بالطريقة التي يدوِّر بها آخرون القمامة، وأنا أريد أن أقول لهذين العجوزين، ولجميع من قرأوا حكايتيهما الرائجتين، إنني لستُ ممن يستعيدون جشعهم عندما تحين الفرصة، فلن أطمع -بينما أعيد سرد حكايتيهما لأمحوهما- في الحكاية الضخمة في حجمها الطبيعي الذي تستحقه، والذي اختُزل لدى العجوزين في كتابين صغيرين وقد ضنّا على صمتنا ببضع صفحات زائدة كان من شأنها أن تُنطِقه.

وإذا كان أحدهما قد اختار أن ينجو تاركًا الموت والتيه لفتاةٍ فقيرة لم يشملها التعداد، عاشت باسمٍ مستعار وماتت دون اسم على الإطلاق، فيما كفّر الثاني عن الذنب بنهايةٍ سعيدة لا تقل إهانة، فإن حكايتي ستنتهي باللحظة التي أغمضتُ فيها عيني وبدأتُ كتابة هذه القصة وأنا نائمة.. فلا أكتب هذه الحكاية لأنجو، بل ربما أكتبها، بالذات، لكي أموت.

أعرف أنني لن أكون بعدُ حيةً عندما أكتب الكلمة الأخيرة في هذه الأوراق، لكن عزائي أن لا أحد ينجو حقًا إذا ما قرر أن يجعلَ من نهايةِ حياتِه نهايةَ قصة.

يومَ استدعتني الست روزا لأول مرة كنتُ قد نمت في جميع أسرّة الإسكندرية.

كان منزل الجميلات النائمات بيتًا أخيرًا لا أعرف أين سأنام من بعده، وتمنيتُ يومها بشكلٍ غامض ألا أضطر لبحثٍ جديد، حتى لو كان الثمن هو موتي.

لقد أنقذتني الست روزا بطريقةٍ ما، وكان عليّ رغم كل شيء أن أكون ممتنة لطوق نجاتها هذا.

كانت معاناتي قد تضاعفت في الفترة الأخيرة، بسبب الانفلات الأمني المزدهر مع غيابٍ كامل للشرطة. صارت الأبوابُ أحكم إغلاقًا وبحلول الغروب تكون الإسكندرية قد ودّعت أرواحها وكأنها عزلاء أمام حربٍ أخيرة مع البحر الذي يراها في أعمق نقطة ضعف، البحر الذي يطل عليها بأكثر مما تطل عليه.

حتى الليلة السابقة على دخولي بيت الست روزا كنت أطرق أي باب، مستبعدةً ببساطة البيوت التي نمت فيها من قبل، بذاكرةٍ حديدية كانت على وجه التقريب الشيء الوحيد الذي لم أرثه عن أمي. فور أن يُفتح الباب كنت أعبر، متجاهلةً ذهولَ صاحبِ الشقة، المتيبسِ على عتبته كمن عثر على حُلمِه فور استيقاظه. أفتش الغرف حتى أعثر على سريرٍ خال، وحتى لو لم يتوفر واحدٌ، كنت أتكوّم بهدوء إلى جوار نائم. في تلك اللحظة لا يعود بوسع أحد أن يوقظني.

كنت أنهض في الصباح التالي، بعد استيقاظ الجميع، لأعبر الصالة بهدوء، دون أن ألقي تحية صباح أو أوجّه كلمة شكر للمتحلقين حول فطورهم أو من يُتمّون استعداداتهم للخروج. الإسكندرية كلها عرفت حكايتي الغريبة مع النوم، حتى أن بعض من فتحوا لي دعوني فورًا للدخول وكأنهم كانوا في انتظاري، قبل أن يُطلعوني على غرفتي بالوجدان المستسلم لعامل غرف في فندق.

كانت الإسكندرية دائمًا ذلك السرير الشاسع، الذي أعثر فيه كل مرة على ركنٍ جديد لم أنم فيه من قبل، حيث يستحيل أن أبيت تحت سقفٍ واحد مرتين، وحيث كثيرًا ما أولاني شخصٌ ظَهْرَه بينما أقاسمه الحلم نفسه.

يوم وجدتُ نفسي وجهًا لوجه أمام الست روزا، كانت الإسكندرية قد ضاقت فجأة، وكأن المدينة في ذلك اليوم بالذات قد انتهت. كانت ترتدي فستان حدادٍ أسود، ويضيء ظلامَ جسدها ذهبُ سلسلةٍ، بدت فيما ترتعش حول عنقها حصارًا، تختفي تحته قلادة في مفرق ثدييها، بدت بدورها جنديًا مهزومًا. فوق رأسها ثُبّتت غطاء رأس بنفس اللون، ملفوفًا بإحكام حول أذنيها بطريقة نساء «حلقة السمك» المترملات ذوات الأصوات الذكورية التي استبقينها من أزواجهن كإرثٍ وحيد بعد أن أودعنهم التراب.

بهذه الطريقة في إخفاء أذنيها، صار بإمكانها على ما يبدو أن تحجب صوت العالم، ليصير الصوتُ الوحيد الذي يمكن أن يُسمع هو صمت هذا البيت، ذلك الصمت الذي كان من الحدة حد أنه قادرٌ على أن يخلق صداه.

ظل سـببُ حدادهـا مجهولًا، أو علـى الأكثر موزعًـا على جثامين لا عناويـن لها، ربمـا زوج هارب، أو حبيب اختطفتـه حرب، أو طفلة ابتلعهـا زحام سـوق، أو الجميـع، أو لا أحد. بدا لـي حدادُها نوعا من ترمّـلٍ مقصود لذاتـه، كأنما لم تكن هـذه المرأة، التي ربما اسـتعارت اسمها نفسه، بحاجةٍ لموتِ شخصٍ كي تودِّعه.

أعـرفُ الدرجـة الدقيقـة للون الحـداد وأسـتطيع تمييزهـا من بين جميع أطياف اللون القاتم نفسـه. لقد كان يشرق في عالمي كل صباح كشمسٍ سـوداء، بالطريقة التي تشرق بها جميع الشموس الأخرى في سـماء الآخرين، وحيث عشـتُ مع أمٍ تعيش في ملابس وداع صارت، لفرط التصاقها بها، جسدًا.

اسـم أمي «شـهرزاد» أو «مـدام شـهرزاد» مثلما كانـوا ينادونها في المستشـفى، وفي شارعنا، ومثلما تُسمي هي نفسها كأن اسمها المفرد هويةٌ ناقصة.

إنهـا «حكيمة»، أي ممرضة، تدس الحُقَن فـي أوردة العجائز على أسـرّة مستشـفى الحميات. بعد ذلك، عندما تتقاعد، ستواصل حقنهم فـي بيوتهـم، كما لو أن إعطاء حقنة نوع من شـغفٍ، مَلَكـة، موهبة ما، وليس مهنة.

بسـبب مهنتها تلك كانت مضطرة لارتداء بالطـو أبيض فوق ثيابها السـوداء، كان يجعلها طوال الوقت في خيانةٍ اضطرارية للموت. لكنّ حدادها ظلّ أعمق ما فيها، فقد كانت تعرف أنه أكثر من لونٍ أو شعور: كان عريها.

أفكـر فجـأة أنني مقبلـة، بالضبـط، علـى عكس مـا تفعلـه «مدام شـهرزاد»، فالعجائز يتعرون لها لكي تنيمهم بحقنها، بينما سأتعرى أنا للرجـال منوَّمة بحقنة. هي تحكـي لهم، بينما جئت أنا هنا لكي أنصت لهم. نتفق أنا وأمي في شـيء واحـد، أن كلينا تنهي عملها في الصباح، هـي لكي تنام وقد أجهدها الحكـي أكثر مما أجهدها العمل، وأنا لكي أستيقظ.

تواطأنا بسـرعة، السِـت روزا وأنا، كأن الاتفاق تم سـلفًا ولا ينتظر سـوى التوقيـع. لم يكن الأمـرُ يتطلـبُ ذكاءً لأعرف أن ثمة شـيئًا غيرَ عادي يحدث هنا. يعرف من ناموا في الأَسِرَّة الغريبة، مثلي، أن العري أكثر بساطة مما يظن أولئك الذين لم يناموا مرة خارج أسرَّة طفولتهم. ولـم أكن بحاجةٍ لأكبُر كـي أعرف أن عريي كان دائمًا شـيئًا أكثر عمقًا من نزع سروالي، فمن لا يملك سريرًا لنومه لن يحصل أبدا على سريرٍ لمتعته.

قلـتُ إنها قصةُ انتقام؟ نعم، لكنها قصةُ حبٍّ أيضًا، (ومتى وُجِدت قصة حب ليست في جوهرها قصة انتقام؟).

إنهـا قصة حبـي مع ذلك العجـوز الثالث، الذي دخل بيت السـت روزا (أو روسا كما ظهر اسمُها مموها في رواية ماركيز) ليكتب روايته الأولـى والأخيـرة التي قرر أن تكون عن الحب، مسترشـدا، كسـابقه، بالروايـة التـي حرضته حـدّ أنه رغـب دائمًا في إعـادة كتابتها لينسـبها لنفسـه، متناسـيًا أن صفحتها الأخيرة فتحت بابَ مقبـرةٍ لجثةِ فتاة، بابًا لم يُغلَق إلى الآن.

لكنـي رغـم ذلك، وقـد انتزَعتُ سـلاح القاتل، سـأحاول أن أنهي جريمتـي وأغسـل يدي خـلال الوقت نفسـه الـذي اسـتغرقته جريمة وقعت مرتين، لتقتل الشخص نفسه.

الكتابةُ انتقامٌ أيضًا، وهي لذلك تشـبه الحب، وتشـبه القتل، وتشبه الحلـم، ففي أحلامنا فقـط نقتل جميع من اضطررنـا لمصافحتهم في الواقـع.. وكل يـدٍ تهمّ بالكتابة هي في الوقت ذاته، وبالقوة نفسـها، يدٌ تهمّ بالقتل.

فـورَ أن فتحَـت لـي البوابـةَ الحديديـةَ الثقيلة، نظرَت السـت روزا مباشـرة لعانتي. كانت تسـترها وردةٌ كبيرة في الفسـتان، لكنّي أستطيع أن أقسـم أنهـا في ذلـك الليل رأت عورتـي بوضوح، حتـى أن الظلمةَ صارت شعيراتها النابتة.

لقد فُتِح بابُ السـت روزا لحظة وصولي، كأن يدًا لا مرئيةً هي من أزاحتـه دون أن يُصـدر احتكاكُه بالأرض أيَّ صوت، وكانت تلك أول بادرةٍ على أن هذا المكان وُجد كتجسيدٍ للصمت.

قالـت: «مش كنتي عايـزة تنتقمي لاختك؟» أومـأتُ، كانت إيماءةً موجهةً لشـخصٍ آخر يقف خلف جسـدها ويتحدث عبر فمها، اسـمه القدر.

استدارت وتركتنـي أردّ البوابة الضخمة لمكانهـا. كانت هذه أول بادرة ثقة، فالنساء من نوعية الست روزا يعرفن أن من ينتمي لمكانٍ هو فقط من يحق له تركَ بصمته على بابه.

كان المنزل يزداد وحشـة كلما تقدمنا في الفناء المختبئ بين صفي أشـجار ونخـلات قصيـرة. أصبح صـوت البحـر أكثر صخبًا ويُسـمعُ ضَجيجُ تخبُّطِه وكأننا داخل تجويفِ محارةٍ كبيرةٍ ملقاة على الشاطئ.

أغمضـتُ عينـيّ بدءًا من تلـك اللحظة، قبل حتى أن أستسـلم بعد ذلك لمنوِّم السـت روزا القوي، الذي - كما يُفترض - سـيجعلني أنامُ

لجميع الرجالِ الذين لم يعودوا رجالًا، مستغرقةً في عريي، كأن العري هو السباتُ الأشدُّ إحكامًا، ومستسلمةً لعجائز يجيئون هنا ليرقدوا جوار عذراوات منوَّمات، لا يحق لهم محاولة إيقاظهنّ، فهذا مكانٌ لا سبيلَ فيه لأحدٍ كي يستيقظ، سوى الذاكرة.

في لحظةٍ ما، استدارت آمرةً: «ارمي البتاع اللي ف بقك ده». قالتها وكأنها تدرك أن ما أحركه في فمي لم يكن «لبانة».

كنتُ أعمل في مصنع صغير للملابس، على ماكينة لتركيب الأزرار. تلك الأقراص الغامضة الملوّنة التي تغري بتقليبها في الفم كنوعٍ من حلوى صلبة وبلا طعم، كانت عالمي الوحيد،عملاتي الزائفة.

دائمًا، وكلعبةٍ بلا معنى، كنت أتركُ زرًّا في فمي أُقلّبه بلعابي، كعلكةٍ متحجرة، ثم أبتلعه في آخر اليوم. بدأ الأمر عندما ابتلعتُ ذات يوم زرًّا بطريق الخطأ. ارتعبتُ. ماذا بوسع هذا الجسد الصلب أن يفعل بأحشائي؟ حاولتُ أن أتقيأ، لكنه لم يغادر أمعائي مع خليط بقايا الأطعمة التي انسابت في سائل ثقيل منفر. ظللتُ أنتظر لعدة أيام انصرافه مع الإخراج، لكنه أيضًا لم يغادر. لقد استوطن هذا الكائنُ الدقيقُ جسدي وانتهى الأمر، وسيظل في مكان ما من أحشائي، أو رحمي.

تكرر الأمر بعد ذلك، مرة، مرتين، حتى قررتُ أن أُحوِّل الصدفة إلى عادة. أصبح ابتلاع الأزرار وجبتي اليومية، وصرتُ بالتدريج أستطيع التفريق بين مذاق زرٍّ وآخر، وأعرف ما يلائم الصباحَ وما يجب ابتلاعه في منتصف اليوم أو قبل النوم. كنت أفعلُ ذلك بإصرارِ من نجا من الموت فظل ممتنًا لسبب خوفه بالذات. كنت أهزم موتي

الصغير والتافه بالتصالح مع سلاحه الضئيل والمسالم والعاجز. وربما تماديتُ في بلع الأزرار تكفيرًا عن ذنب ما، نحو جميع هذه الملابس التي أُثبِّت فيها أقفالًا لتصبح زنازين أجساد أخرى كنتُ فيها جلادًا مجهولًا وغير مرئي. ولو أن أحدًا تشمّم فمي، فسيتنسم العبيرَ المحايد لهذه الدوائر المجسمة، وقد صارت، على وجه التقريب وفيما ألوكها دون توقف، المعنى العميقَ لرائحتي.

كانت لجسدي رائحة الأقمشة، وقد تحوّلتُ بالتدريج إلى رداء أكثر من كوني جسدًا. أعتقد أن أنف الست روزا ارتعش قليلًا وهو يلتقط تلك الرائحة الخاوية. كانت تعرف روائح جميع النساء، وبدا أنها حائرة في منح رائحتي هويةً ما استنادًا إلى الواقع والذاكرة معا، فاكتفت بتوجيه نظرةٍ متشككة إليّ، تلك النظرة التي يصوبها شخصٌ عندما يتطلع إلى لا أحد.

كان المصنع مكانًا ينتمي لزمن آخر، ورثه صاحبُه بدوره عن اسكندريةٍ أخرى، مدينةٍ بعيدة لم يعد لها وجود، وزجّ بين جدرانه بقطيع فتيات يخطين بالكاد عتبة المراهقة الصعبة، كأنما ليسجن الحاضر. كان يحشر كلمات شامية في كلامه معتزًّا بأصوله غير المصرية، ما كان يجعل كلامه أشبهَ بلهجةِ المسلسلاتِ التركيةِ المدبلجة. على حوائطه ثبّت الصور المتطابقة لسلالة أجداده النازحين، حتى أنه كان في الكثير من الأحيان يبدو صورةً غادرت إطارَها، لتشير إلى الوجودِ الأخير لسلالةٍ منقرضة.

الست روزا أيضًا بدت لي، بينما تفتح لي بوابة بيتها لأول مرة، صورةً قديمةً هاربةً من حائطها، فيما تُوَجِّه لي نظرةَ إدانةٍ فورية جاهدَت لتُشبه الحاضر، قبل أن تتقدمني كمن يقود فضيحته. كانت

نظـرة إدانـة لكلينا، لكنهـا نظرة تؤكد ببسـاطة أن واحدة منـا، في تلك اللحظة بالذات، بحاجة للأخرى.

لـم أبصـق الزرّ، ابتلعتُه بسـيل لعابي اللزج، وأكملتُ السـير خلف الست روزا. بدا لي صمتُ فمي في تلك اللحظة صورةً مُصغّرة لصمتِ العالـم الذي يكتمل في هذا البيـت. وفي تلك اللحظة فقط تنبهتُ إلى أن الست روزا تمشي دون أن تُخلّفَ أثر أي صوت على الأرض، بينما تعبر الممر الطويل ومن بعده الفناء، كأنها ذكرى امرأة.

لاح أخيـرًا صـفٌّ أبـوابٍ متطابقـة تُشـكّل دائـرةً مكتملـة، بحيث يستحيل تسمية حجرة بأنها الأولى وأخرى بأنها الأخيرة.

كنت لا أزال أحاول عبثا عدّ الغرف، عندما أخبرتني، وكأنها قرأت مـا أفعل، إن حجرات هذا البيت أكثر عددًا بكثير مما تبدو عليه. قالت آمـرةً دون أن تلتفت إليّ بينما تحدّق في باب الحجرة التي سـأدخلها، وكأنـه مرآتها: «ما تحاوليش تِعِدِّيهم.. مش حتوصلي لحاجة. كل مرّة حتلاقي عددهم مختلف».

سأنامُ كلَّ ليلةٍ في غرفة ولن تنتهي الغرف. فكرت. إنها مكافأة نهائية للفتاة الأشد خيانة للأسرّة. شعرتُ أنني أخيرًا عثرتُ على البيت الذي ينبغـي أن أعيش فيه، مكانٌ واحدٌ بأسِـرّةٍ لا نهائية، وفكّرت أن مقايضةً كهذه تسـتحقّ الاستسـلام لرجالٍ وهميين لا يُمثّل وجود الواحد منهم في سريري سوى كذبةٍ ليلية.

دسّـت يدًا في صدرها، فبرق ذهبُ السلسـلة الغليظـة حول رقبتها محركًا التميمة المخبأة بين ثدييها مكفنةً بملابس الحداد. ثم أخرجت

يدها بسلسلةٍ أخرى، صدئة، في تناقض صارخ مع لمعة الذهب، حتى أنني تساءلت كيف لجسد هذه المرأة أن يلامس الذهب والصدأ بذلك القـدر مـن العدالة؟ علـى محيط الحلقـة المعدنيـة كان يتأرجح قطيعُ مفاتيحَ متطابقة، صدئة بدورهـا، وضخمة، كأنها صُمِّمَت بحيث تبدو غير حقيقيـة. بدربةٍ، انتزعَت واحدًا، كانت تعرف فيما يشـبه المعجزة أنه المفتاح الصحيح، ودَسّته في ثقب الباب.

استقبلتني «البروفة»، كما سأسمي هذه الغرفة بدءًا من الآن، فليس مسموحًا أن أتجرّد من ملابسي داخل الحجرة التي سأبيتُ فيها ليلتي، وكان هـذا هـو الأمرُ العملـيُّ الأول الذي وجَّهَته لي الســت روزا: «ما ينفعش حد يعرف شكل هدومك وانتي عريانة».

كانت لدى الســت روزا قناعة مفادها أن الأشــخاص يتعرفون على بعضهــم في اليقظة من طريقة ارتدائهــم للملابس وليس من وجوههم المكشوفة أو أجسادهم العارية أثناء النوم.

قالــت وهي تعـدّد محظـورات المكان، كأنهـا تقرأ مـن كتاب، أن الزبـون لا يجـب أن يعرف شـيئًا عـن ذوق أو أفكار أو قناعـات الفتاة النائمة وجميع ما يخصّ حياتها الأخرى، حياة اليقظة.

كانــت البروفة غرفةً خارجيةً ملحقة بالحجـرة التي تنام فيها الفتاة، وسـأعرف فيمـا بعـد أن منـزل السـت روزا كان يضـمّ بروفـات بعدد الحجرات، ومثلها، كانت نسـخًا متطابقة حتى في لمساتها المرتجلة، بحيث يستحيل التفريق بين واحدةٍ وأُخرى.

إنهـا أضيقُ غرفةٍ يمكن لشـخصٍ أن يتخيّلها في العالم، اسـطوانية كأنها تابوت مستند إلى حافته، حتى أننا اضطررنا أن نقف متلاصقتين. رغم ذلك كانت تكتظ بأدوات يستحيل عمليًا أن تتسع لها.

بـدت غرفـةً للتنكـر، مأهولـةً بأجمـات شـعرٍ مسـتعارٍ ورمـوشٍ صناعيـة وعلـب ماكيـاج صفيحيـة وملابـس داخليـة معروضـة دون

تحفُّظ واكسسوارات تبدو فائضة. وكانت ثمة مكتبة صغيرة رُصَّت فيها الكتبُ على عكس المعتاد، كعوبها ملتصقة بالحائط بحيث لا تفصح عن عناوينها، بينما تُواجه الواقف بصفحاتها المنفرجة كأفواهٍ مفتوحة. كان هناك سرير صغير مُهمل، يشبه سرير غرفة عمليات في مستشفى، ىُخيِّل لي أن رائحة البنج وأدوات التعقيم كانت تحلّق في هوائه المستقل. كان يمكن أن يبدو وجوده ناتئًا لولا أن كل الأشياء في هذه الغرفة كانت موجودة حيث لا يجب أن توجد.

في الركن لمحتُ «مانيكان» لأنثى عارية. لسببٍ ما بدت لي امرأة حقيقية محنطة، ورغم الرعب وهاجسي الذي شعرت به مؤكدًا، أطلتُ النظر لهذه الحياة المحتبسة في نظرةٍ محايدة ووجهٍ يخون ملامحه وجسدٍ تجمّد فجأة في لحظة حياته القصوى.

سألتُ، بطريقةٍ مموهة: «دي بجد؟»، لكن الست روزا أدارتني نحوها وقالت وهي تقيس جسدي بعينيها: «ما فيش حاجة بجد وحاجة مش بجد.. الاتنين واحد».

انتظرتُ أن تخرج لأقلع ملابسي لكنها لم تفعل، وأشارت بيدها بما يعني «ياللا». بدأتُ، مترددةً، أخلع الحجاب، لكنها أشارت بإصبعها في هزة أفقية آمرة حرَّكت هواء التابوت: «لأ، من تحت لفوق».

هكذا أشرفَت الست روزا على تعريتي، بالدقة والحرص اللذين تشرف بهما أمٌّ على إلباس طفلتها، بادئةً بالكوتشي والجوربين القزمين، ثم الكولون الأسود فالفستان المُزهِر. نزعتُ أخيرًا الوردة عن عورتي، تحتها كانت تتفتح وردةٌ أخرى على الكيلوت، نزعتُها بدورها، تاركةً

الست روزا تتأمل أخيرًا حديقتي العارية. آخر شيء تخليتُ عنه كان الحجاب الذي يغطي شعري. لقد ظللتُ أشعر بخجل شديد طيلة اللحظات التي رحتُ فيها أتجرد من ملابسي قطعةً قطعةً فيما ذلك الحجاب يطل عليّ من سماءٍ ما، كأنه يحصي ذنوبي. هي من نزعته، كأنها تضع المسمار الأخيرَ في نعشي. كان نعشي في هذه اللحظة هو جسدي، وأنا محضُ شبحٍ مدفونٍ في أعضائه.

نظرَتْ لعريي دون انفعال، وأدارتني من جديد كقطعةٍ طارئةٍ على لعبتها، مربتةً على مؤخرتي وقفاي. إنها قوادة، صار الجسدُ بالنسبة لها منذ زمن طويل طفلَها الميّت.

فقط عندما اكتمل عريي، أجلستني الست روزا أمام مرآة كبيرة تتوسط جدارًا. كانت مغطاة بقماشةٍ سوداء كأنها عين هذه الغرفة التالفة. جلستُ قبالتها على مقعدٍ جبسي واطئ أشعرني أنني أجلس على مرحاض، بينما بدأت تُشرف على تحويلي لشخصٍ آخر فيما أتخيل انعكاس وجهي على سواد الغطاء. طَلَت أظافر يديّ بلونِ صدفي، ثم انحنت على قدميَّ وطلت أظافرهما. نزعت زغب جسدي وشعر عانتي (ولم أكن أزلته منذ نبت) بقسوة الخيط والحلوى، ودفنَت وجهي تحت قناعٍ محكم من المساحيق، حاصرت عينيَّ برموشٍ صناعية صلبة تتكسر عليها دموع أشد العيون حزنًا.

أمرتني «قومي»، بينما تنزع القماشة بخفة ساحر. نظرتُ كمن يودّع صورته. كنت شخصًا آخر. بشكلٍ غامض كنت أشبهها، كان قناعي هو وجهها.

•

ببساطة ودون استئذان، التقطَت حقيبتي وقلَّبت محتوياتها بسرعة ودربة أمين شرطة. من بين ركام الأشياء أخرَجَت نظارةً سوداء، من تلك التي يرتديها المكفوفون، ومسدسًا.

بدا اندهاشها من وجود النظارة أكبر من المسدس. حرَّكَتها أمام عينيّ مستفهمة، لكنّي أشحتُ بوجهي ولم أجب.

- إوعي مخك يوزّك تعملي حاجة كده ولا كده مع العجوز.. الراجل ده يهمني.

قالتها وهي تضع المسدس في يدي، لتخبرني أنني سأنامُ محتميةً بسلاحي، مؤذنةً بتواطؤ جديد، كأنها تمنحني تصريحًا بالقتل.

- حاعمل كده ازاي وانا نايمة؟

كنتُ أسأل نفسي قبل الست روزا. ربما كان الأمل في أن أستيقظ قبل العجوز، وهو ما لم يتحقق أبدًا من قبل، لا في الواقع ولا الروايات. غير أنها بدت كما لو كانت تمنحني الأمل بينما تقول بآلية: كل الجرايم بنرتكبها واحنا نايمين.. حتى القتل.. ده بالذات القتل.

قبل أن تدسّه في يدي، وجّهت الست روزا المسدس نحو رأسي ثم نحو حائط في البروفة، وصوّبت. دوّت الطلقة المكتومة، مخلفةً ثقبًا في الجدار. هل المسدس كاتم للصوت أم أن الصوت هو من يموت هنا؟ كانت تعلّمني طريقة استخدامه دون كلمات. تواطؤ آخر. هذا ما سأعرفه بعد ذلك، عندما سأستعيد درسها لأقتل شخصًا في الغرفة التي سأدخلها الآن بالذات.

أخيـرًا رفعَـت الحقنـةَ المنوِّمة في الهواء، كمن يُشـهر سـلاحًا في وجه قاطعِ طريق. بدأت تفرغها من الهواء المميت، قبل أن تدسَّـها في وريدي، وحيث تنسمتُ رائحةً حيةً وزفرة شعرت بها تنبع من داخلي، كأنها سكبت بحرًا في دمي.

عندما أخبرَتني أنني سأنامُ لزبونٍ مهمّ لم أفهم قصْدَها. يُفترض أن العجائزَ جميعهم متساوون طالما سأكون نائمة، وطالما سأستيقظ لأجد أن جسدي كما هو: جسد فتاة عذراء خرجت للتو من مضاجعةٍ متخيَّلة.

هل هو مهمّ بمعنى أنه يحتلّ منصبًا مرموقًا أو حساسًا؟ أم بمعنى أنه يهم الست روزا بشكل خاص؟ فهمتُ من تحذيرها أن عليَّ أن أفعل شيئًا استثنائيًا لكني لم أعرف ما هو.

قالت إنه أتمّ اليوم السبعين وقد يموت في أية لحظة. لم أفهم درجة مسئوليتي عن بقائه حيًّا. كانت تنظر لي وكأنني أملك ما من شأنه أن يطيل عمره.

بدا أن الست روزا تطلب مني شيئًا، هي بالذات لا تعرفه، تتضرّع لإلهةٍ أشدَّ ضآلة ليس فقط من أن تستجيب، لكن من أن تفهم. أيضًا كنتُ مرتبكة، فهذا العجوز المحتضر الذي لن أرى وجهه، ليس فقط رجلي الأول في منزل الجميلات النائمات، لكنه حرفيًا أولُ رجلٍ سيراني عارية.

دفعتني يدُها برفقٍ، ذلك الرفق الذي يشبه تهديدًا. بإصبعين كمسدس وهمي في ظهري، حرّكتني لأدخل الغرفةَ التالية، الغرفة التي سأقضي فيها ليلتي. كنتُ أفكر أن بابًا جديدًا قد ينفتح فيها

لأجد نفسي أعبر غرف العالم في متاهة لا وجود فيها لحجرةٍ أخيرة ولا سبيل لمغادرتها. لكن الغرفة التالية، لحسن الحظ، كانت الغرفة الأخيرة، حدّ أنها بلا نافذة، وكأنها صُمّمت لتكون نهاية العالم. شعرتُ بطمأنينةٍ فورية، فقد كانت تلك الغرفةُ أكثرَ عريا مني.

كانت الحوائط مخبأة. حُجبت بالكامل بستارةٍ قرمزية ثقيلة جعلت منها مكانًا معزولًا عن زمنه. كان باب الغرفة من الداخل مغطى أيضًا بالستارة، وبإغلاقه ستبدو غرفةً بلا باب.

سأفقد وعيي في أية لحظة لأن المنوّم بدأ بالتأكيد سريانه في عروقي، ويجب ألّا يحدث ذلك وأنا واقفة. لهذا أمرتني الست روزا أن أندسّ في الفراشِ مباشرةً. تكومتُ على السرير كقطّ، ليس من أجل اللحظة التي سيأتي العجوزُ فيها، بل انتظارًا للّحظة التي سأستيقظ فيها وقد انتهى كل شيء.

تلمستُ السرير، واسع، يتسع لأربعة أشخاص. عندما ماتت شقيقتي كانت إلى جوارها فتاةٌ أخرى، وقد قررت الست روزا وقتها أن تمنح زبونَها رشوة، بعرضٍ سخي، عندما قُتل أحد العجائز في رواية «الجميلات النائمات»، الرواية التي شهدت الظهور الأول للست روزا في عالم الأدب. ربما كان يملك من السلطة ما يجعله قادرا على تجريدها من فستان الحداد الأسود وإلباسها بدلة الموت الحمراء.

سرير معروضٌ لفرجة أناس أداروا ظهورهم للعالم قبل وقتٍ كافٍ، حيث الجميع لا أحد. لا شيء آخر في الغرفة، إذا ما استثنينا الكومودينو الصغير الملاصق للجانب الأيمن من السرير. لا، بل ثمة

مـرآة، وُجِـدت هنا من أجل رجـل لا امرأة، ليرقبَ العجـوزُ تجاعيده، أو ليتأمـل نومَ الفتاة في أشـد تقلباته عُريًا وقـد أصبحت اثنتين. مكافأةٌ أخـرى، خدمة مميزة دون شـك، وإلا مـا بقيت السـت روزا تدير هذا البيت كل تلك السـنوات محافظةً على خفائه، وقد نجحت بقدرة قادر في محوه من اسـتمارات التعداد وإيصالات الكهرباء والمياه، وحذفه من كردون المدينة نفسـه وصولًا لخريطة العالـم، محققةً الأمل الذي يعجز أعتى الحالمين عن تحقيقه: أن يحيا في مكانٍ لا وجود له.

فكّرتُ: لابد أنني دخلتُ بيته في مرة. ربما يتعرف فيّ لحظة دخوله على فتاة دخلت سريره لتنام.

رفعتُ الوسادة التي سيغيب فوقها رأسي، وأخفيتُ المسدس.

ذات يـوم وجـدتُ ذلـك المسـدس في حمّـام العامـلات، محاطًا برائحةِ عطرِ صاحب المصنع الثقيلة، وعلى قاعدة التويلت رأيت بقايا منيّـه. هل كان يسـتمني في حمام البنات كما يُشـاع عنـه أم كان «زانق واحـدة» مثلمـا يفعل عادةً؟ أشـحتُ بوجهـي أولًا، كأنّ مـا رأيته كان ذَكَـره، لكنني مددت يديّ وتحسسـته مغلقة العينيـن. أتذكر الآن أنني كنت مغمضة بنفس الطريقة التي سأصير عليها في بيت الست روزا.

كان صاحـبُ المصنع يمشـي مائلا وكأن ثقل سـلاحه يشـدّ نصفَ جذعه لأسـفل. لم يكن يكفّ عن تحسسـه، بالطريقة التي يتحسس بها الرجال في شـارعنا أعضاءهم في الجلابيب الواسـعة أيام الجُمَع. كان مسدسه هذا يبدو في تدلّيه حيوانًا مستسلمًا جرى ترويضه، حيوانه النائم لكن المتأهب دائمًا للخطر: لا تستغرق الرصاصة وقتا لتستيقظ.

عندما رأيت المسدس لأول مرة على هذه الدرجة من القرب اكتشفتُ أنه أضخم مما اعتقدت، وباردًا كأنه ليس بيتًا للحرائق. قربتُ أنفي من فوهته. لا أعرف لماذا فكرت في تنسم ذلك الثقب الذي بدا مدخل نفقٍ مظلم يُغري بالدخول. للقتل دائمًا بابٌ مفتوح، لكن من يعبره، يُغْلَق خلفه للأبد. لقد عبرتُ الفوهة في ذلك اليوم، وكان جسدي نفسه مستعدًا ليتضاءل مثل «أليس» لأدخل عبرها دون حتى أن أحني رأسي. حين ألصقت الفوهة بأنفي شممت رائحة فمٍ ما، كأن روحًا إنسانيةً تسكنه.

التفتُّ حولي، كأن صاحب المصنع قد يبرز من مكان ما في الحمام ليستردّ سلاحه، وبسرعة أخفيته في حقيبتي. كان موعدُ انصرافنا فخرجتُ مباشرةً للشارع. في اليوم التالي قلب الرجل المصنع رأسًا على عقب بحثًا عن مسدسه. اندهشتُ، صادقةً، لأن ذلك الساحر الذي يجردنا من ملابسنا دون أن نشعر، عاجزٌ عن العثور على الشيء الوحيد الذي يحميه. ظلّ يبكيه حتى بعد أن يئس من العثور عليه واشترى واحدًا مطابقًا. كان تذكّره له يستدرّ دموعه، وعرفت من يومها أن علاقته بذلك الكائن كانت أعمق مما تخيلت، وأنه لم يكن كلبه المدرّب أو حتى ملاكه الحارس، كان هو.

هذا المسدس ينام الآن تحت مخدتي.

من أين ينبع الضوء؟ من كوّات مختبئة في السقف المعلّق، لا نجفة أو لمبة تؤلم عين الشيخوخة المُطفأة. إنه مصمّم ليلائم حدقات العجائز التي أعشتها الشموس. لكن رغم ذلك، أو بسبب ذلك بالذات، كان ذلك النور الشحيح ضوءَ الفضيحة نفسها.

وضعتُ نفسي أسفل الضوء الساقط ليضيء جسدي: ممثلة وحيدة على خشبة مسرح. عندما رأتني الست روزا ممددة، أخيرًا، ومغمضة، بدأت تتراجع للخلف نحو الباب دون أن تستدير، كأنها لو أعطتني ظهرها فستتلقى الرصاصة. وكان وجهُها المتراجع يزدادُ وضوحًا كلما ابتعد، حتى اكتملت ملامحه بخروجها من الغرفة.

اختبأتُ أكثر في السرير، في انتظار العجوز الذي سيفتح عمّا قليل الباب، لينام إلى جواري. يُفترض أن أنام خلال لحظات، وقد شعرتُ أنني مفقودة في عزلة هذه المملكة الصغيرة للنسيان. لا يزال صوت البحر مسموعًا، ينبع من بين الملاءات أو من تحت السرير أو من مصدر الضوء نفسه وقد اتحد بشموس الغرفة المخبأة. أي بحر ذلك الذي يطلّ من الأمكنة كلها في اللحظة ذاتها كأنه يُبدِّل موقعه، أو ربما يبحث عنه؟ إنني عارية، لا أملك سوى المسدس الذي وضعته الست روزا بصمت في كفي بعد أن تجردتُ تمامًا من ملابسي. بسطَت راحة يدي وأراحت السلاح عليها كمن يضع قرطا في قطيفته، ثم أغلقت يدي عليه، وكأنها تمنحني أجري. اتفاقاتها صامتة هذه المرأة، كأنها العدوّ الأقدم للكلمات.

عارية تماما، مستلقية على ظهري، ومستيقظة كما لم يحدث من قبل. هل هذا طبيعي؟ هل كان يُفترض أن أكون نائمةً الآن؟ أم أن سريان المخدر يحتاج بعض الوقت؟ فات الوقت لأسأل الست روزا عن المدة التي يستغرقها المنوّم ليبدأ العمل، فهي مع العجوز الآن، ملتصقة به في الغرفة الخارجية، تمنحه التعليمات النهائية كمن يشرح لمريض طريقة استخدام دواء.

ماذا لو دخل العجوز وأنا لا أزال مستيقظة؟ ماذا لو لم يعمل المنوّم من الأساس؟ هل سأغمض عينيّ كأنني في تمثيلية؟ لو اكتشف ذلك العجوز أنه خُدع فسيقتلني على الفور، وقد يكون أنفه من الحدة بحيث يشمّ رائحة الاستيقاظ في جسدي الساكن.

طلب أن تكون شريكتُه مراهقةً عذراء، وقدمتني له الست روزا باعتباره رجلي الأول، لكن هل تعني عذريتي أن شخصًا لم يلمسني؟ وهل يملك أن يتأكد من صدق الست روزا؟ ولماذا يريد فتاةً عذراء طالما أنها نزوة عابرة لمخرّف في السبعين؟ هل يتصادف أن يكون هو أبي؟ جميع العجائز يصلحون آباءً لي.

أتكون أختي مدفونةً في هذا البيت، حيث سأعرف أن جثامين فتيات عديدات ووريت ترابه، الذي ظلّ محرّما على رفات العجائز؟ أتكون قضت في هذا السرير نفسه؟ وكيف ماتت؟ العجوز الأول يقول في روايته إنه استيقظ ليجدها جثةً باردة. هل كانت جرعة زائدة من المُنوّم؟ أم أطبق العجوز على رقبتها ولم يشأ أن يعترف؟ لقد ظلّ طوال الرواية يفكر في قدرته على خنق فتاة أثناء نومها. ربما لم يكتب كل ما حدث، فالقصصُ تُكتب لكي لا تقول شيئًا خطرًا، وهي لذلك تُكتَب لكي لا تقول شيئًا.

من يموت من الرجال، بالمقابل، كان يُبحث له عن خلاء بعيد ليُقذف به انتظارًا لفضيحة الشمس. إن لهؤلاء العجائز من سيسأل عنهم، ويملكون الكلاب القادرة على تعقب جثامينهم، والأوراق اللازمة لإثبات فَنائهم، ولهم مقابر لن يقبل ذووهم أن تتبطل. لكنّ

أحدًا لن يسأل عن فتاةٍ تُغيِّر اسمَها مع كل رجل كأنه سروالها. لقد جئن هنا وقد فقدن كل شيء، والشيء الوحيد الذي ربما أمدّهن به نومُ الست روزا الصناعي، هو أحلامٌ لا يقطعها استيقاظٌ مباغت، أحلام لن يتسنى لهن رغم ذلك إعادة حكيها أو البحث لها عن تفسير، لأن الأحلام نفسها كانت ملكًا لصاحبة هذا البيت، وأخطر أسراره.

ها أنا في السرير نفسه، جئتُ لأنتقم لشقيقتي من جسد عجوز آخر، فهل سأفعل؟ أم سأمدّ خطواتها للموت كجسرٍ أعبره لألحق بها؟ تذكرتُ ذلك الفيلم القديم المقبض، بالأبيض والأسود، الذي استوحى عنوانَه من نحيب طائر الكروان الغامض الذي لم أره أبدًا. عن فتاة تقرر الانتقام لأختها، التي قُتِلت في جريمة شرف بعد أن أحبّت رجلًا أفقدها بكارتها وهرب. تصل الأخت للرجل نفسه، تقيم في بيته متحينةً الفرصة لقتله، لكنها تقع في غرامه، بل وتتمنى في نهاية القصة لو تلقت الرصاصةَ بدلًا منه.

لماذا يقتل العجائزُ العذراوات عندما يقرّرون الكتابة؟ كيف ستنتهي قصتي؟ هل سأتّحد بالقاتل في الصفحة الأخيرة موجهةً طلقة أخيرة لجثمان شقيقتي؟

ألا تكفي حكايةٌ حزينةٌ كهذه لأنام؟ إنها كفيلة بإنامتي في أشد لحظاتي يقظة، فماذا وهناك منوّم قويّ يسرح في جسدي؟ أيُّنا جاء هنا ليتذكر، هو أم أنا؟ وهل حدث كل ذلك الذي أتذكّره الآن بقوة الحقيقة أم بقوة الكذب؟

التذكُّر نسيانُنا المكتمل. أفكّر: من يدّعي قدرته على التذكُّر هو شخص يحرس كذبته، فعند لحظةٍ ما، تصبح الذاكرة شيئًا هشًّا جدا، هشا وخادعا، حدّ أنها تغدو قادرةً على إيلامِك بكل ما لم يحدث.

لا تزال الست روزا تتحدث إليه في الخارج. ظننتُ أنها ستظلّ تفعل ذلك للأبد، وبدأتُ بمرور الدقائق أشكّ أن أحدا يقف وراء الباب مع الست روزا وأن رجلا سيدخل الغرفة. بطريقةٍ لا إرادية أخرجتُ المسدس، بدا مستسلما كحيوانٍ فقد شراسته بغتة وأصبح بالكاد سلاحا لقتل الفراغ.

مُهتديةً بالطريقة التي أخرجَت بها الست روزا رصاصةً حيةً قبل دخولي، فردتُ ذراعي، وصوبتُ باتجاه الباب. كنتُ بحاجةٍ لتمرين أخير على ما سيحدث، دون أن أعرف حتى هذه اللحظة كيف سيحدث، كيف سأقتطعُ من نومي لحظاتٍ للقتل.

لكن، في هذه اللحظة بالضبط، انفتح الباب

مدينة العجائز

(الليلة الأولى)

مثلما يملك البعضُ موهبةً خاصةً في التذكر، كانت شهرزاد تملك موهبة أن تنسى. هكذا وصلت لعامها السابع والستين وهي لا تعرف على وجه الدقة كيف كانت حياتها. كان نسيانُها من نوع جارف وإرادي، بحيث تستبعد ما تريد استبعاده ببساطة، كأنها تَحذف الملفات المتراصة على شاشة ماضيها أولًا بأول لتُبقيَ ذاكرتَها طوال الوقت فارغةً ومتخففة.

لم يكن ما تُنسيه لنفسها يعود للتذكير بنفسه. كان يُدفَن في اللحظة التي تُقرر فيها أنه مات، مرةً واحدة وللأبد. وقد مكّنها ذلك النسيان، لمراتٍ لا نهائية، من اختلاق جميع وقائع ماضيها التي لم تحدث.

***

- وهكذا لم أعش أبدًا الحياة نفسها مرتين..

تلتفت شهرزاد للعجوز الممدد على سريره كأنها انتبهت أخيرًا لوجوده. يمنحها إيماءةً بلا معنى.

تُكمل، متحدثةً عن نفسها باعتبارها شخصًا آخر: كانت شهرزاد تحكي حيواتها المتخيّلة لمرضاها العجائز إذا ما سألها أحد عن حكايتها في نوبات السهر الباردة بعنابر مستشفى الحميات. وحتى بعد أن تقاعدت ظلت تواصل ذلك في بيوتهم. لم تكن «مدام شهرزاد»، كما ينادونها في المستشفى، تملك حكايةً جاهزة بحيث تحكيها فور تلقّيها السؤال، لأنها لم تكن تتذكّر حكايةً روتها من قبل لتكرّرها. لذلك كانت ترتجل، مُفاضلةً في كل مرة بين عددٍ لانهائي من الحكايات المحتملة قبل أن تلتقط واحدة من بينها ببساطة التقاط رداء للخروج من دولاب مكتظ بالملابس، ومبدّلةً، بمهارة الماشي على حبل، بين الفصحى والعامية كشخصيةٍ في رواية، بينما تعبر التناقضات البديهية لحكاية تُختَلق لحظة النطق بها.

ولأنها كانت منذ شبابها المبكّر تُفضِّل المرضى العجائز وتترك الشباب والنساء والأطفال لممرضاتٍ أخريات، فقد حكت كلَّ ما لم تعشه لهؤلاء الغاربين: حيوات متناقضة تتسرّب كالتراب من قبضة شخصٍ واحد لا حياة له.

كان العجائز يسمعونها وهم يهذون بدورهم، يتساقط ماضيهم من أفواههم في حِجرها كأسنانٍ مخلخلة. هكذا كانت جلساتها بصحبتهم مباراةً خاسرة بين ذاكرةٍ معطوبة وأخرى لا وجود لها.

لماذا كانت تفضّل الرجال العجائز؟ كانت تسأل نفسها كلما خلعت البالطو الأبيض عند مغادرتها المستشفى، شاعرةً أنها تعرّت، بينما تواجه عتمة ميدان سموحة بتماثيله المنكفئة التي تبدو لفرط

بياضها أشباحًا زال طلاؤها. سألت نفسها كثيرًا ولم تنجح أبدًا في انتزاع إجابة شافية من بئر وجدانها الخاوي.

ربما كانت تريحها فكرة أن تتحدث لشخصٍ لن يكون حيًّا بعد قليل، حيث يُمثِّل الموت ضمانًا وحيدًا أن ذكرياتها الزائفة ستُوارى قبل أن يكتشف أحدٌ كذبتها.

إذا أرادت أن تعرف شيئًا عن حياتها الماضية، حياتها الحقيقية أو التي يُفترض أنها حقيقية (وكان ذلك يحدث لغرضٍ عملي في الغالب وليس لرغبةٍ في التذكر) كانت مدام شهرزاد تسأل جيرانها القدامى في الشارع أو زميلاتها الأقدم في المستشفى. إن بمقدورها حتى أن تنحني قابضةً على كرة أحد أطفال شارعها كقاطعة طريق لتستفسر مهدِّدة عن شيء وقع لها الأسبوع الماضي. كانت تفعل ذلك بدربة من نسي فجأة شيئًا لا يجب نسيانه، وكانت تُصدِّق الأطفال أكثر من غيرهم، ليس لأنهم لا يكذبون، بل بسبب العكس بالضبط، فلا وجود لطفل يقول الحقيقة.

فقط عندما تتحدث عن نفسها باعتبارها شخصًا آخر، عندما تجرّب أن تقول بينها وبين نفسها «مدام شهرزاد» بدلًا من «أنا»، كانت تجد نفسها في قلب حياتها المنسية فجأة، ليس حتى باعتبارها ذكرى بل كواقع يجري الآن لأول مرة، حتى أن تغيير نهاية أي ذكرى كان شيئًا ممكنًا. لكن ذلك كان يشعرها أنها تقترب من حافةٍ عاليةٍ وخطرة فتعود على الفور لتقول أنا، أنا، أنا، كمن يؤكد تهمةً على نفسه. تُكررها كتعويذة طاردة للأرواح الشريرة إلى أن تختفي حياتُها من جديد بعد أن أطلّت بوجه حيوانٍ غير مروّض فاتحةً فمها ومستعدةً لافتراسها.

- تلتفتُ أحيانًا لتُلقي نظرةً على ماضيك.. فتكتشفُ أنك خرجتَ حيًّا من مذبحة.

هكذا حُكم على مدام شهرزاد بخيارين كلاهما مُرّ: أن تبعث ماضيها كامرأةٍ أخرى، أو أن تظلّ أنا دون تذكُّر حياتها. وبهذه الطريقة، ظلت تعيش حاضرًا دائمًا، لا مكان فيه لماضٍ أو لمستقبل.

لكنّ شهرزاد بالمقابل، وبالقوة نفسها، كانت قادرةً على أن تتذكّر حيوات الآخرين دون أن تكون قد عرفت عنها شيئًا، بل وتعيد سردها لهم إن طلبوا، بذاكرةٍ تفوق أشد المتذكرين قدرة على استعادة حياته، حتى أنها فكرت في لحظاتٍ عديدة أنها لو قررت، لو تركت العنان لاستعارة ذكريات الآخرين، فستصبح، حرفيا، ذاكرة العالم.

لم تكن تكتفي بتذكر ما عاشه الآخرون، بل كانت تضع نفسها مكان من تتذكر له، إلى أن تصير في لحظة هو. كان يكفي أن تغمض عينيها ثم تفتحهما كأنها تزيحُ ستارًا داكنًا عن خشبة مسرح، لا لتصبح فقط في زمن آخر، بل لتصبح شخصًا آخر، الشخص الذي تتذكّر عوضًا عنه، والذي كان في بعض الأحيان قد مات قبل أن تولد هي. وكانت تستغرب، تستغرب حقًا، عندما يُعيدها الواقع في لحظة لحقيقة أن هذه الذكريات تخصّ شخصًا لا تعرفه، بينما تشبّ كجثة أعادتها الأعماقُ للسطح. وربما لهذا السبب وجدت ضالتها في الحكايات، لأنها كانت تجعلها مالكةً وحيدة، وبطلةً مُطلقة، لجميع الأزمنة التي ليست من حقها.

-أن تحكي حكاية يعني، ببساطة، أن تعيش عوضًا عن آخرين، وفور امتلاكك القدرة على ذلك، تستطيع أن تحكي أي حياة لم تعشها خيرًا من أصحابها.

أحيانا كانت تخشى أن تظل هناك، عالقةً في ذاكرة شخص آخر. كان يرعبها أن تذهب مرةً ولا تعود، وحدث بالفعل أن طال مكوثها في تاريخ بعض الأشخاص، حتى أنها حدست أكثر من مرة أنها لن تعود للحاضر. لكنها دائمًا كانت تعود، غير مصدقة المعجزة، ومتأملةً الواقع بالعينين الزائغتين لحالم. كانت تحتاج وقتًا لتعيد تعريف نفسها، وقتًا وصل في بعض الأحيان لسنوات قبل أن تعرف من جديد من هي.

- أنت كاتب.. ربما بإمكانك أن تجيب على هذا السؤال.. ولو بخيالك، فلم يحدث في مرة أن قدّم الواقع إجابة. عندما أتذكر شخصًا آخر.. أصير هو.. كأنني أقصه بمقص من صورة لأضع صورتي مكانه.. في نفس الحيز.. هناك.. في هذه الحالة يكون موقعي أنا شاغرًا هنا.. لأنني صرت هناك ولأنني صرتُ شخصًا آخر.. في هذه الحالة من يملأ هذا المكان لحين عودتي؟ من يكون «أنا» إلى أن أرجع إلى مكاني؟ هل أختفي في هذا الوقت بين الذهاب والعودة، أم أنني أصير الشخصين معًا؟

ينظر العجوزُ إليها كأنه ينظر لسؤالها نفسه. إنه لا يعرف إن كانت تسأل نفسها أم توجّه السؤال إليه، وهو في الحالتين لا يملك إجابةً سوى النظر.

إنها تجلس الآن قبالة العجوز الجديد الذي ستقتله، التعبير الأدق: العجوز الأخير، الذي قتلت جميع من قبله كي تصل إليه، هنا، في غرفة

نومـه، على سـريره، لتُنهي مهمـةً طويلة، كلّفها بها شـخصٌ آخر، وكان حتميًا أن تنجح، ليس لأنها تنتقم لابنتها، لكن لأنها إن أخفقت، فسيقتلها الرأسُ المدبّر، الشخص الذي يدير مدينةً كاملةً من خلف الظلال.

هـذا العجوز الممدد هو الرجل الذي تسـبب في كل ذلك لابنتها، الذي جعلها تنام، منذ تسـعة أشـهر، رافضةً المـوت والحياة معًا. كان يجـب أن تكون ثمة نهاية، نهايـة يمثّلها موتُ ابنتهـا ودفنها أو عودتها للاستيقاظ.. وها هي تصل إليه الآن، بعد أن قتلت جميع عجائز منزل الجميـلات النائمـات. قتلتهم داخل غرفهم، بعـد أن منحت كلًّا منهم جزءًا من حكاية.

-الحكاية: باب القبر الذي يتحتم أن يفتحه بيديه من أراد أن يولَد.

ولكـي تولَـد، كان يجـب أن تـوزِّع مـدام شـهرزاد الحكايـة علـى العجائـز الذين قررت أن تقتلهم أو كُلِّفت بـأن تقتلهم (لا يهم الآن إن كان ما تفعل نابعًا من شخصٍ آخر أم من داخلها)، بحيث تبدأ الحكاية الطويلـة التـي تريد أن تحكيها مـع العجوز الأول وتنتهـي مع العجوز الأخيـر. محظوظان: مـن يحظى بـأول أي حكاية قبـل الآخرين ومن يعرف نهاية أي حكاية دون الآخرين. وقد رتبت مدام شهرزاد حكايتها بحيـث تحكي لكل عجـوز مقطعًا منها بينما يحتضر، في المسـافة بين تلقيه الحقنة القاتلة وتمدد السم في دمه. هذه المسافة كانت كل شيء، فـلا يجـب أن يموت قبل أن تُنهـي المقطع المعدّ لـه، يجب أن يتزامن موتـه مع آخـر كلمة، يجب أن تقتلـه كلماتُها لا السـم، ففي ذلك فقط يكمن ليس فقط نجاحها، لكن نجاتها الشخصية من حكايتها.

لابد أن يحصل كل عجوز على جرعة من الحكي مساوية للآخرين، لكن دون أن يشترك اثنان في الجزء نفسه من الحكاية. سيقتلهم الشغف واحدًا واحدًا، من يريد أن يعرف ما فاته ومن يموت فضولًا ليعرف ما سيحدث. بين ماضي الحكاية ومستقبلها، لن يحصل واحدٌ إلا على نصيبه من الحاضر، ذلك الذي لا يعني شيئًا، ذلك الذي كان يعني كل شيء لمدام شهرزاد.

سينتهي للأبد منزلُ الجميلات النائمات، وستكتمل الحكاية أخيرًا، كأن لا وجود لحكايةٍ مكتملةٍ دون موت جميع أبطالها.

بملابس «الحكيمة» تصعد الطابق المتفق عليه. جميع هؤلاء العجائز كانوا مرضاها ذات يوم قبل أن يصبحوا ضحاياها في هذه المهمة، مهمة حياتها الأخيرة كما حدست وكما راح الواقع يؤكد حدسها كأنه يجاهد لكي يصبح تقليدًا مدرسيًا لخيالها.

إنها تصدّق أن موت شخصٍ ما يمكن أن يعيد الحياة لشخصٍ آخر. هكذا أقنعت نفسها أن مع كل عجوز تقتله سيعود لابنتها جزءٌ من وجودها في الواقع. «لكم في القصاص حياة»، كم من المرات ردّدتها بوجدان المتوضئ في صلاة وهي تُفسِّرها لنفسها حرفيًا رغم أنها طالما كرهت من يتعاملون بالطريقة نفسها مع أكاذيبها.

مع كل قتيل، كانت تعود لتراقب ابنتها، المدفونة في ثرى أحلامها وهي تستعيد كل القصص التي لم تعشها، كأن لا شيء بوسعه إيقاظ فتاة نائمة سوى دم رجل.

ليست هناك كلمات قادرة على وصف وجه رجلٍ يحتضر بينما يتحرق شوقا ليعرف نهاية حكاية. كانت تعرف، نهاية الحكاية الأهم من نهاية حياته، ترويها ممرضة لها وجدانُ خادمة، يكفيها أن تفتح يدٌ الباب لها لينتهي كلُّ شيء.

لكن هذا العجوز المؤلِّف محظوظ، سيسمع الحكاية كاملة، سيُكافأ بالقتل والحكاية معًا من حيث جاءت لتعاقبه بكليهما. نعم سيكافأ بالقتل، لأنه الآن، في هذه اللحظة، لم يكن أكثر من حطام، ولو أمكن لكلمة «ذكرى» أن تتجسّد، فإن هذا العجوز هو الذكرى.

أرجأته للنهاية (أرجأه الرأس المدبر)، لقد قتلت سابقيه من أجل أن تصل إليه هو، وهُم بهذا المعنى ضحاياه أيضًا. يجب أن يكون هو الأخير إن أرادت لما تفعله أن يكتمل، أن يصبح ذا مغزى كحكاية. لم تكن مدام شهرزاد في هذه اللحظة تعرف عم تبحث: حياة ابنتها أم حكايتها الشخصية؟ غير أنها حدست أنها بهذه الطريقة فقط ستكون قادرةً على العثور، أخيرًا، على حياةٍ حقيقية تصلح لتكون حياتها.

لكن، وحتى يحدث ذلك، فلديها من الحكايات ما يفيض بالتأكيد عن ليلة. كانت شهرزاد قادرةً في هذه اللحظة على أن تحكي له هو نفسه حكايته، وأن تذكّره بكل ما صار مستحيلًا أن يتذكره. فكّرت أن تسأله «تحب تجرّب؟»

دون أن تسأله عن سرّ غياب «دميانة»، تستدعي اللحظة التي غادرت فيها الخادمة البائسة هذا المنزل مقررةً ألا تعود ثانيةً.

كان البيتُ أكثر قِدمـا منه. بدا فيه طارئا كمن زجّ بجسـده في زمنٍ آخـر. أغمضت مدام شـهرزاد عينيها واسـتحضرت المشـهد، وكانت هـذه هي المرة الأولى التي تجـرب فيها التذكر نيابةً عن رجل: دخلت خادمتـه «دميانـة» لآخـر مرة. كانـت تحمل باقـة ورد، بارتبـاك جميع الفقـراء حين يضطرون لشـراء ما ظنوه دائمًا بلا ثمـن. كان هو يجلس وحيـدًا، منهمكًا في إتمـام مخطوطه، والذي يحكي فيه قصة حبه لفتاة تصغره بأكثر من سبعين عاما، كانت ابنة شهرزاد.

كان ضوء أول الشـتاء يقطع الشـقة الواسـعة التي ورثها عن أبويه، والتـي تزداد اتسـاعًا كلما باع واحدة جديدة مـن المقتنيات التي ورثها ليتمكّـن من العيش في أثاث قليل هـو ما تبقّى من ميراث بِيع بالتدريج لسـداد أقسـاط البقاء على قيد الحياة. كان يكتب على آلة كاتبة عتيقة، لم يعد أحد يستخدمها منذ زمن طويل، لكنها كانت أحدث ما يستطيع التعامـل معه مـن تكنولوجيا ما بعد الكتابة بخـط اليد. ومن جرامافون عتيـق كانـت تغمـره سـيمفونية تخدشـها أصوات شـارع فـؤاد، لتردّه للحاضر، أو لتؤكد له أنه لم يعد جزءًا منه.

إنه يبدو في هذا المشـهد مثل شـخصيةٍ تؤدي دورًا في فيلم، شـخصية ستنهض فور أن ينتهي المشهد وتخلع ملابس الدور وتعود شخصًا آخر.

ينفتـح باب الشـقة، وتدخل دميانة، خادمته المخلصة، والشـخص الوحيد الذي يملك نسـخة من مفتاحها، مفسـحةً الطريق لهواء العالم كي يدخل معها، مع قدرٍ من الضوء والصوت، ذلك القدر الذي يسمح لكاتب بأن يكون جزءا من العالم دون أن يختنق به.

لا تـزال خادمتـه العجـوز عـذراء، رغـم أنها أكثـر امـرأة ضاجعها فـي حياته، وقد دخلت الشـقة فـي تلك المرة الأخيـرة بالصفة التي لم تمارسها يومًا، عاشقته.

- كانت «دميانة» قد فهمت أنك وقعت في الحب مع تلك الفتاة الصغيرة في منزل الجميلات النائمات.. وأنت لم تعرف أبدًا أن تلك الخادمة ظلت تحبك وما من سبب لتحتمل ما احتملته، بما في ذلك مضاجعاتك الشاذة لها، سوى ذلك الحب الأكثر صمتًا ويأسًا. في تلك اللحظة فقط قررت أن تخرج من حياتك، صامتةً كما كانت دائمًا وهي تنظف البيت، وتطهو طعامك، وتئنّ مهانة ومحرجةً من طريقتك في انتهاكها كلما انحنت لتمسح البلاط.. بالمناسبة هل «دميانة» هو اسمها الحقيقي أم أنه اسم مستعار؟ تبدو عند مناداتك لها كأنها لا تملكه، تستدير لك بعد لحظة سهو وقد أدركت، بعقلها وليس بفطرتها، أنها المقصودة بالنداء.. هذا لا يحدث عندما يُنادَى شخص باسمه الحقيقي.

لا يجيب، وتفكر شـهرزاد أن تشـوهه هذا ما هو إلا ملابس الدور، الـدور الذي لم ينـج منه، الدور الذي التهمت فيه نيـرانٌ حقيقية البطل فيما كان يتعثر، بكامل إخلاصه، في نيران المشهد مطمئنا أنها زائفة.

تكمل وهي تتلفّت كأنّ حيوانًا وهميًا يتقافز من حولها: كان القط يتقافز كأنه تجسيد لحيرتك، القط الذي حصلتَ عليه كهدية في عيد ميلادك التسعين، وصار كابوسك اليومي، ذلك أنك كنت ترى في برازه المتفرق بين أركان البيت ما هو أبعد من همجية الغريزة أو

عفن الرائحة، كان صورةً لحياتك: تلك البقايا الموزعة على بيوت عاهراتك الحزينات، اللائي عدتَ لتذكُّرهنّ دفعةً واحدة في الوقت الذي كان يجب فيه أن تحيا نسيانك الكامل تحت التراب.

- تفكـر أنـت (هنا يلتفت. إنهـا لا تتذكر فقط المشـهد بدقة. إنها تعـرف فيـم فكَّر يومها) أن تضاجـع «دميانة»، لمرةٍ أخيـرة، وكالعادة مـن الخلف. الرجـال يحدث معهم ذلك. يهيجون فـي لحظة الوداع فجأة.

تصمـت. لقد عـرف ذلك الرجل الآن أن تلك المـرأة تعرف حياته خيـرًا منـه، فهي لا تتذكرهـا باعتبارها وقعت ذات يـوم، بل كحياة تقع الآن ولا سبيل للذاكرة كي تحرّفها أو تُبقي منها ما يحلو لها.

بينمـا كان العجـوز يفكر في مضاجعـةٍ أخيرة مـع خادمته المتجهة نحو باب الشقة لآخر مرة بعد أن تركت له باقة الورد، وحيث لن تعود، شـعرت مدام شـهرزاد وهي داخل المشـهد بالنيابة عنـه أنها تنتصب. أيقظتهـا حرقة عضوه متمددةً بين فخذيهـا، وارتعبت لفكرة أنها قادرة على ذلك الشعور المتجسد والمكتمل بانتصاب رجل.

تصمت، كأنما تمنح ذاكرتها وقتا لتهدأ، أو لتعود امرأة.

- الفـارق بين الماضي والمسـتقبل أن الماضي لا مجال فيه لنبوءةٍ خاطئـة، لكن لا أحد يصدق أنه لا يعـرف ماضيه، أن أحدًا غيره يعرف خيرًا منه ما حدث له، لا أحد يملك الشـجاعة ليستمع إلى ماضيه على لسان شخصٍ آخر.

تعزو شهرزاد ذلك أيضًا لسلطة الحكايات، والتي بقدر ما حرّفت حياتها الواقعية حتى محتها لتصبح غير موجودة، فإنها كانت قادرة على تأكيد تاريخ الآخرين وتثبيت ماضيهم أمام عينيها كأنه صورة على جدار.

- الناس يعتبرون أن ما عاشوه يتساوى مع ما عرفوه رغم أن هذا غير حقيقي، ورغم أن الماضي، وليس المستقبل، هو المجهول الحقيقي.

في مهمتها الجديدة هذه كقاتلة، لم يكن هناك شخص لتسأله عما حدث، فشهود هذا الجانب من ذاكرتها كانوا هم أنفسهم ضحاياها. وهكذا وجدت مدام شهرزاد نفسها مضطرةً، ولأول مرة، أن تتذكر لنفسها بقوة تذكرها للآخرين، ما بدا لها خيانةً أخيرة لم تتخيل يوما أنها ستُقدم عليها.

في مهمتها هذه، والتي من أجلها تجلس في هذه الغرفة، كان عليها أن تروي أخيرًا، حكاية حقيقية عن حياتها، دون أن تضطر للتعامل مع نفسها كامرأةٍ أخرى، كان عليها أن تقول: أنا، مرة واثنتين وألفا، دون أن تكون كاذبة. وهكذا أدركت أن الغرض الحقيقي لهذه المهمة لم يكن الانتقام، بل التذكّر.

مطلع أغسطس 2014.

صيف قاتل. تردِّدها مدام شهرزاد الآن مثلما ظلت تردد لنفسها طيلة الطريق رغم عدم اقتناعها بما تقول. يقول الناس هذا في كل صيف وكأنه الصيف الأول لهم في الدنيا. بالنسبة لها هو صيف ككل صيف، كالصيف الماضي وقبل الماضي، وكالصيف القادم وبعد القادم.

لـم تهدأ الاحتفالات بعد. الناس في الشـوارع يحتفلون بهسـتريا. رئيس جديد، حليق ومبتسـم. سابقه، الملتحي المتجهّم، في السجن. أشعرها مرورها السريع بينهم أنها متهمة. صيف قاتل، ظلت تردد وهي تمضـي في الزحام كأنها تُلقي بتعويـذة، ذائبةً في وجه المدينة المغطى بالمسـاحيق بينمـا البحر شـاهدٌ وحيدٌ وصامت. إن ذلـك يلائم مرورًا آمنا لقاتل، وهذه الشمسُ متواطئة مع الجميع.

صيف قاتل. هي أيضًا قاتلة، لكنها لاتعرف إن كانت حقا تفعل ذلك لأول مرة خلال هذه المهمة. إنها تعمل طيلة عمرها في مهنة أقرب ما تكون للقتل. ربمـا لذلك وقـع اختيارُ الـرأس المدبّر عليهـا دون غيرها. لقد مـدَّدت مدام شـهرزاد حيوات هـؤلاء العجائز طيلة سـنوات، بإبرة، ولا بـأس أن تجرّدهم منها لمرة واحدة بنفس الإبرة. الجميع، بشكلٍ ما، مرضى بحيواتهم.

فكرت شهرزاد: قد أكون مارست القتل من قبل، وتكفلت ذاكرتي بمحو ذلك.

لقد دخلت هذه الغرفة لتحكي أيضًا، وهي لن تغادرها إلا بعد أن تُنهي حكايتها، الحكاية التي جاءت لترويها، أخيرًا، كاملة، أكثر مما جاءت لتقتل رجلًا تسبّب لابنتها في نومٍ أبديّ لا يبدو أنها ستستيقظ منه. حتى لو استغرق ذلك أيامًا، ستبيت هنا، وتنهض لتكمل في الليلة التالية. لا يبدو أن ذلك العجوز سيمانع. لا يبدو أنه سيقوى.

تفكـر في نفسـها فجأة، وتتسـاءل بينمـا تنظر للعجـوز: هل يجعل القتل من القاتل شـخصًا آخـر، أم أن كل ما يفعله هو العثور على ذلك الآخر، الموجود بالفعل والذي لا تنقصه سوى الفرصة ليولد؟

من جديد ينظر إليها ولا يجيب. وعدته بحكاية، حكاية مثيرة، حكاية لو كُتِبت بالإبر على آماق البصر لكانت عبرةً لمن يعتبر. حكاية اسمها مدينة العجائز، حكاية حب وانتقام وجريمة، حكاية فيها الكثير من المشاعر والدماء. لم تخبره أنها جاءت لتوجيه أسئلة أو لإثبات موهبةٍ لا تعنيه بينما يخطو نحو عامه الواحد والسبعين، غير مصدق، مجددًا، أن عامًا جديدًا سيضاف إلى عمره الذي يظن كل صباح أنه لن يشهد ليلةً أخرى.

اليوم، السادس من أغسطس، تنزع ورقةً من نتيجة الحائط. لو أنها مكثت تسعة أيام، تُفكّر، فستحتفل معه بيوم عيد ميلاده. تفكر أنه قد يكون من الملائم أن توزع حكايتها على هذه الأيام التسعة، بحيث تنهيها، وتنهيه معًا، في ذكرى اليوم الذي بدأ فيه عالمه.

لكن أية حكاية جاءت مدام شهرزاد لترويها بالضبط؟ حكاية مدينة العجائز، أم حكاية الفتاة النائمة، أم حكاية القوادة روزا، أم حكاية العجائز القتلى، أم حكاية ذلك العجوز الممدد نفسه، أم حكايتها هي؟ وهل ستُنهي حكايةً لتبدأ أخرى أم ستحكي جزءًا من كل حكاية لتكبر الحكايات معا كإخوة ثم تموت معا في النهاية؟ ما الطريقة الأمثل؟ الطريقة أهم شيء، إنها أهم من الحكايات نفسها، وهي تريد أن تنهي كل حكايةٍ بسؤال، وليس بإجابة.

تذكّرت شهرزاد حكاية ذلك الكتاب الذي اشترته من «الرملي» بائع الصحف الذي تتعامل معه في محطة الرمل. صدر في آلاف النسخ، ثم وضع ناشره إعلانًا صغيرًا بالصحف الثلاث يقول إن في كل نسخة ثمة عبارة غير موجودة في بقية النسخ، وبالتالي فمن يريد قراءة الكتاب

عليه أن يشتري جميع النسخ، وهو حل مستحيل، أما الحل الثاني، فأن يتوصل جميع القراء إلى بعضهم، يقارنون نسخهم، (وهذا يعني أن واحدا منهم على الأقل، عليه أيضًا أن يقرأ جميع النسخ) وبتجميع العبارات غير المكررة وإعادة ترتيبها ستنشأ حكاية قصيرة ومنسجمة لا يضمها الكتاب المليء أصلًا بالحكايات، هذه الحكاية هي نفسها الحكاية التي تذكرتها شهرزاد الآن.

ستتذكر لمرة أخيرة (أولى في الحقيقة) حياتها، وكانت تعرف، بطريقة غامضة، أن في ذلك التذكر يكمن موتها، لأنه سيعني ببساطة نفي الحاضر الأبدي الذي كانت تحياه كسمكة في مياه.

في هذه اللحظة، تنظر شهرزاد في عيني العجوز الممدد، تتردد شفتاها كمن سيعترف أخيرًا بجريمة، قبل أن تنطق كلمة واحدة: **أنا**.

تنظر إليه. إنه يبحث عن حكاية. كأنه يقول لها هذه ليست حكاية. ليست هذه الحكاية التي جئتِ من أجلها. يشبه شخصًا شاخ في لحظة مختصرًا جميع الأزمنة التي يضطر آخرون ليقطعوها لكي يموتوا حيث ينبغي للمرء أن يموت، ظل عجوزا بعد ذلك كأنه شاخ لمرة واحدة واستطاع تثبيت الزمن عند شيخوخةٍ يائسة غير قابلة للتقدم خطوة جديدة للأمام، وكأن اليأس الكامل هو الطريقة الوحيدة لتثبيت الزمن في مكانه. وبدا لها، بينما يتوسّل لتبدأ حكايتها، محض جثةٍ يقتلها الأمل.

ستحكي له ما مر بها خلال الشهور التسعة الفائتة. المهم أنها تملك الآن حكاية مكتملة تستطيع أن ترويها، مثلما أكمل هو مخطوطًا موجودا الآن.

تتنهد شهرزاد، مقررةً أن تبدأ حكايتها للعجوز بعد أن أنهت حكايةً لنفسـها، لكنها قبـل ذلك تتأمل بعيـنٍ جديدة الوجـه المضبب للرجل الممدد، كأنها تبحث عن شـيءٍ من ابنتها في بقايا ملامحه. هل يمكن أن يكـون هـذا الرجل أبًا لتلـك الفتاة؟ حتى وهي تسـتعيد ذاكرتها في مهمتها الأخيرة هذه، لا تتذكر أنها ضاجعته.

هنـا، ولأول مـرة، ينظر إليها حقـا، لا، إنه ينظر داخلهـا، حتى أنها تـرى العينين البعيدتين، تعودان، وتضعان نفسـيهما دون اسـتئذان في ذكراها.

تغمض عينيها، كأنها تشيحُ بهما عن شمسٍ طارئةٍ في الغرفة، بينما تتذكـر ما حدث للفتاة في منزل الجميـلات النائمات، وتبدأ على مهل فـي بعث حياتها لترويها كأنها بطلتها وعلى لسـانها وباعتبارها تحدث الآن. تبحث عن عبارةٍ مناسـبةٍ تبدأ بها حكايتهـا. كانت عباراتٌ كثيرة مرشـحة تتزاحم وتتصارع وتتخبط في هواء ذاكرتها، حتى أنها راحت تهشـها بظهـر كفيهـا كذبابات. وكمن ضبط مؤشـر مذياعـه على نغمةٍ صافيـةٍ ونقية، بدا أنهـا عثرت على العبارة الملائمة، لتبـدأ التذكر نيابةً عن ابنتها وقد وضعت جسدها في سريرها.

أخيرًا تقول: *أنا حلمُ شخصٍ آخر.*

منزل النائمات

(الفصل الثاني)

- البِت نايمة جوا.. ما اتكشفِتش على راجل زي ما طَلَبْت..

كانت الست روزا تتحدث بنبرتها الطبيعية، دون أن تُخفض صوتها، واثقةً أن أحدًا لا يسمعها سوى من تحدثه، ما يعني أنني بالنسبة لها في هذه اللحظة نائمة.

سمعتُ صوتَ سائلٍ يرتطم بقاع فنجان، بحر آخر يتكسر على شاطئ من خزف. إنها تصب له الشاي.

لابد أنهما ملتصقان الآن، في غرفة «البروفة»، حيث الهواء نفسه محض وجهٍ مستعار.

- خلّي بالك دي أول مرة تعملها..

حذرته مثلما حذرتني. لماذا تحافظ على كلينا؟

حتى هذه اللحظة لم يكن العجوز قد تكلم. كيف يمكن أن يكون صوته؟ أم أنه فقده فجأة في صدمة ذلك المكان الطارئ على شيخوخته؟

انتظرتُ أن أسمع نبرته، كدليلٍ على أن ثمة قناعًا ثالثا يشاركنا حفلنا التنكري. أو ربما خمنتُ أن ظهور ذلك الصوت كفيلٌ بجعلي أغرق في السبات، وقد بدأتُ أتوجس أنني لن أنام أبدًا، ليس الليلة فقط، لكن للأبد.

في هذه اللحظة أرعبني صوتُ الست روزا أكثر بينما تكمل له تحذيراتها بشأن قوانين المكان، وكنتُ للمرة الأولى أسمع صوتها دون أن أراها.

- وبلاش تضايقها بأي تصرف سمج.. يعني ما تحاولش تحط صوابعك في بقها أو تلحس بتاعها.. ده مرفوض.

كان يصلح صوتًا لامرأة ولرجل بالقوة نفسها. تخيلتُ للحظة أنه ربما لا يكون معها أحد، وأنها تتحدث نيابةً عن نفسها وعن رجلٍ غير موجود، انبعث من داخلها، ليتحرك مثل صورةٍ أخيرةٍ لعجزها هي.

- عندها كام سنة؟

كانت تلك هي العبارة الوحيدة التي أفلتها أخيرًا.

كانت الست روزا جاهزة بالرد، كأنها كانت تتوقع السؤال: طالما ما نامتش مع راجل تبقى لسه ما اتولدتش.

في لحظة انفتح الباب، بينما كانت ذراعي مفرودة بالمسدس، وأصبحت الست روزا في مواجهتي وكأنها تقدم نفسها كضحية.

حدجتني بنظرة من الجحيم، دون أن تهتز فيها شعرة لرؤية مسدس مصوّب لجسدها. رغم ذلك أغلقت الباب بهدوء، لتمنحني وقتًا

للتأهـب، وقـال صوتُهـا، الذي بدا فـي تلـك اللحظة أقرب مـا يكون لصـوت الرجل الذي ينتظر بالخارج: غرقانة في النوم.. شـوف تحب تبدأ إمتى.

سأظل طيلة الليلة أسأل نفسي، لماذا فتحَت الست روزا الباب لمرةٍ أخيرة قبل أن تُدخِل العجوز؟

هل هو مجرد إجراء روتيني أم أنها كانت تعرف أنني مستيقظة وتنبهني من ثم، بتواطؤ القوادات، لضرورة إغماض عينيّ المفتوحتين لكي لا يُفاجأ العجوز بأنه خُدِع؟

أغلقتُ عينيّ، بتصنع مثير للريبة أكثر مما لو كنت تركتهما مفتوحتين. ألم يكن من الأفضل لو كنتُ ضريرة؟ لماذا لم تفكر الست روزا مباشرةً في فتيات ضريرات؟ أم أن هدفها كان غياب الوعي لا انعدام الرؤية؟

لقد احتجزَت نظارةَ المكفوفين السوداء، ولم تلح في سؤالي عن سبب وجودها في حقيبتي. هل ستضيفها لغابة الاكسسوارات في غرفة البروفة؟ وجميع هذه الأشياء التي رأيتها بالخارج، أتكون انتُزعت ذاكرة من فتياتٍ أخريات؟ ربما، وربما أدركَت الست روزا بوجدان المرأة التي كانتها ذات يوم، أن هذه النظارة الضريرة أثرُ حبيب، ولم تشأ أن يشاركنا سريرنا شبحُ رجل.

كانت النظارة تخصُّ شابًا ضريرًا. في نقطةٍ بعينها كان يستوقفني كل يوم، في طريقي للمصنع. كان يمدّ نحوي يدًا متضرعة فور عبوري إلى جواره، كأنه يراني وينتظر أن أعبر أنا بالذات به الشارع. كأنني كنت أكثر من أداته لعبور الشارع: كنت موعده.

كلَّ يوم، أمد له يدي وأعبر به الشوارع القليلة المتبقية التي تفصلني عن عملي. أتركه عند بوابة المصنع، دون أن أعرف كيف يكمل طريقه بعدها ولا أين يذهب. كل يوم يمر كان يُقرِّبني خطوة من الرجل الذي لا أعرف عنه شيئًا. يومًا بعد الآخر كنت ألحظ أن خطواته المرتبكة تتسق أكثر، كما لو أنه يسترد قدرًا من بصره مع كل خطوةٍ إلى جواري، لكن نظارته السوداء كانت تؤكد أن لا شيء يرقد خلف عدستيها سوى الظلام. لم يتحدث أبدًا. لم أسمع صوته. إنه حتى لم يوجه لي مرةً كلمة شكر، وكأنه هو من كان يُسدي لي خدمة، كأنه هو من كان يعبر بي الشارع، ويحميني من التعثر في النور.

ذات يوم، وفور وصولنا لبوابة المصنع، أفلتَ يدي. خلع النظارة ومد يده بها لي. تناولتُها مشيحةً ببصري فلم أر عينيه العاريتين بعد أن أزيح عنهما الظلام. في ذلك اليوم كان هو من يقودني، وكنت متأكدةً أنه استرد بصره. ربما قرأ أفكاري، فقد خشيت أن أنظر في عينيه اللتين ظللت طيلة الأيام الفائتة أتخيلُ شكلهما وأُمنّي نفسي برؤيتهما يومًا. لسببٍ ما تخيلتهما جميلتين في العمى ولسببٍ ما قررت ألا أراهما وقد استردتا القدرة على النظر.

خمنتُ أنه ربما فقد عينيه أثناء الثورة. في وقتٍ ما كانت شوارع الإسكندرية تكتظ بالعيون التي اقتلعها القناصة، كنت أتعثر فيها، وعندما تجرأتُ قليلًا أصبحتُ أرفعها بحرص وأنفض عنها التراب وأضعها تحت أقرب حائط مثلما أفعل مع كسرات الخبز التي استقبَلَتْ وحدها، حتى هذه اللحظة، جميعَ قبلاتي.

عندمـا ارتديتُ النظارة رأيتُ العمـى، كأنه منحها لي لكي لا أرى. اتكأتُ على ذراعه. دفنت كفَّ يدي في كفِّه مثلما كان يفعل واكتشفت أن هـذه النظـارة تحجب العالم تمامًا لكنهـا تجعلني أراه هو بوضوح. فكـرتُ أننـي من أحبه الآن، وأننـا تبادلنا الأدوار لكي يعبر بي شـوارع العالـم بعد ذلك، وأشـدُّها وعـورة كانت الشـوارع المظلمة بداخلي. لكنـه لم يظهر ثانيـةً. اختفى كأنه لـم يوجد وظلّت تلـك النظارة دليلًا غامضا على وجوده العابر.

منـذ ذلك اليوم عرفتُ أن الحب ينشـأ في اللحظـة التي نعجز فيها عن النظر، وينتهي للأبد فور استرداد أحدنا لبصره.

لم يدخل العجوز على الفور.

سمعتُ مجددًا صوتَ انسكابِ سائلٍ بقاعٍ صُلب. فنجان شاي جديد. بحر جديد. يصبه لنفسه هذه المرة. لقد اختفت الست روزا.

لابد أنه قلِق. يخشى هذه المواجهة حتى لو كان طرفُها الآخر جثة. ربما كان أكثر عجزًا مما ينبغي، وربما، على العكس، لم يصل بعد ليأس الرجال. في الحالتين عليه أن يتحكّم في نفسه، لكي لا يميته الجسدُ العاري الذي ينتظره، ولكي لا يحييه.

ربما يفكّر بدوره في تحذيرات الست روزا. بدت لي توسّلات رغم ذلك. أخبرَته بوجود قرصيْ منوّم على الكومودينو. نظرتُ نحوهما. أنا من تحتاج إليهما وليس هو.

كنت أفكر في ما سيحدث. كنت أسأل للمرة الألف إن كنت سأنام، وفي خطط الست روزا التي منحها غيابُها حضورًا كُليًا كإلهٍ ما، حتى أنني شعرت بها تقبع في مكان ما من الغرفة.

أتكون الست روزا تعمدت ألا تنيِّمَني لأظل مستيقظة وأمنحه بعض النبض الذي لا يمكن لفتاةٍ مستغرقةٍ في نوم حقيقي أن تمنحه، أم أنها تنقذني منه بمنحي فرصة للدفاع عن نفسي إذا أقدم على تصرف «يجلب المتاعب»؟ وماذا لو فعل؟ هل سيكون هناك وقتٌ لأسحبَ المسدسَ من تحت المخدة وأصوّب رصاصةً باتجاه رغبته؟

ليست أجسادُ العجائز بالوهن الذي يتصوره الناس، فهي متصلبة كآلات معطلة ومتحجرة كصخور الشاطئ الهرمة. يستطيع أن يخنقني. ستكون يداه مثل آلة، تعمل ذاتيًا ولا تتوقف إلا بإنهاء مهمتها. ربما يحتفظ هو الآخر بسلاح، آلة حادة، أو مسدس، فمن المستبعد أن يخضع العجائز لتفتيش ملابسهم. إنهم سادة، والسادة لا يجرؤ أحد على التلصص على ما يخبئون. السادة هم صورهم فقط، وما دامت الصورة عزلاء فلا سبيل للبحث في حقيقتها عن الخطر المخبأ.

ربما يستطيع ذلك العجوزُ إخراجَ أشياء لا تخطر على البال، ليس فقط من ملابسه، بل ومن عريه. لقد رأيتُ من هم قادرون على فعل ذلك، وكأنهم ولدوا مزوّدين بالموهبة اللازمة لسرقة الآخرين.

كان صاحبُ المصنع يتباهى بقدرته على تقديم فقرات سحرية. كانت فقرته المفضلة، أو الوحيدة في الحقيقة، هي إخراج أشياء لا تُصدّق من طيات ملابسه. أشياء تخصنا نحن العاملات تبدأ من تفاصيل حقائبنا المغلقة وصولا لملابسنا الداخلية.

كان يفعل ذلك كنوع من التحرش الرخيص بفتيات المصنع الصغيرات. يُخْرِجُ حمالةَ صدرٍ ويشير نحو فتاة لتنظر مرتعبةً لثدييها اللذين كانا متماسكين قبل لحظات وانسكبا فجأة، أو يرفع حفاضة ملوثة بدم الدورة الشهرية، أو يُشهر سروالًا داخليًا لفتاة أخرى كرايةٍ منتصرة، لتنظر الفتاة مرتعدة لما بين وركيها. كان يفعل ذلك ويضحك، وكان يجب أن نصفق. كنت أخمن، ببساطة، أنه في كل مرة يتفق مع واحدة من الفتيات لتمثل دورًا في عرضه الفاحش، إلى

أن جاء الدور عليّ في مرة. شددتُ على ملابسي فور أن نطق باسمي، وضعتُ ذراعيّ متقاطعتين على صدري كأنه سيسرق نهديَّ وألصقت ساقي كأنه سيرفع يدًا منتصرةً بفَرجي، وأحكمتُ إغلاق سوستة حقيبتي. لكنه فعل ما لم يخطر لي على بال، انحنى جاحظَ العينين متظاهرًا بالتقيؤ، جحظت عيناه ونفرت عروقُ وجهه وبدا أنه يختنق حتى أن الأمر اختلط علينا ولم نعد نعرف هل هذا جزء من العرض أم نوبة احتضار. في لحظة غادر فمه سيلٌ ملون، كان جميع الأزرار التي ابتلعتُها.

التفت ناظرًا إليّ وهو يبتسم، نظرة متشفية، نظرة من كشفني، ليس فقط كلصة، إنما كشاذة. وكانت تلك هي أول مرة أعرف فيها المعنى الحقيقي للعُري. في ذلك اليوم تمنيتُ أن أقتله، وكانت المرة الأولى التي أتأمل فيها كلمة قتل. ومن يومها، صار العري والقتل بالنسبة لي كلمتين لهما المعنى نفسه.

الآن ماذا سيُخرج هذا العجوز من داخلي فيما يندس في فراشي كمن دخل متاهة ليتذكر، آمنا لأنه ممددٌ إلى جوار صمت اللغة، وغير مضطر لأن يكون حتى مقنعًا لمتفرجه الوحيد؟ أنا أيضًا هنا لأُخرج شيئًا من داخله، ذلك الشيء الذي لابد أن أعثر عليه وأخشى ألا يكون له وجود.

متى سيدخل العجوز؟ أجاب أخيرًا على سؤالي. انفتح الباب ودلف عبره وجودٌ ما، وجودُ زمن آخر حدّ أن رائحته كانت كافيةً لكي تشي بقِدَمِه.

بدأ العجوزُ يخلع ملابسه.

كان ينتمي بالكامل للماضي، ليس بسبب عجزه الشديد، لكن لأنه تردد كثيرًا قبل أن يتعرى.

دون أن أفتح عينيّ، رأيتُ تردده هذا. كان يتعثر في قراره، بينما يتخبط في الحجرة كذبابة محتبسةٍ في كوب.

لماذا يتردد شخص في التعري أمام لا أحد؟ أم أنه يخاف التعري أمام نفسه وقد صار، هو نفسه، شخصًا آخر؟

من يخشى التعري بغرفةٍ خالية هو شخصٌ يحيا بين ملايين الأشباح التي يعرف أنها تراه.. ومن يخشى شبحًا هو في الغالب شخصٌ أقدم على القتل مرةً في حياته على الأقل، لكنه قُتِل بالمقابل لعشرات المرات: قتلته قصة حب، أو موت ابن، أو خيانة لا تُغتفر.. ويعرف أن الجسد يذهب إلى المقبرة ويترك شبحه.

ظل مترددا كأنه يهجس أن ثمة من يراه. كلما نزع قطعةً من ملابسه كان يعيد النظر إلى عينيَّ المغمضتين. هل اعتبرني شبحَه بدءًا من تلك اللحظة المبكرة؟ وهل كان هذا اعترافًا بأنه قتلني ذات يوم، قبل حتى أن أولد؟ أم كان حدسا بأن اسمي سيُضاف إلى قائمة قاتليه؟

بدا لي راغبًا في الموت، على العكس من بقية العجائز ممن يجيئون هنا هاربين من مقابرهم. كان له سَمتُ موظف الدولة الرسمي. دخل مرتديًا بذلة كاملة وربطة عنق محكمة، حتى أنني شعرت أنه لكي يتعرَّى، فسيكون بحاجة لمن ينتزعه من ملابسه.

في لحظةٍ ما سمعتُ صوت الريح الخشنة لخشخشة شيءٍ مخبأ تحت الملابس. لم يكن سلاحًا كما حدست، كانت رزمة من الأوراق. من أجل أي شيء جلب هذا العجوز هذه الأوراق؟

جلس على حافة الفراش وأعطاني ظهره. كأننا في خصام. لم يهمهم بشيء، ولدقائق طويلة شعرتُ أن كل ما يستطيع تذكره هو صمت حياته.

كان خفيفًا حتى أن جرْمَه- عندما اندسّ أخيرًا إلى جواري في السرير- بدا أشبه بلفحةِ هواء قديم لم يعد قادرا على تحريك شيء.

عندما يشيخ الناس يصبحون لا شيء سوى أنفاسهم. حتى لو لم تتبق من ذلك العجوز سوى أنفاسه، فإنني بحاجةٍ لهذه الأنفاس، التي كانت في هذه اللحظة تساوي حياتي.

كنتُ مغمضةً كيفما اتفق، وقد تأكدتُ أن منوّم الست روزا القوي لن يفعل شيئًا.

إنه يخشاني، عرفتُ ذلك من نظرته الأولى، لأنها لم تكن موجهةً لفتاةٍ نائمة، بل لجثمان. اعتبرني ميّتة لكي يُطمئن نفسه، دون أن يدرك أن لا شيء يخيف رجلًا ينتظر التراب أكثر من أن تشاركه غرفتَه

جثـة. تأمل القرصين المنومين على الكومودينو، أمسـكهما بيديه وبدأ يقلّبهما كأنهما زهرا نرد. أخبرته الست روزا أنه يمكنه أن يتناولهما عندما ينتهي إن عانده النوم. بدت كلمة «ينتهي» مرعبة، فطالما لن ينتهي من أية ممارسة، فقد بدت الكلمة كأنما تخص نهايته هو، عندما ينهكه التذكر وقد صار ماضي جميع الأمكنة الأخرى هو حاضر هذه الغرفة.

داعب شعري أولًا، بتلك الطريقة التي يلامس بها شخصٌ شيئًا ما ليتأكد من وجوده. اقترب من أنفي ليتشمّم أنفاسي، ماذا يُنتظر من رجلٍ يتنفسُ زفيرَ شخصٍ آخر؟ تذكرتُ رائحة فوهة المسدس، أيكون ذلك العجوز تنسم رائحة الرصاصة التي تنتظره بداخلي؟ قلّبني قليلًا. وضع أصابع يده في فمي رغم أنف تحذير الست روزا. تأمل قدميّ وأمسك بهما كأنه يقيسهما بعينيه كعمال محلات الأحذية. بعد قليل أعطاني ظهره، وبدأ يكتب، في وضعيةٍ غير مريحة، مرتكزًا على جنبه والأوراق أمامه على الملاءة، مثل جزيرةٍ محاصرةٍ بقوس جسده.

تمكنتُ من رؤيته من ظهره، وقد أبرَزَت وضعيتُه سلسلةَ ظهرِهِ التي تكاد تشق الجسدَ النحيلَ لتغادره. ما علاقة الكتابة بالعُري؟

بعد قليل غفا، ترك أوراقه على الكومودينو، ولم يتناول أيا من القرصين. كانت هذه المرة الأولى، كما سأعرف بعد ذلك، التي يغمض فيها عجوزٌ عينيه هُنا دون دعمٍ خارجي. ما الذي في هذا المنزل يجعل من المستحيل لرجل عجوزٍ أن ينام من تلقاء نفسه؟ كأن هذه الحجرات، وهذا الهواء الأسير الذي يحتجز أصداء الأنفاس، أُعدت

فقط من أجل يقظةٍ نهائيةٍ لحفنة أشباح، يقظةِ الوعي والذكريات معًا، بالضبط مثلما صُممت الحجرات نفسها بحيث لا تفتح فتاةٌ عينيها. هل انتهكتُ حرمةَ هذا المنزل عندما صِرْتُ الفتاةَ الأولى المستيقظة هنا؟ هل سأعاقَب؟ وبأية طريقة؟

تجرأتُ لأنهض فور أن علا صوتُ شخيره، عندما تأكدتُ أنه، هو، من غاب في نومٍ قاتل. كنت أعرف أنني أقلب اللعبة: الآن ثمة رجل عجوز نائم، عارٍ تمامًا، وعذراء مستيقظة، تعبث به، تستغله لآخر نقطة، لكي تحكي حكايتها من خلاله، أو لكي تتذكر. أليس هذا انتقامًا أشرس من القتل؟

لكن لحظة التشفي تأتي دائمًا حاملةً يأسَها، ففي هذه اللحظة عُدْتُ لأسأل: هل تملك من هي في سني ما تتذكره؟ لا أملك سوى طفولتي بالكاد، ورجالٍ كعربات القطار لم أحصل منهم إلَّا على النظر. هل أفكر في المستقبل إذن؟ وبأية طريقة يمكن للمستقبل، كالماضي، أن يصير عرضةً للنسيان، ومن ثَمَّ موضوعًا للتذكر؟

كان ممـددًا في وضع جنيني وقد اتخذ ظهرُه شـكل قوس بدا في نتوئه هيكلا لسـمكة، وقد أبرز هذه المرة حدبةً ناتئة في مؤخرة عنقه لا يُظهرهـا الوقـوف بنفس الوضوح. له كـرشٌ صغيـر، كأثر ولادة، وبين فخذيه المتيبسـين نام عضـوه، وديعًا كطفل، في تناقض صارخ مـع تعبيـر السـت روزا الفاحش حين سـألته في مداعبةٍ نـادرة خارج تحذيراتها العسـكرية، «أخبار نبّوت الغفير إيه؟» هاجمتني الرغبة في أن أتلمّسه، لم أكن أخشى استيقاظه قدر ما خشيتُ نفسي.

اقتربـتُ منه، لابد أن ظهره مقوسٌ مـن البداية لا بفعل وضعيته في النوم، لأنه كان يبدو مستسلمًا تماما لذلك التشوّه الذي يحاصر جسده كرحـم. اقتربتُ من وجهه. وجه حصان مستسـلم. ربما يراه الآخرون قبيحًا، هل يرى نفسه كذلك؟

شـيء ما في هيئتـه العارية يوحي بأنه أكبر من عدد سـنوات عمره. لسـتُ خبيرةً في مقارنة سـن رجلٍ عجوز بشـكله، كنت أجيد ذلك مع الأطفـال فقـط، لكن هذا العجـوز يبدو رجلًا فـي المائة، رغـم أنه لم يسـبق لي أن رأيتُ عجـوزًا في المائة. كان العجائزُ بالنسـبة لي عجائز وحسب، يعيشون العمر نفسه، كان جميع الناس عجائز طالما أنهم لم يعودوا أطفالًا.

تركـت أنفـي يقترب مـن أنفه، واستنشـقت، مغمضـةً بإرادتي هذه المـرة بينما أقلّده، رائحة زفيرِه. ما الـذي يمكن لهذه الرائحة أن تحيل

إليـه؟ هل يشـترك العجائز جميعًا فـي رائحةٍ واحـدة كالرُّضَّع؟ رائحةُ الرضَّع تحيل لحليبٍ ممزوج بنكهة غامضة أشبه بفانيليا طبيعية ينتجها الفـم قبـل أن تنبت الأسـنان. لكن رائحـة أنفاس هذا العجوز ليسـت بالتأكيـد رائحةَ حليب، ولا بقايا. لماذا يصفـون رائحةَ أنفاس العجائزِ بالكريهة؟ ليسـت أنفاس هذا العجوز كريهةٍ على أية حال. لا تحرض علـى الاقتراب أو النفور. عند هذه الفكرة شـعرت أننا متشـابهان على نحو ما، وقد فقد كل منا زمنًا بأكمله: ماضيه ومستقبلي.

هـل هي رائحةُ ترابٍ ربيعي؟ ربما، توحـي بحرارة مفاجئة يغزوها الغبـار. لكنهـم علّمونا أيضًا أن السـخونة ليسـت بالشـيء الـذي يميّز ملمـس العجائـز. إنهم باردون كجثـث، هكذا تخبرنـا القصص. لكن ملمـس ذلـك العجوز ليس باردًا كما ظننت، وقـد مررتُ براحتي على صدره المغطى بطبقة شعيرات بيضاء، قصيرة، متشابكة، وناعمة، تبدو حديقة ثلجية صغيرة غير مهذبة. إنه دافئ، كأي جسـد طبيعي، بل ربما كان أكثر سخونة من جسدي.

ثمة شـعرات بيضاء أيضًا تسـدّ فجوتي أذنيه. ألا يجعله ذلك يعاني مشكلةً في السمع؟ مثلها كانت هناك شعيرات تسد ثقبي أنفه. لماذا لا تنبت الشعيراتُ نفسها في عينيه؟ أليستا ثقبين أيضا؟

في هذه اللحظة التفتُّ، لأول مرة، إلى التمدد المفاجئ غير المتوقع بين فخذيه. إنه ينتصب. هذا يعني أنه لا يجب أن يكون في هذه الغرفة. إنه واحدٌ ممن لا يحق لهم دخول منزل السـت روزا. ها هو يقدم كفنه إليّ، بأسهل طريقةٍ ممكنة، لأقتله.

يبدو أنه قرر دون أن يعي إخراجي من الصدمة بسرعة، فقد انفردت ذراعُه، غادرَت الجسدَ كأنها تخرج من قوقعة، ولامست عفوًا الأوراق المصفوفة على الكومودينو المجاور له، فبدأت بالتساقط. هرولتُ لالتقاطها قبل أن توقظه جلبتُها. يعرف الكُتّاب أن سقوط ورقة تخصّهم يخلّف جلبة انهيار عمارة سكنية في آذانهم. لقد جاء إلى هنا من أجل هذه الأوراق، وهذا يعني أنها، وحدها، قادرة على إيقاظه إن شعر أنها مهددة.

قلّبتُها. لقد كتب مقطعًا واحدًا يشغل نحو أربعة أو خمسة أسطر بالكاد. بقية الصفحة، والصفحات الأخرى، فارغة. لو استمرّ بهذا الإيقاع فسينهي ما جاء ليكتبه عندما أكون أنا في نفس عمره.

فكرتُ أن أقرأ ما كتب. وتراجعتُ للحظة. ما يكتبه الشخص لنفسه يصبح أكثر خطرًا عندما يقرؤه شخص آخر، ذلك أنه يتحول في هذه اللحظة إلى رسالة.

كنتُ أخشى الرسائل، وتلك التي تصلني بالخطأ كنت أخشاها أكثر من المكتوبة لأجلي، كانت رعبي الشخصي، فلاشيء يُكتب من أجلنا أكثر من رسالة أخطأت عنوانها.

لأن أبي مات قبل أن أولد، كانت أمي تهددني عوضا عنه بالله. لم أكن أخشى الله أكثر من خشيتي لأبي، فكلاهما بالنسبة لي كان غير موجود. كانت تكتب خطابات شكواها أمامي، بانفعالٍ صادق، تضعها في الأظرف وتُغلقها، تكتب عنوانًا ما، لا أعرف ما هو ولا كيف أتت به، ثم تقذف بها أمامي في صندوق بريد، ممسكةً بيدي العجينية في

طريقـي للمدرسـة. فهمتُ حينها أن هـذا الصندوق هـو المكان الذي يضـع الناسُ فيه رسـائلهم إلى الله. كانت أمي تكتب رسـائلها بجدية، تسهر عليها، وتعيد صياغتها مرةً بعد الأخرى.

تجرأتُ ذات مرة وفتحت ظرفًا بعد نومها وقبل أن تضعه في الصباح التالي في صندوق البريد. اكتشفتُ أن الرسالة كانت موجهةً إليّ، وأنها كانت تشكو الله وأبي، معًا، لي. لم أتمكن من إصلاح الخطأ، كان المظروف ممزقًا. عندما رأت أمي فعلتي في الصباح، وعلى عكس ما توقعت، لم تصرخ في وجهي أو تضربني. فقط توقفَت من يومها عن كتابة الرسائل، ويبدو أنها كانت تعرف مبكرًا أي عقابٍ يمثله ذلك.

جميع الرسـائل التـي تلقيتها بعد ذلك كانت موجهـةً إليّ، لم تكن تقولُ شـيئًا، ولذلك كنت أتركها لأول شـخصٍ يعثر عليها. أشـخاصٌ كثيـرون صـاروا، ولـو للحظات، أنـا، فيما يعثـرون على أنفسـهم في كلمـاتٍ لـم تُكتب من أجلهـم، بينما لم أعثر منذ تلـك اللحظة البعيدة فـي طفولتـي على أية رسـالة بطريق الخطأ، وهكذا عشـتُ عمري كله وأنا لا أحد.

ماذا يمكن أن يكون اسمه؟ هل تجيبني الست روزا إن تجرأتُ على السؤال؟ حتى لو أجابتني، ليس أسهل من أن تمنحه اسمًا زائفًا مثلما تَمنَحُ البنات أسماءً مستعارة تتغير مع كل رجل. ترى ما هو اسمي بالنسبة لهذا الرجل؟ أليس غريبًا أن أرتبط لديه باسمٍ لا أعرفه أنا؟

في هذه اللحظة أدار رأسه، انسحبت مخدته وبرز من تحتها السلاح الذي خبأه تحت وسادته، أشد نحافة ولمعانًا، مثل ثعبان نحيلٍ صلب، وبالتأكيد أكثر قدرة على القتل من الرصاصة: قلمه.

لماذا يخفيه تحت رأسه؟ لماذا لم يتركه فوق أوراقه؟ ربما يخشى أن يعبث أحدٌ بما كتب إن وجده. إن هذا يعني أنه يحدس أنني قد أستيقظ قبله. تأملتُ القلم، بالرعب نفسه الذي تحسستُ به المسدس لحظة وقع في يدي، وأغمضتُ عينيّ أيضًا.

إنه قلم عتيق، قلم حبر من تلك الأقلام التي نراها في أفلام الأبيض والأسود والتي يوقّع بها السادة أوراقهم المهمة. ربما خشي فقدانه بسبب قيمته التاريخية وليس خوفًا من العبث بكلماته، وربما خاف على كلماته المختزنة فيه. فككته، ففرّت بقعة داكنة الزرقة واستقرت على الملاءة. ارتجفت. ها قد منحته دليل يقظتي. بالتأكيد سيرى البقعة على الملاءة والتي هُيّئ لي، مرتعبةً، أنها تتمدد ولن يوقفها شيء حتى تصبغ الفراش كلّه بلون كلماته.

فجأة، باغتتني فكرةٌ غير متوقعة بينما انفتح فمه مفسحًا لخيط لعاب لزج بقوام الدماء. ماذا لو كان هو من جاء لينتقم؟ إن العجوز الذي سبقه لكتابة الحكاية الأولى كان، أيضًا، شقيقًا له. كان شقيقه في الشيخوخة، وفي الكتابة، وفي الغروب الكبير الذي يسمح بالكاد بشمسٍ مؤقتةٍ لذاكرةٍ تومض وتنطفئ. إنها رابطة تتجاوز حتى رابطة الدم، رابطة الوجود المشترك والعجز أمام خيانة الأزمنة. لكن ما دافعه للانتقام؟ ربما فعلت شقيقتي ما أفعل الآن، ربما كانت مستيقظة، تمارس الدور نفسه الذي أمارسه الآن وقد أوكلت لي الست روزا نفس المهمة وكأننا سلالة مكلّفة بخداع العجائز. ربما وشت أختي بعجائز عديدين، أرسلتهم للعالم الآخر قبل موعدهم الموشك، وربما كشفها العجوز «إيجوشي» بطل رواية «كاواباتا» بينما يتقلب مؤرقا من النوم الإجباري لقرصي المنوّم، فرأى العينين المفتوحتين والجسد المستيقظ. كشفها مدركًا أنه هو المخدوع بينما كانت في طريقها لتشي به، فقد كان، مثل هذا العجوز الهامد الآن، محتفظا برجولته. أدرك، مباغتًا بعينيْ القط الليلي، أن سره لم يعد في بئر، ولم يكن أمامه سوى أن يُخمد هاتين العينين للأبد. أحكم قبضتيه على عنقها وأكمل نومه غير متأكد إن كان قد فعل ذلك حقيقةً أم أنه كان جزءًا من حلمه، ولهذا استيقظ مرعوبًا، بصدق، وهو يقلّب الجثة.. لكن ما الذي دعاه ليتساءل فور استيقاظه إن كانت لا تزال حية إن لم يكن نهض ببقايا إدراكٍ أنه أزهق روحا أثناء نومه؟ لقد كان يعرف، وكل ما أراد التأكد منه هو أنه قتل فتاةً حقيقية في الواقع لا صورة في حلم.

ربما جاء هذا العجوز أيضًا انتقامًا للرجل الذي كتب الحكاية قبله، ولجميع العجائز الذين قتلتهم عينا فتاة مستيقظة.

ربما يعرف هذا العجوز أنني أستحق رصاصةً من ذلك القلم، قبل أن أطلق أنا رصاصةً سرقتُها من خزانة عجوزٍ آخر، تعوّد أن يقتلني كلّ صباح دون أن يترك بصمة.

فكرتُ، في هذه اللحظة، أن بإمكاني أن أفعل من خلاله ما جاء ليفعله من خلالي: أن أعثر على قصة. مثله بالضبط، وأمام كل فصل يكتبه من يومياته تلك، أكتب أنا فصلًا، وإن كان هو يكتب بإلهام الساعات التي يقضيها إلى جواري وأنا نائمة، فبإمكاني أنا أيضًا أن أكتب بإلهام لحظات الخطر، حين أنهض لأتأمله فيما هو نائم.

كنتُ أعرفُ أن هذا سيرجئ قتله، وأقنعت نفسي في هذه اللحظة أنني بهذه الطريقة قد أتمكن من قتله مرتين.

عدتُ أفكّر في اسمه. ماذا يمكن أن يكون اسم ذلك المتوحّد وقد بدا مثل ظِلّ، أعزل وقد انفصل عن جسده الذي بقي عالقا في زمن آخر، ومتجردًا من كل شيء تحت العينين المفتوحتين لشبح؟ بدأتُ أعدد أسماء قد تصلح له. كنتُ أنطق الاسم وأقارنه بوجهه بالنظر، بالطريقة التي أقيس بها فساتين فاترينات شارع صفية زغلول لأختار كل مرة واحدًا على مقاسي دون أن أعبر زجاج الفتارين. إنه رجل قديم. قلتُ في نفسي قديم ولم أقُل عجوزًا، وبدأتُ أعود بأسماء الرجال التي أعرفها للوراء، بحثًا عن اسم يليق بقِدمه، بهبوطه المفاجئ في كل مرة، كوحيٍ لا أنتظره. في لحظةٍ ناديته: جبريل. ولرعبي هُيِّئ لي أنه التفت.

مدفوعـةً بالفكـرة القاهـرة أن أبدأ قصتي، بدأتُ البحـث عن عبارةٍ تصلح بدايةً لحكاية، وقد طرأت على ذهني في تلك اللحظة فكرة أنني لـو كتبت ما يحدث لي الآن ذات يوم، فسـيكون مـن الملائم أن أكتب حياة أمي لتمضي متقاطعة مع قصتي إلى أن تلتقيا في نهايةٍ واحدة.

أغمضتُ عينيّ، مفتشـةً في متاهـة العبارات المحتملة التي لا نهاية لهـا. كانت هنـاك عباراتٌ لا نهائية مرشـحة راحـت تتزاحم وتتصارع وتتخبـط، حتـى أنني بدأت أهشـها بظهر كفي كذبابـات. وكمن ضبط مؤشـر مذياعـه على نغمةٍ صافيـةٍ ونقية، بـدا أنني عثرتُ علـى العبارة الملائمـة، وأخيـرًا همسـتُ في أذنه، فـي وجدانه النائـم: *مثلما يملك البعـض موهبـةً خاصةً فـي التذكـر، كانت شـهرزاد تملـك موهبة أن تنسى.*

قُـربَ الخامسة فجرًا بدأ يتململ.

عدتُ بسـرعة إلى مكاني، نائمـةً بعرض السـرير كأكثر ارتجالات النـوم البـريء عفوية، وقد فـردتُ ذراعيّ كأنني مصلوبـة في الملاءة، ومـددتُ سـاقيّ فوق جذعـه. يبـدو أن هذا المشـهد أثار حنانـه، لأنه انحنـى علـى جبهتي وتـرك قبلةً جافة خلّصتها الشـيخوخة مـن لعابها القديم. كان بإمكاني أن أسمع حفيفَ جسدِه بينما يرتدي ملابسه على عجل، معيدًا أوراقه إلى مكانها، لصق جلده، ويغادر بخفة شبح.

بقيـتُ مغمضة، لا أعرف متى يجب أن أسـتيقظ. لقد كان السـؤالُ الأصعـب فـي تمثيليتي والـذي واجهني فـي اللحظة التي عـدتُ فيها وحيدةً في الغرفة: متى تستيقظ فتياتُ هذا المنزل من نومهن؟

لـم يطُـل انتظـاري للحصـول علـى إجابة. دخلـت السـت روزا، خبطتني بيدها على مؤخرتي آمرةً ببساطة: فتّحي عنيكي.

فعلـتُ، مرتعبـة، تنفيـذًا لأمرها الـذي لا يحتمل المناورة. سـألَتْ سؤالا واحدا بينما تجوس في جسدي: هاه..إيه ظروفه؟

لا أعـرف لمـاذا كذبـتُ، ناظـرةً فـي عينيهـا، وأنـا أقـول بحسـم: خَلصان.

مدينة العجائز

(الليلة الثانية)

يقولون إن منـزل الجميلات النائمات خُلق فـي أزمنة الحرب، عندمـا كانـت أيـامٌ بكاملهـا تولَـد وتُدفـن دون أن يُلمَـح فـي الإسـكندرية رجـلٌ أسـود الشـعر، فجميعهـم في الحـرب، أو بمعنـى أدق ينتظـرون قيام حـرب تأخرت. العجائـز فقط كانوا يمـلأون المدينة، قطيعٌ يائس يتبع فتيات ترملن من قبل حتى أن يلمسـهن رجل. كان مشـهدًا غريبًا، كأن جميـع الأحفاد تركوا المدينة كي يديرها أجدادٌ لن يموتوا.

***

- لا تتذكر روزا بالضبط اللحظة التي سقط عليها الإلهام بأن يكون ذلـك المنزل الغامـض مخصصًا لبنـات منوّمات. لكن ذلـك بالتأكيد حدث في الصيف الذي توقفَت فيه فجأة، قبل أقل بقليل من خمسـين عاما، لتكتشف، مثلما توقفتُ أنا واكتشفت قبل تسعة أشهر، أن جميع أهالي الإسكندرية، بدءًا من الرُضَّع، قد أصبحوا عجائز.

تكمـل شـهرزاد: قبـل أن تصبـح روزا مالكـةً لمنـزل الجميـلات النائمـات، أي قبل أن تتحوّل إلى «الست روزا»، كانت مجرد مومس

صغيرة فيه. لم يكن المكان يمارس نفس النشاط الغريب الذي ستقصره هي عليه بعد ذلك، أقصد لم يكن مكانا ليأس العجائز، بل لنيران من لم يفقدوا توهّجهم بعد.

كان بيتًا سريًا تديره «روزا الكبيرة»، وهي قوادة شائخة أورثت روزا اسمها، يوم نطقته ببساطة عندما سألها الرجل الأول الذي سينام مع الفتاة عن اسمها. لا نعرف لماذا أعارت تلك الفتاة بالذات اسمها، وربما رأت فيها صورة منها دون أن تدري.

ظلّت امرأة آمنة، تعرِضُ أجسادها في الضوء فاتحةً بابها ونوافذها وسيقانها إلى أن جُرِّمت مهنتها فجأة، لتجد نفسها بين يوم وليلة تبيع بضاعةً محرمة. انتقلت إلى بقعةٍ بعيدة عن قلب المدينة حيث استأجرت منزلًا معزولًا تخفيه الأشجار وظل لسنوات طويلة مهجورًا لاعتقاد الناس أنه مسكون، وكانت تلك بالذات ميزته العظمى بالنسبة لروزا الكبيرة، ليس فقط لأنها اشترته بأقل من ربع الثمن، لكن لأن سمعته المخيفة كانت كفيلة بإبعاد المتطفلين لكيلومترات.

هكذا بدأت القوادة حياةً جديدة عبر عدد محدود من الزبائن الموثوقين، لكنهم ما لبثوا أن تناقصوا بدورهم عندما اختفى أحدهم ذات يوم في واحدة من غرف المنزل غير المنتهية ولم يُعثر عليه أبدًا، ما جعل الباقين يتأكدون أن سخرية روزا الكبيرة من حقيقة أن البيت مسكون مجرد ذريعة زائفة للإبقاء على تجارتها. لم تكن روزا الكبيرة تخشى الأشباح أو العفاريت. كانت تقول إن «دمها الزفر» يجعل كل

ما يخيف الناس سببًا مضاعفًا لشعورها بالحماية، وفي أعماقها كانت تعرف أن لا أحد يهددها سوى البشر.

كان ثمة سلم خشبي، يصل الطابق الأرضي بالسطح، حيث كانت روزا الكبيرة تصعد وحدها لتذبح الطيور، تاركةً دما غزيرًا يسيل على السلم حتى يستقر في الصالة الواسعة صانعًا بركةً مخيفة بين أقدام البنات. عندما رأت روزا الصغيرة الدم يهبط السلم لأول مرة، كادت أن يُغشى عليها، معتقدةً أن هناك من قُتِل، لكن واحدة من المومسات طمأنتها بسرعة أنه دم طيور، دون أن يمنعها ذلك من أن تكمل، هامسةً في أذنها: «بس ما يمنعش برضه إنه ساعات بيكون دم بني آدمين». وجهت روزا الصغيرة سؤالًا ساذجًا للفتاة: «وازاي بتعرفوا تفرّقوا دم من دم؟»، فاكتفت الفتاة بكلمةٍ واحدة: «بيْبان».

كان السطحُ مكانًا محرمًا، لا تصعده سوى روزا الكبيرة، حيث عرفت روزا الصغيرة أنه فضلًا عن الذبح، كان هذا مكانها المخصص للبكاء، وللدعوة لابنها، ولتكليم الله.

يوم استقبلت روزا الصغيرة لأول مرة، لم تتخيل أن هذه الفتاة التي تكاد لا تلامس الأرض، كأنما تطفو فوق ظلّها، ستكون سببًا جديدًا للتأكد من أن ذلك البيت مكان يسرح فيه مَسّ. كانت القوادة ترتدي فستانا أسود سادرًا مثل ليل لا يشرق فيه سوى ثدييها، بينهما تدلت صورة ابنها الشاب من سلسلة غليظة.

لقد ذهب للجبهة فاعتبرته مفقودًا، وكانت تتباهى بصورته المعلقة على صدرها كحائطٍ أخير، كأن هذه الصورة الغائمة كانت كفيلة

بتطهيرها من دنسها. كانت ترفع صورته في وجه من تحدّثه بحرص وتقرّبها من عينيه كمن يرفع وليدا، وذلك ما فعلته مع روزا الصغيرة في أول مرة. بعد ذلك، عندما تصبح الفتاة إحدى مومسات البيت، ستعرف أن كُنية القوادة بين الفتيات كانت «أم الشهيد». كُنّ يقلنها بعفوية وقد كتبن شهادة وفاته ببساطة، مانحاتٍ صاحبة البيت مجدًا لم تكن تريده.

من راديو صغير في غرفتها كانت تتلمس أخبار الجبهة، ملصقةً أذنها بالراديو الصغير، وكأنهم سينطقون بين لحظة وأخرى اسم ذلك الشاب الذي كان في النهاية لا أحد. وخلف ظهرها، فوق سريرها، كانت صورة لجمال عبد الناصر تتوسط الحائط، كأنها تحرس هذا البيت، صورة ظلت تخشاها روزا الصغيرة كلما أطل عليها الرأسُ المرفوع، بالابتسامة التي رأتها تهديدًا، شاعرةً أنه بين لحظةٍ وأخرى سينطق.

بين من قال إنها ارتدت ذلك الفستان كحداد مبكرٍ على ابنها، ومن أكد أنها ارتدته قبل ذلك بسنوات عندما جُرِّمت مهنتُها حدادا على البلد نفسه، لم تستطع روزا الصغيرة أبدا أن تحدد عمر هذا الفستان الذي لم تغيّره القوادة، والذي أصبح لفرط ما عاشت فيه بيتها الوحيد.

كانت روزا عذراء عندما طلبت من المرأة «تشوف لها شغل»، وكان هذا التعبير صيغة تواطؤ تطلب بها الداعرات العمل.

بدأت روزا الكبيرة تفكر في الرجل الذي يستحق أن يفتتح هذه الفتاة، وفي المبلغ الذي يستحقه فضّ هدية كهذه، وكانت هذه هي

المـرة الأولـى منـذ نقلـت روزا الكبيرة نشـاطها لذلك المـكان البعيد المعزول، التي تلمع فيها عيناها.

من ركنٍ ما في الغرفة، لمعت عينان أخريان: عينا رجل. وقعت عينا روزا الصغيرة عليه فجأة، كأنه ظلّ غير مرئي وتجسّـد في لحظة. وكان ما منحه حضوره المفاجئ شيئًا أكثر ضآلة من جسده لكن بالتأكيد أشد فتكًا: مسدس.

فـي لحظةٍ قرَّبه من فمه، كأنه سـيفرغ رصاصةً فـي جوفه، ارتعدت الفتاة، لكنه بدلًا من أن يتخلّص من نفسـه مانحًا زيارتها الأولى ذكرى دمويـة، بدأ ينفـخ في فوهته، بالطريقـة التي يضع بها منقذو الشـواطئ قبلات حياة في أفواه الغرقى.

فكرت روزا الصغيرة، أي حياة يحاول ذلك الرجل ضخّها في شيء لا يموت؟ أي إنقاذٍ كان يمنحه له ملصقًا فمه بفوهةٍ باردة وكأنها شفتان، وأي نجاةٍ يحتاج إليها سلاحٌ مثل ذاك كي لا يفارق الحياة؟

بعدها أخفض مسدسـه وقد ثبّت قاعدته بين فخذيه ورفع ماسورته لأعلـى، بينمـا يربّت عليه كقط. في تلك اللحظـة فقط رفع عينيه ونظر إليهـا ممتلـكًا شـجاعة الرجل عندما ينظـر في عيني امـرأة، وحيث لن يتوقـف بدءًا مـن تلك اللحظة عن تأمـل عينيها، جائعًـا ومهزومًا، إلى أن يموت.

لقـد أدرك بنظـرة أن تلـك الفتـاة، علـى عكـس جميـع الشـابات اللائـي طرقـن هذا الباب، لم يلمسـها رجل. ولـم يكن بحاجةٍ ليسـمع

إجابـة الفتاة عندما سـألتها القوادة، ناظرةً نحوه بركـن عين، «نمتي مع رجالـة؟»، وأكـدت روزا الصغيرة، لها وله، حدسـهما. تفـرّس القواد فـي الكنز الذي هبط على البيت، ولـم يكن بحاجة أيضًا ليتأكد أن تلك الفتاة ليسـت جاسوسـة للبوليـس، فقد كانـت يدُها، التـي راقبها بينما تصافـح يد صاحبـة البيت، محتفظةً بذلك الكبريـاء الذي لا يمكن ليدٍ لامست أي سلطة أن تعرفه.

أشارت له روزا الكبيرة بعينيها وهي تأخذ بهما مقاييس الفتاة. وفي حركةٍ مناقضةٍ تمامًا لمشهد المسدس، فتح صندوقًا مليئًا بالأقمشة، ثم توجّه ليأخذ مقعده خلف ماكينة خياطة في ركن الغرفة، حيث انكفأ على القماش الذي سيصبح قميص نوم روزا الصغيرة في ذلك المنزل.

كان قـوادًا، والرجـل الوحيـد الذي يقيـم بالمكان. يـؤدي أغراضًا متنوعـة مـن جلب الزبائن لتأديـب البنات وصولًا، كما سـتعرف روزا الصغيـرة لاحقًا، للقتل. سـتعرف الفتاة أيضًا أنه ينـام مع جميع فتيات البيـت حتى أنها سـتحدس أن هذا هـو أجره. في الغـداة والرواح كان يخبط مؤخراتهنّ كأنها طريقته الوحيدة في المصافحة، وكانت الفتيات يرددن عليه بضحكات مجلجلة. لقد قتل رجالًا ونسـاءً بهذا المسدس كما ستخبرها البنات بعد ذلك: «لو واحدة قبلت تعريفة بره الاتفاق أو اشـتغلت مرة لحسـابها كان بيقبض روحها.. وأي راجل يعمل مشكلة أو يهدد بالبوليس كان بيروح لقضاه».

- أجّلـت عذريـة روزا الصغيـرة مضاجعة القواد لهـا، لكن ما ظنه يومًا أو بضع يوم، سيمتد لأيامٍ وأسابيع وشهور.

تلتقط شهرزاد أنفاسها. تعيد تأمل الرجل الممدد. تبدو لها تصدعات جسده كما لو أنها أمام بناية غير مرممة انهارت فجأة وما يزال انتصاب الحديد المسلح يشير لقوامها.

العجوز مشوّه بالكامل، ولذلك يتمدد على سريره عاريا دون خجل، حيث لم يعد عريه الكامل هذا مخيفًا لامرأة. تفكر أن الوهن، إذا ما اعتبرناه التشوه العميق لأي جسد، ليس ما يفقدنا الرغبة، بل خلو الجسد من تشوهٍ ما هو ما يصنع ذلك الخوف. تحاول أن تمنح فكرتها تطبيقا عمليا كأنها تشرح فكرتها لمجموعة طلاب في فصل مدرسي: العري يصبح آمنا للآخرين، عري رجل أمام امرأة أو عري امرأة أمام رجل، عندما يُشوَّه، لأنه يفقد جوهره كعورة، يستعيد قدرًا من حضوره الأصلي كخطأٍ ما، يكتسب هويةً جديدة، أو بالأدق يسترد هويته، ويضطر الآخر للإشاحة بوجهه عن إرادة وليس عن خجل أو لمداراة رغبة.

وجهه، كيف يمكن لها أن تصفه بدقة لنفسها حتى؟ وجهه باهت، باهت نعم، يحتفظ بأثر ملامحه لكن مثل رسمة أوّلية بلا تحبير، تحتاج قلما لتوضيح خطوطها الداخلية وحدودها الخارجية، وجه انسكبت ملامحه ذائبةً في بعضها خاصة وأنها جميعها بنفس اللون وكأنه ترجمة للأزمنة التي انسكبت في جسده. فكرت أن تُخرج قلم كحل من حقيبتها وتُحدد العينين، الأنف، حدود الشفتين وإطار الرأس. وجه كأنه صدى لوجه، هل يمكن استخدام هذا التعبير؟ تسأل نفسها، بينما تحاول مجددًا العثور على التشبيه المضبوط، ربما كان هذا العجوز مثل تلك الكتابة بالرصاص التي يبقى شبح كلماتها بعد استخدام ممحاة رديئة ليُذكّر بكتابةٍ لم تعد موجودة. جسده كذلك،

مقشـر، بلونين متقاربين، أحدهما طـارئ على الآخر لكن دون القدرة علـى تحديد أيهمـا صاحب البيت وأيهما الضيـف. كأنما هناك نوعان مـن الجلد يتصارع كل منهما ليقلص وجود الآخر وليوسـع من تمدده في أرضٍ مستسلِمة، مثل تلك الجدران التي غزاها النشع يبدو جسده، مقشَّرا وعرضةً للمزيد.

إنـه لا يبـدو كاتبـا الآن قـدر ما يبـدو كتابـة، كتابة عاقبها شـخصٌ مـا بذلـك المحـو المتعجـل وغيـر المتقن، مسـتخدمًا تلـك الممحاة الرخيصة، التي تُسـبب التشـوّه لا الضياع. وإذا أمكن تشبيهه بصفحة، فإنه صفحة كانت ممتلئة بالسـطور، صارت خالية لكن ليسـت نظيفة، وأصبح من المستحيل أيضًا إعادة الكتابة عليها.

تفكّر شهرزاد، بينما تقشر قطعة من جلده استقلت فجأة كطبقة طلاء لفظتها الرطوبة ولم يعد يربطها بجسده سوى فتيل، أن ما حدث لذلك العجـوز هو ما يحدث لجميـع الكُتَّاب: يبدؤون مُسـلّحين بخرائطهم ثـم يفقـدون البوصلة في مفترق الطـرق. وقد ضاع هـذا العجوز، هذا الروائـي، في حكايتـه، حدّ أنه، وعوضًا عن أن يكون مؤلفها كما حلُم، صار أحد أبطالها.

الفارق الوحيد أنه في حالة هذا المؤلف اتخذ الضياعُ شكلًا حسيًا، وقد اختار جسدًا حقيقيًا، ما جعله يبدو، تُفكر من جديد، أقرب لتطبيق عملي لفكرةٍ ظلت طوال الوقت مجردة.

تُكمـل، متورطةً بكامل جسـدها داخل بيـت روزا الكبيرة: لم يكن توفيـر رجل قـادر على دفع «مهر الآنسـة» بتعبيـر روزا الكبيرة، بالأمر

السهل. فشلت مفاوضات عديدة وكانت القوّادة متمسكة بالثمن الذي قررته وغير مستعدة للفصال: «ان شالله تعفن وهي بنت بنوت لكن مش حابيعها بالرخيص».

حتى يأتي ذلك الشاري، قرّبت روزا الكبيرة روزا الصغيرة منها، وقد أصبح الابن الغائب شبحهما المشترك. وربما كان هذا التواطؤ ما عمّق بينهما عاطفةً عميقةً وغامضة.

كانت البنات يطلقن على غرفة القوادة، مازحاتٍ «المطار السرّي». لم تدخلها فتاة قبل روزا الصغيرة ولن تدخلها فتاة أخرى بعدها. كان بابها بلا مقبض، لكن أحدًا لا يجرؤ على لمسه. ستعرف روزا الصغيرة من البنات، أن ثمة بابًا آخر للبيت، بابًا سريًا يُفتح مباشرةً على غرفة «الست»، ولا يُرى من الخارج لأنه يبدو جزءًا من الجدار. عبره كانت تستقبل رجالها، إنها في النهاية امرأة، «وما ينفعش تعيش من غير كام راجل»، قالتها إحداهن ساخرة وانفجر الضحك، وفي اليوم التالي اختفت.

عندما تختليان بنفسيهما، كانت القوادة تلعن جميع العجائز الذين يضاجعون الفتيات الصغيرات بينما ابنها ومن يشبهونه يحملون السلاح في صحراء بعيدة وغامضة لا أحد يعرف كيف سيعودون منها. وفي أحاديثها الليلية مع روزا الصغيرة همست لها مرارا بأنها تتمنى لو تقتل جميع أولئك العجائز، الذين «خدوا زمنهم وزمن غيرهم». كانت روزا الصغيرة تنصت لها بتأثرٍ حقيقي. في ذلك الوقت المبكر من حياتها، لم تكن الفتاة الصغيرة قد عرفت بعد أنه في كل حرب هناك من يشيخ لكي ينجو.

في لحظات تعاطفها النادرة كانت القوادة تكرر، دون أن تعرف روزا الصغيرة إن كان ذلك حقيقة أم ادعاء، أنها ستورِّثها البيت بعد موتها. لقد ظلت الفتاة مندهشةً من بقاء مكان كهذا سرًا آمنًا، بينما تعبر الضحكات والصرخات حوائط غرفه لتُسمع الإسكندرية كلها. كانت روزا الكبيرة تملك علاقاتٍ من شأنها أن تُبقي كل ما تعريه شمسُ المدينة سرًا ليليًا، لكن كل هذه القوة رغم ذلك لن تمكّنها من انتشال ابنها من الضياع في حربٍ ستنتهي قبل أن تبدأ.

بالمقابل، كانت روزا الصغيرة تفكر في حربها، تلك الحرب التي ستشهد دمًا أيضًا، هو دم بكارتها، مُدركةً أن حربها الحقيقية ستظل هنا، أسفل هذا السقف، وتحت أجساد جميع الرجال الذين بلا حرب.

ستظل عينا القواد تفتشان في العذراء كأنما تبحثان عن شيء أعمق من جوع الرغبة، شيء فقده هو في ذلك الجسد وعليه أن يستردّه. كلما صار أكثر شجاعة في النظر لعينيها كان يُحكِم قبضته أكثر على مسدسه، وكأن تلك الفتاة الهشة عرّت شيئًا فيه حاول أن يستره عندما كانت الفرصة قد فاتت.

ذات يوم، دخل متأبطًا أحد أعيان الريف. فهمت روزا الصغيرة فور رؤيته أنه جاء من أجلها، وشعرت أن القواد يفعل ذلك من أجل رغبته هو التي قُمعت أكثر مما ينبغي. رأت الأوراق المالية تسقط في حجر القوادة التي خبأتها بسرعة في حجرها حاسرة فستانها، غير آبهة بفخذيها اللتين رأتهما روزا الصغيرة في تلك اللحظة عاريتين لأول مرة. لكن قبل أن تنتهي روزا الكبيرة من عدّ النقود كان الرجل يستردّ أمواله ويعيدها لسيالات جلبابه وهو يسب. قال لروزا الكبيرة وهو يغادر الغرفة: «دي جثة».

هبّت القوادة لترى ما حدث للفتاة العذراء في ليلتها الأولى تحت رجل. لم تكن ميتةً كما ظن الزبون، ولا مغشيًا عليها مثلما فهمت روزا الكبيرة عندما اكتشفت أنها تتنفس. كانت نائمة، نومًا يستحيل أن تستيقظ منه حتى مع اللطمات العنيفة لروزا الكبيرة وأكواز المياه الباردة ومواد الإفاقة المتاحة، سالمةً في عريها ومطمئنة حتى وهي مفتوحة الساقين أن أحدًا لن يتمكن من فض بكارتها. عزت القوادة ذلك لرهبة الليلة الأولى لعذراء مع رجل غريب. وعندما عنفتها في الصباح التالي، حين استيقظت أخيرًا كأنها بُعثت، قالت لها الفتاة: «ما دريتش بنفسي.. ده انا حتى ما حلمتش.. كإني مُت».

لكن الموقف ما لبث أن تكرر. حدث الأمر نفسه مع الرجل الثاني، ثم الثالث، والرابع، تغمض روزا الصغيرة عينيها فور دخول الرجال إلى غرفتها، وخلال اللحظات الخاطفة التي يتجردون فيها من ملابسهم تكون قد غابت في نومٍ قاتل، لا تستيقظ منه إلا في اليوم التالي مهما حاول العجوز إيقاظها أملاً في إنقاذ ليلته ومهما حاولت روزا الكبيرة إفاقتها بعد خروجه الغاضب، وهكذا لم يرها عجوزٌ واحدٌ أبدًا مرتين.

في أعماقها كانت روزا الصغيرة تتمنى أن يموت كل شخص رآها عارية، فقد كانت تشعر أن جسدها يظل معروضًا أثناء نومها كدكانٍ مضاء مات صاحبه. كانت هذه الفكرة تؤلمها رغم أنها كانت طريقتها اللاواعية للهرب.

بدأت حكايتها الغريبة تنتشر بين الرجال، الذين باتوا يميّزون هذا المنزل عن سواه من بيوت الليل التي واصلت عملها في الظلام بأنه

«بيت البنت النايمة». كانت روزا الكبيرة تفكر في ذلك الجثمان الفائض عن الحاجة، حائرةً بين الإبقاء على تلك الفتاة التي أصبحت شريكة حدادها، وتُقاسِمها أخبار الحرب المنتظرة من الراديو الصغير المشوش، وبين التضحية بها لإنقاذ مكانٍ مهدد أصلا بسبب أشباحه غير المرئية ولا ينقصه شبح مرئي لتقويضه. وفي اليوم الذي استيقظت فيه مقررةً بعد تفكيرٍ طويل أن تضحّي بالفتاة النائمة لتنقذ سمعتها وأكل عيشها، حدث ما سيقلب حياة روزا الصغيرة والبيت كلّه رأسًا على عقب..»

من جديد تلمع عينا العجوز. لكن شهرزاد تخمدهما بالصمت. نامت على هذا السرير بالأمس، إلى جواره، لتكمل له الحكاية التي بدأتها. كان يتوقع أن تبدأ من حيث انتهت في الليلة الفائتة: الفتاة النائمة في سريرها، تنتظر دخول عجوز، (دخوله هو)، إلى الغرفة، وقد أشهرت مسدسًا قبل أن ينفتح الباب فجأة. لم تكن تحكي حكاية ابنتها فقط، بل كانت تحكي أيضًا حكايته. سيموت ليعرف: هل ستنام الفتاة أم ستظل مستيقظة؟ إن هذا، لو كان قد حدث، فيعني أن كل هذه الحكاية التي دوّنها في رواية كانت زائفة، وأنه لم يخدع الفتاة ليكتب عبرها قصة، بل خدعته الفتاة لتكتب هي رواية رجل نائم.

لكن شهرزاد فاجأته في هذه الليلة الثانية بأنها تبدأ حكاية جديدة تخص الست روزا، وقبل أن يستسلم لإحباطه كانت الحكاية الجديدة قد جذبته. هل ستحكي شهرزاد في كل ليلة حكاية ناقصة ثم تكمل النهايات معًا في ليلتها الأخيرة؟ ومتى ستكون هذه الليلة؟ لا يعرف، ولم يكن يملك الاعتراض.

تتجه نحو نافذة الغرفة الواسعة وتزيح الستائر، هذه المدينة مُدية مشهرة، يتسلل النور عبر نصلها كلصّ ويبدو لها في لحظة أنه يبدأ العمل في جسده، كأن ذلك النور هو ما يمنح تشوّهه معناه ويجعل من الرجل الممدد بأكمله محض جرح.

لا تزال المدينة تحتفل، حاملة صورة الرئيس الجديد على الأعناق كأنها جسده. ملايين الصور بوجهٍ واحد، بلقطةٍ واحدة، كأن صاحبَ الوجه لا يملك سوى هذه الصورة التي صارت لفرط تكرارها شعبًا مستقلًا.

أثناء ذلك تكون شهرزاد قد بدأت في استعادة حكاية جديدة لن تحكيها له. يبدو أن اللعبة أعجبتها، في كل ليلة حكاية معلنة وأخرى سرية، *واحدة لك وواحدة لي*. كانت تشعر أن من حقها هي أيضًا أن تلعب دور المُنصت لحكاية، حتى لو كانت تحكيها لنفسها. إنها حكايات تخصها، وكان يفترض في الأحوال العادية أنها تعرفها، لكن غياب ذاكرتها، أو تغييبها، جعل من عودة تلك الذاكرة الآن ما يشبه شبكة صيدٍ ضخمة خارجة من البحر بأنواع متنافرة من الأسماك تنتظر الفرز.

- في مرة أعطاني «الرملي» كتابًا غريبًا. أغمض البائع عينيه بينما يمد يده ليخرجه من رف مظلم من عمق الدكان الصغير، كأنه يتحاشى أن تقع عيناه عفوًا على عنوانه. عرفتُ السبب بعد ذلك، فما إن تقع عينا شخص على كلمةٍ فيه حتى تختفي، وهكذا عندما ينتهي شخصٌ من قراءته تكون كل صفحاته قد صارت بيضاء. إنه ترجمة حرفية لما يطمح فيه كل كِتاب بشكلٍ رمزي، أن تنتقل كلماته من صفحاته لتعيش

بداخلـك: لكن هذا الكتـاب كان ترجمةً حرفيةً لهذه الفكرة، بحيث لا يمكنك أن تعود لتصفحه، لا يمكن إعادته للبائع بعد قراءة صفحة، أو تصفحه قبل شرائه، لن يكون يومًا ما كتابا قديمًا في شارع النبي دانيال ولن يُقرضه قارئه لصديق أو يسرقه ذلك الصديق من مكتبة مستضيفه. من يرغب في قراءته ثانية، إذا استثنينا فكرة البحث عن كلماته داخل نفسه، وهو حل شديد الشاعرية كما تعرف، عليه أن يشتري نسخة جديدة منه. كان الناشرُ ذكيًا. إنه في النهاية تاجر. وهكذا فعل هذا الكتاب عكس ما تفعله جميع الكتب في العالم، فبينما لم ينجُ كتابٌ في تاريخ البشرية من اشتراك أكثر من شخص في قراءة نسخة واحدة على الأقل منه، شهد هذا الكتاب طوال الوقت اشتراك أكثر من نسخة منه في قارئ واحد.

تفكر شهرزاد أن ذاكرتها تشبه ذلك الكتاب، وأنه مثلها، كان يفقد ذاكرته فور أن تقع عليه عينا شخص آخر. تفكرُ أنها النسيان.

تغلق النافذة كأنهما حصلا على جرعتهما من ضوء الدنيا. تضم الضلفتين بحرص لتلتئما، كأنهما جرحه. تلمس جلده، كأنما تطمئن أن الوجبة التي تركتها ساخنة لم تبرد للدرجة التي يلزم معها إعادة تسخين. هو أيضًا يبدو شخصين الآن، طبقتين من الجلد، عمرين، وربما اسمين.

تميلُ عليه بالحنان الزائف لمن يمنح صدقةً فائضة لشحاذ، وتقول: في اليوم التالي مباشرةً لنوم ابنتها الأخير ستتلقى شهرزاد الأمر أن تبدأ مهمةً للانتقام، ستحصل على أسماء العجائز من الرأس المدبر، واحدا

بواحـد. من سـيكلفها بالمهمة، من تسـميه الرأس المدبـر على طريقة الأفلام البوليسية، ليس رجلا.

- كانت واحدة سِت.. ست اسمها روزا.

منزل النائمات

(الفصل الثالث)

- الراجل اتصل تاني وطالبِك بالإسم.. الليلادي.

فهمتُ مباشرةً ما لم تكن بحاجة إلى تفسيره. إنها تقصد عجوز المرة الأولى.

تقولها الست روزا بعد أن صرتُ شخصًا آخر، وقد عرفتُ دوري الحقيقي في منزل الجميلات النائمات: استقبال العجائز الجدد، الذين يزورون المنزل للمرة الأولى، بينما أمثِّل النوم، وإخبارها بحقيقة «رجولتهم» بعد مغادرتهم.

العجائز الجدد! كيف يمكن أن تتعانق الكلمتان؟ موتٌ وميلاد، غروب وشروق، في تعبيرٍ واحد لا يثير الريبة أو الاستغراب رغم ذلك. غير أني نفذتُ الأوامر، وربما شعرتُ أن الصفقة منصفة. تذكرتُ تعبيرًا آخر، «عينان مغمضتان باتساع»، كان عنوان أحد الأفلام الأجنبية القديمة التي تعيد سينما أمير عرضها أحيانا في عروض الواحدة ظهرا أيام إجازاتي، وكنت أدخلها لأن السينما كانت تطرحها بتذاكر رخيصة لشغل هذا الوقت الميت في صباحات موسم المدارس.

صـرتُ نائمةً زائفة، نزيلةً وهمية. أنامُ للعجائز الجدد، وأبيت يوميًا في سريرٍ مختلف بالحجرات غير المنتهية، دون أن أميّز في مرة الفارق بيـن غرفةٍ وأخرى. كانت قطيعـا متطابقًا وكأن ثمة غرفة واحدة كررت نفسها لمراتٍ لانهائية.

في الأيام التي يأتي فيها «عجوز جديد» للمنزل كانت الســت روزا تمنحني مكالمة مقتضبة قبل حلول موعد انصرافي من المصنع، كتنبيه إجرائـي، لأنـي كنت أُبلّغ فـي الليلة الســابقة على مجيء زائـرٍ جديد. كانـت هنـاك ليـالٍ خالية، فدخول عجـوز جديد للمنزل لـم يكن بهذه الســهولة وكان يجـب أن يأتـي عبـر عجوز آخـر موثوق بـه أو تأتي به الســت روزا نفســها من «معارفها»، وهي الكلمة التي كانت تصف بها أحيانًا عجوزا ما سأنام له: «ده معرفة قديمة» دون أن أفهم طبيعة الصلة بالضبط ودون أن يحق لي، بالطبع، أن أستفسر.

كأن ذلك العجوز الأول كان مجرد تمرين، اختبار، لأعرف أي دور خُلِقت من أجل أن أؤديه وقد صرتُ أول فتاة مفتوحة العينين تنام على هذه الأسرّة.

لـم أستقبل عجوزًا مرتين، فدوري لا يتطلب سوى التذوق. أنا فتاة المرة الأولى، من يتناول الطعام قبل الجميع بحثًا عن السم. لكي أثبت مصداقيتي في الوشـاية بالعجائز الذين لا يزالون رجالًا، لم أتورع عن إخبار الســت روزا بوصف دقيق لأعضاء من انتصبوا في غرفتي، كنوعٍ من الفحش لتأكيد صدقي: مَن انتصب فور رؤيته جسدي العاري، من كان أكثر حمية فانتصب فور دخوله الغرفة، ومن اسـتيقظ من نومه إلى

جـواري متألمـا بتصلبه الحارق. لـم يتجرأ أحد منهـم حتى الآن على خـرق قوانيـن المنـزل أو محاولـة تجاوز الـدور الذي جاء مـن أجله، وكنت أضم سـاقين متيبستين، بعفوية نومي الزائف، إن حاول أحدهم ملامسـة عضـوي بأصابعـه أو تذوقـه بلسـانه. لكـن هذه القـدرة على استعادة رجولة منطفئة كانت في حد ذاتها خرقا لقوانين المنزل.

ظللتُ أمارس دوري وظل العجائز يتبخرون، حتى أن الست روزا تنهدت مرة بحسـرة وهي تُدخلني حجرة جديدة: «من يوم ما شـرّفتي بقت الرجالة بتيجي لقضاها».

هـل كنـت أنتقـم لذلـك العجـوز الأول عوضًا عـن الانتقـام منه؟ شـعرتُ، بمعنـى ما، أننـي أخونه في كل مـرة أتعرى فيهـا لرجل آخر. لقـد تولّـدت رابطة ما يسـتحيل أن تتكرر بعد ذلك، تلـك الرابطة التي تجمعـك بمن تكره أكثر مما تجمعك بمن تحب، والتي ترقد في نقطة عميقة بداخلك، لتجعلكما في لحظة، الشـخص نفسـه. كأن عهدًا ما، اتفاقًا لا يعوزه الشرف، أن من حقك أن تقتل عدوك، لكن لا يحق لك أن تخونه.

كانـت غصّة تكبـر بداخلي فيمـا أتعرى لرجلٍ ثـانٍ، غصة تكررت عندما صار هناك رجلٌ ثالث ورابع، لم أشعر بها مع ذلك الرجل الأول رغـم أن المنطق يفترض العكس، وكأنـه لم يكن رجُلي الأول هنا، بل رجُلي الأخير.

لقد بدأتُ رحلتي كقاتلة بسبب هذه الغصة، والتي باتت أقوى حتى من رغبة الانتقام التي وضعتني داخل تلك الجدران كعاصفةٍ ربيعية.

هكذا رحتُ، تدريجيّا، أشي بالجميع كاذبةً، باعتبارهم «رجالا»، في الوقت الذي أخفي فيه حقيقة رجلٍ واحد، كأنني أميت جميع الكومبارس في فيلم ليحيا بطلٌ وحيد.

كنت أعرف أن ذلك العجوز هو الرجل الوحيد الذي يجب أن أقتله، لأنه كان يحمل التهديد الحقيقي الذي تلخصه أربعة حروف: **كاتب**، لكنني في الوقت نفسه كنت أتساءل إن كنت حقا أتيت من أجل مهمة، أم أن ثمة داعرة بدأت تكبر بداخلي ولم يعد ذلك السلاح أكثر من قوّادها.

لم يعد أحد من العجائز الجدد الذين وشيتُ بهم للظهور داخل منزل الجميلات النائمات. لا أعرفُ كيف كانت الست روزا تبلغهم بقرارها، ولا المبرر الذي تسوقه لهم بينما تخبرهم أنهم لن يعودوا للمبيت مجددا بحجراتها.

ذات مرة تجرأتُ لأسألها عن الطريقة التي تخبر بها زبونًا أنها كشفته، ردّت ببساطة دون أن تلتفت إليّ: باقتله.

«الراجـل اتصــل تانــي وطالبك بالإســم»: كان ذلك يعنــي أن عليّ التحرك باتجاه منزل النائمات فورًا، قبل أن يبدأ الحظر.

أمامي ساعتان حتى التاسـعة، حيث أُخفِض حظرُ التجول ساعتين في الرابع والعشـرين من أغسـطس، وسـاعة لتجهيزي حيث سـيصل العجوز في العاشـرة. عندما يتعلق الأمر بدراجة كوسيلة مواصلات لا تصبح سـاعتان وقتًا طويلًا في مدينة حظـر تجوّل، تزدحم فجأة خلال هاتين السـاعتين الأخيرتيـن بالذات، ويتكدس النـاس لتوفير أغراض الليلة، كأن الشوارع قد لا تُفتح في الصباح.

ظللتُ أتسـاءل طيلة الأسبوعين الماضيين إن كان العجوز سيأتي مـرة ثانيـة، وكلما مـر يوم دون ظهور اسـمه مجددًا فـي المنزل كنت أتأكد أكثر أنه لن يعود. اسـمه؟ أي اسـم؟ هل تصلح كلمة «العجوز» اسما؟

فكرتُ أن السـت روزا ربما فطنت لكذبتي وقتلته دون كلمة، لكن هـذا لو حدث، أفكر، لم تكن لتأتمنني على مواصلة العمل، هذا إن لم تقتلني. فكرتُ وقد عرفتُ مهنتي: حتى لو عاد، لن يدخل فراشي، لقد أديتُ مهمتي معه. هل كنت أترقب زيارته القادمة لأقتله، أم لأضاعف حياتـه؟ باختفائـه فقد وجودي في ذلـك المنزل مغـزاه، كأنني دخلتُ صفقةً خاسرةً لأنقذ شبحًا.

لكن الزيارة الثانية للعجوز جاءت كمفاجأة، للست روزا نفسها قبل أن تكـون لي، وقد اتصل دون إنذار، ليقول كالمـرة الفائتة «النهاردة يا روزا»، ومبررا قراره المفاجئ بالعبارة نفسـها التي قالها قبل أسبوعين: «الإلهام ما بيديش إنذار».

«الراجل طالبِك بالإسم». أي اسم؟ كدتُ أُفلت ضحكة بينما يهدر جسـدي كله لسـماع الخبر، لكني اكتفيت بكلمة «حاضـر» بينما تُغلق السـت روزا الخـط دون انتظـارٍ لردي. حتـى لو طلب معرفة اسـمي، فبالتأكيـد أخبرَتـه باسـمٍ غيـر حقيقي، مثلمـا تفعل مع جميـع الفتيات اللائـي تمنحهن أسـماءً مسـتعارة فـور ولادتهـن الجديدة على أسـرّة منزلها، تتغير بدورها مع كل رجل. بهذه الطريقة فقط، كما سـتخبرني بعـد ذلك، يمكن للشـخص أن يولد لعددٍ لا نهائي مـن المرات، فكل اسمٍ جديد ولادة جديدة، ولهذا السبب نفسه كانت الست روزا متأكدةً أن واحدة من فتيات هذا المنزل لا يمكن أن تموت، إلا إذا قُتِلَت.

تذكرتُ واقعة تعود لزمن ولادتي، حكتها لي أمي، عن الاسـم الذي ظهر لها في مكتب الصحة بينما تسـتخرج شـهادة ميلادي. كان اسمًا لم يحالفه الحظ أبدا بالعثور على شـخص يحمله، رغم أنه كان يتمتع بميزة اسـتثنائية، ذلك أنه واحد من هذه الأسماء التي تصلح لذكرٍ ولأنثى معًا. قالـت أمي إنه كان معروفًا فـي المكان المقبض كأنه أحـد قاطنيه، وكان الموظفـون متعاطفيـن معه. كلما دخـل أب أو أم لتسـجيل مولوده هب الاسم مسـرعًا نحوهما، يعرض نفسـه، مميزاته، ومنها الندرة، والقصر، وسـهولة التلفـظ، حتـى أنـه كان ينطـق نفسـه ليُقنـع الأهالـي الملولين

بجدارتـه. أوقـف أمي، ونظر لعينيّ، وقـال دامعًا: «انا اسـم البنت دي».
تعتقـد أمـي أنـه كان يقصد ذلك، تعتقـد أن دموعه يومها لـم تكن كاذبة،
وتعتقد أنه اختفى للأبد حين رفضَته، وأنني كنتُ فرصته الأخيرة ليبقى.

ظلـت أمي تحكي هذه الواقعة بشـيء من الندم، متوجسـةً أنني قد
أتعرض لانتقـام ما ذات يوم جراء ذلك الجحود. كانت أمي مقتنعة أن
من يتعالى على أسـماء الآخرين أو يسـخر منها ينتهي به المطاف وقد
فقد اسمه. الآن أتذكرُ نبوءة أمي، وأنا أفكر أنني ربما دخلتُ هذا البيت
لأصبح في نهاية المطاف شـخصًا بلا اسـم، محققةً نبوءة الاسم الذي
مات دون أن يحصل على شخص.

لمـاذا اختارنـي العجوز لمـرةٍ ثانيـة؟ لقد أفلت مـن رصاصتي في
المـرة الفائتـة، فهل جاء هذه المـرة لينالها؟ لماذا يكـرر عجوزٌ التطلع
دون أمـل لداعـرة صغيرة جرّب نومها من قبـل؟ وهل حدث ذلك من
عجائـز آخريـن مع فتيـات أخريات؟ ربمـا كان ممتنًا فـي أعماقه دون
أن يعرف سـببا لامتنانه، فقد أنقذته مرتين، ليفلت من رصاصة السـت
روزا، بعد أن أفلت من رصاصتي.

ولمـاذا توافـق السـت روزا، رغم أن هـذا يناقض مهنتـي هنا؟ أي
سلطة يملكها هذا العجوز بالذات عليها؟

لعلـه جـاء يكمل مذكراتـه؟ ولماذا أرادهـا مع فتاةٍ واحـدة؟ قرأتُ
الروايتيـن السـابقتين في مكتبة أمي. في «الجميـلات النائمات» كانت
هنـاك عدة فتيـات يبدِّل العجـوز بينهن، إحداهن شـقيقتي. في «ذاكرة
عاهراتي الحزينات» كانت هناك فتاة واحدة.

للأمانة كان «ماركيز» أكثر شجاعة من سابقه، فقد وصف المنزل صراحة بأنه بيت دعارة، ومنح الفتاة النائمة اسمًا: ديلجادينا، ووصف الست روزا بالقوادة، بل وذكر اسمها صراحةً، مغيّرًا فيه حرفًا واحدًا لتصبح «روسا». لكنه كان أجبن من أن يكشف اسم بطله، مكتفيًا بضمير المتكلم لرجلٍ بلا اسم، فيما قدم «كاواباتا» اسم بطله «إيجوشي» على طبقٍ من ذهب، كأنه يشي به في محاكمة.

كنتُ أتقدم بالدراجة فيما تنسحب المدينة وترتد كموجة جزر. تصفو لدبابات الجيش التي تطوّقها كما يطوّقها البحر من الجانب الآخر. أصبحت الإسكندرية محاصرةً من الجهتين، وفي المنتصف، يشقها الترام كسكّين كعكة، حشرة ثرثارة تحمل البشر فقط لكي يتفرجوا على مدينتهم وكأنها صورة. هذه المجنزرات بحرٌ آخر، لوّنته رمال صحراوات قاسية يقتل فيها الرجالُ أعداءهم وتميتهم الشمس، فوهته مصوبة نحو لا أحد، وهذا يجعلها، أيضًا، مصوبةً باتجاه الجميع. يهرول الناس باتجاه بيوتهم بنفس طريقة الساعة الأخيرة قبل أذان المغرب في رمضان، يهربون من الدبابات وزرقة عيون الجنود الريفيين الذين لم يروا زرقة ذلك البحر من قبل ويفكرون أنه أكثر خطرًا من جميع الأعداء الذين يحدثهم عنهم قادتهم. لا تلائم هذه الشوارع المنداة الزلقة بيادات الجنود، لكنهم يحرسون المدينة وهذا الهواء المضاعف أصبح من حقهم. كانت المدينة تُختطف في وضح النهار: سيارات الشرطة نفسها تُسرق ولا تستعاد إلا بتفاوض مجهد مع لصوص لم تعد تخيفهم الطيور الجارحة على أكتاف الضباط. إنهم يحمون المدينة، يحمون بحرها، ويحمون هذه السماء نفسها

كأن الله غير قادرٍ على الدفاع عن مكانه، دون أن يكونوا بحاجةٍ حتى ليعرفوا أين هم.

أعبر اللّحى المبتلة بهواء البحر، اللحى المشبعة باليود وقد صارت واجهاتٍ لرجال هذه المدينة، أثقل من الوجوه التي تحملها، تشدّها لأسفل مثلما يشدّ مسدس صاحب المصنع جذعه. تتطاير شعيراتُها الشاردة لتُشكّل سحاباتٍ هشة، كانت تدخل فمي كلما عبرت بجوار مسجد القائد إبراهيم حيث يفترشون الساحة في صلاةٍ لا تنتهي. أبصق شعيراتهم بسرعة، كأنهم قذفوا في فمي، بينما يركعون ممعنين في تعميق حُفَر جباههم الداكنة التي ستضيء ذات يوم عندما تُظلم الدنيا. مع كل بصقة أشعر أنني بصقتُ رجلًا يشبههم، كأنني ألد رجالًا مكتملين، كأنني المرأة التي تلد العجائز في حكايةٍ قديمةٍ لأمي. تفترشُ أحذيتهم قلب المدينة. مدينة كاملة من الصلوات تجردت أقدامُها مما يسترها واكتفت بالحفاء وجهًا لوجه مع السماء. حفاءُ أصدقاء الله مقابل بيادات حماة الوطن. قدمٌ هائلةٌ عارية وبيادة هائلة تسير بهما المدينة، عرجاء. أي القدمين ستنتصر في النهاية لتكمل المدينةُ حياتها بساقٍ واحدة؟

القِبلة عكس اتجاه البحر، كأنّ البحر إثمٌ ستظل هذه المدينة تكفّر عن وجوده إلى أن تفنى. لو استطاع هؤلاء الملتحون، لحجبوا هذا البحر الذي يشدّ المدينة رغم أنفها للحياة. لكنّ عزاءهم أن رجالًا آخرين، أعداءهم بالذات، تكفّلوا بتشييد مدن متلاصقة تحجبه، مدن خرسانية وأخرى زجاجية يجلس خلف واجهاتها أشخاص سعداء يأكلون ويشربون كأنهم مانيكانات غامضة معروضة لفقراء لا يملكون ثمنًا إلا النظر، يخدمهم الجنود الذين لا حرب في انتظارهم.

بعد قليل، أقل القليل، سيختفي البحر، خلف قطيع الأسوار واليافطات حيث روائح شواء تختلط بأدخنة الشيشة وبالأجساد المغسولة كما ينبغي كي لا تحمل الرائحة الزفرة لمدينةٍ تقطن قاعها كافة الأسماك المحتضرة التي لفظتها بحار العالم.

بعد قليل، ستختفي المدينة، وسيولد البيت، كأنما يُبعث من ظلامها.

بعد قليل، سيختفي جسدي، حيث وجودي الحقيقي، هنا، تحت أجساد جميع الرجال الذين بلا حرب.

تنكّرتُ للمرة الثانية في «البروفة». أيجيء هو الآخر متنكرًا بطريقةٍ ما؟ وأي نوعٍ من التنكّر يمكن لرجلٍ مثله أن يخضع له؟

كالمرة الفائتة دسّت الست روزا حقنة في وريدي. لماذا تفعل ذلك كل مرة رغم أن كلتينا تعرف أن هذه الحقنة تحوي أي شيء سوى النوم؟ ما الذي يمكن أن يكونه السائل في الحقنة؟ مُنبّها يحول دون النوم الذي يُمكن أن يهزمني فجأة؟

أدخلتني يدُ الست روزا الحجرة نفسها (هل هي مصادفة؟) كأنني في مشهدٍ معاد يجب أن أمثله كل مرة دون أن أفقد دهشتي. لا يمكن أن أبيت ليلتي هنا، حيث نمتُ المرة السابقة. سأنتهي من العجوز ثم أدخل سبات غرفة جديدة.

كالمرة الفائتة، انتظر العجوز قليلًا بالخارج، محافظًا بدوره على إيقاع المشهد المُعاد. وكالمرّة الفائتة، ولج الغرفة حائرا. دار الدورة نفسها حول السرير باحتراز مصارع ثيران، ثم خلع ملابسه، وأخرج رزمة الأوراق التي كان حفيفها هو الصوت الواقعي الوحيد في المكان الذي يطفو فوق الواقع طفو جثمان غريق فوق بحر المدينة.

لابد أنني كنتُ متعرقةً للدرجة التي كان من الصعب معها ألا يلحظ العجوز ذلك، فقد أخرج فور تمدده إلى جواري منديلًا قطنيًا يشبه مفرش سُفرة بدأ يمسح به جبهتي. يبدو أن جسدي كله كان مبتلًا، لأن

المنديل امتد إلى بقية أنحائي. شعرتُ أنه يفعل ما هو أكثر حسية من مسح عرقي، مواريًا أصابعه بمنديل ليخفي آثار جريمة لا يريد لبصماته أن تُترك على جسدها. شعرتُ باستثارةٍ مفاجئة، فأدرتُ وجهي نحوه، بعفوية النوم التي صرت أجيد تمثيلها. يبدو أنه تأثر لذلك، لأنه مد يدًا دفنها في شعري، وهمس: انتي نايمة؟ غرقانة في النوم يعني؟؟ يعني مستحيل تصحي؟؟

كان كأنه يمرر لي استعداده للتواطؤ معي إن أنا فتحت عينيّ فجأة، وأجبته بالنفي. لكنني حافظتُ على ثباتي، ولكي أبعد انتباهه، طويت ساقي اليسرى بحيث التحمت قدمُها بصابونة ركبتي اليمنى المنفرجة.

حذّره صوت الست روزا قبل أن يدخل: «خد بالك البت لسه مخضوضة من المرة اللي فاتت». بالتأكيد تشكّكَتْ عندما اتصل ثانية ليبشِّرها بأنه قرر أن يكرر الزيارة لمنزلها، مشترطًا فتاة المرة الأولى نفسها. وبالتأكيد سألت نفسها دون أن تسأله: إن كان حقا عاجزًا عن الإتيان بشيء «مناف للذوق» أو «جالب للمتاعب»، مثلما أخبرتها أنا، فلماذا يريد أن يكرر الفتاة نفسها؟ لقد هرب من هذا التكرار بالذات في قصص الحب التي عبرَت حياته، مفضلًا عابرات الصدفة وعاهرات الليلة الواحدة المنسيات على النساء اللائي يُشيِّدن بيوتهن في الذاكرة، فهل يبحث عن ذلك الآن وقد صار عمره خلف ظهره مع فتاةٍ نائمة؟ إنّ هذا لا يحدث سوى في الحب، تلك الرغبة المميتة في تكرار الأشياء نفسها، وحيث تظل كل مرة هي المرة الأولى إلى أن ينتهي كل شيء.

ماذا خلّفتِ الليلةُ الأولى بداخله؟ أي حافزٍ جعل رجلًا مثله يطلب الفتاة ذاتها؟ بالتأكيد سألت الست روزا نفسها إن كنتُ كذبت عليها.

تستطيع الست روزا أن «تخفيني من على وش الأرض». هذا الرجل يستطيع أيضًا، وصاحب المصنع يستطيع. كل العجائز يستطيعون.

أفكر أن فكرة الاختفاء ارتبطت بي منذ طفولتي وكأنها قدري. كنتُ أخلق أجسادًا لا وجود لها ثم أكتشف وجودها فيما بعد. رسمتُ أبًا دون أن أعرف بالضبط العلاقة بين الملامح التي تخيلتها وشكله الحقيقي، لكني رأيت في وجه أمي وأنا أريها الرسمة تلك النظرة التي تشع عندما يرى شخصٌ وجهًا يعرفه. ظللت أفعل ذلك إلى أن كافأني المصنع بمقعد تجلس عليه الفتيات ليختفين.

في يومي الأول بالمصنع، كان هناك مقعدان خاليان متجاوران. هممتُ أن أجلس على أحدهما، لكن واحدة من الفتيات نبهتني مفزوعة: «لأ بلاش ده.. اقعدي ع اللي جنبه». نفذتُ أمرها، أو توسلها للدقة، مندهشة، وقد ظننتُ أن المقعد الثاني يخص فتاة أخرى. لكن الفتاة أكملت وهي تهمس في أذني: «أصل اللي بتقعد ع الكرسي ده بتختفي».

بشَغلي المقعد صار المقعد المجاور هو الوحيد الخالي في صفوف المقاعد المتوازية التي بدت في العنبر الواسع مثل خطوطٍ متلاصقة في جبهة. وإلى أن تجيء زميلة جديدة، تكفلت البنات باسترجاع حكايات فتيات ذلك المقعد المختفيات، والذي لا تشغله فتاة جديدة إلا لو كان الأخير الشاغر.

لم يلبث المقعد أن شغلته عاملة جديدة، وثانية، وإلى ما لا نهاية، سيتبخرن جميعًا على اختلاف الأسباب. لم تكن إحدانا لتجرؤ على تنبيه القادمة طالما هو المقعد الأخير، وكانت العاملة الجديدة، وفور التصاقها به، تبدأ رحلتها السريعة تجاه التحوّل لكائنٍ غير مرئي. ولأنه ملاصٌق لي، وكثيرٌ من عابراته كنّ يبحن لي بأدق أسرارهن فيما نحن منكفئات بوصفي أقرب جارة، فقد شعرتُ أنني شخص مؤتمن على قطيع أشباح.

ذات يوم قررت إحدى «فتيات المقعد» أن تقود تمردًا، من أجل تحسين أجورنا ومطالبة صاحب المصنع، الذي كانت تدعوه بالقوّاد، بتأمين صحي لنا. دعمناها جميعًا، لكن عندما جاءت لحظة الجَد، دفنّا رؤوسنا في صمت الأقمشة، بينما قطعت هي الصالة وحيدة وعزلاء باتجاه مكتبه. طرَقَت بابه، ثم أدارت المقبض ودخلت، أغلقت الباب وراءها، ولم تخرج أبدًا.

لم يرها أحدٌ تفتح الباب مجددًا لتغادر. بالتأكيد لم تقفز من الشباك وإلا لظهرت جثتها في الشارع. لم يبدُ صاحب المصنع بعد ذلك مندهشًا لاختفائها لكنه أيضًا لم يكن مأخوذًا كما يحدث لشخص اقترف جريمة أو يشعر بالذنب أو الخوف أو التردد. فشلت كل التحقيقات في تحديد سبب تبخر الفتاة التي ظل مشهدها الأخير يدًا تغلق باب المكتب خلفها كأنها كانت تغلق على نفسها باب مقبرتها.

فكّرتُ أنها إن كانت اختفت بهذه الطريقة الغريبة داخل غرفة مغلقة كأنها قطعة نرد، فإن حياتها كلها محل شك، حد أنها يمكن ألا تكون قد

وُجِدَت، كما يمكن أن تكون شبحًا، ظهر للجميع في اللحظة ذاتها، ثم ذهب تاركًا قطيعًا مذهولا من الفتيات الفقيرات يتذكرن جسدًا لم يوجد.

كمزحة في البداية، ثم بهمهمات أكثر جدية ما لبثت أن تحولت ليقين راسخ، شاع أن صاحب المصنع أخفاها في مكان ما بداخله، وصرنا، وقد عاد لفقراته السحرية الفاحشة بعد أيام الحداد والتساؤلات والتحقيقات الشكلية، ننتظر أن يخرجها مرة من فتق في القميص المنحسر عن كرشه، أو من أحد جيوب بذلاته، أو من سرواله الواسع.

يومًا بعد الآخر، سيصبح الغيابُ شيئًا مألوفًا، ثم سيفقد قدرته على التأثير ليصبح محض مادةٍ ملائمة لحكاية.

يومًا بعد الآخر، سأتعلّمُ أن هناك أناسا مصيرهم الوحيد أن يتبخروا كقطرة ندى على ورقة شجر.

يومًا بعد الآخر، سأعرفُ أنه في جميع الأمكنة، ثمة ذلك المقعد الذي يوجد لكي يبقى شاغرًا.

كالمرّة الفائتة، خبأتُ المسدس تحت وسادتي.

هذا المسدس، ببقائه معي، هو من نجا.. فقد رأيتُ نظارة الكفيف السوداء تأخذ مكانها ضمن اكسسوارات غرفة البروفة، متحف الست روزا الغامض، لتُخفي عيني مانيكان رجل. بدا أيضًا رجلًا حقيقيا جرى تحنيطه، وبوضع النظارة فوق عينيه، لم يعد لديّ شك أنه الشاب الضرير الذي أحببته يوما ما.

ارتجفتُ للحظة، بينما تجهّزني الست روزا أمام المرآة العمياء. يقولون إن هذا المنزل مسكون رغم أن شيئًا لا يمكن أن يخيف فيه أكثر من قاطنيه. فكرتُ أن الشاب الضرير قد يكون تتبعني ذات مرة إلى هنا، معتقدًا أن هذا هو بيتي، ومقررًا أن يقول لي أخيرًا الكلمة التي انتظرتها، فرغم أنه لم ينطق كلمة واحدة، ظلت كلمة «أحبك» الكلمة الوحيدة التي لم يقلها.

ربما فعل، فعوقب. كان يبدو، وقد التصق بمانيكان المرأة، كأنما عثر أخيرًا على نصفه الآخر، ولأول مرة أشعر بالكراهية تجاه مانيكان تلك المرأة، الذي ظل مستسلمًا، كجميع الدمى التي كانت يومًا ما أرواحًا.

بدلا من تقليبه في الضوء كالمرة الفائتة، اكتفيتُ بتحسس المسدس، بينما يزحف الدفء على جسده البارد، كأنما يجرّده من شراسته ويمنحه حرارة يدٍ إنسانية.

هـذه المـرة لم يكتـفِ العجـوز بأوراقه. جلـب كتبًا (سيتركها هنا عندما يغادر)، أثقلها كان نسـخة من «ألـف ليلة وليلة» في عدة أجزاء. أردتُ أن أخبره أن اسم أمي، للمصادفة، شهرزاد.

حام حول السـرير فـي دورة كاملة مثلما يحوم صياد حول فريسـته لحظـة استسـلامها ليتأكد أنهـا لا تملـك انقضاضة أخيـرة، كأنه يثبِّت صورتي في وعيه، أو ربما ليتأكد أنني فتاة المرة الأولى نفسها. يبدو أنه قرر أن يهدهدني، فبدأ يغني أغنيات أطفال مرتجلة يعود أحدثها لزمن بعيد لم أكن وُلدت فيه بعد، عندما كان هو حينها شابًا في الخمسين.

رغمًا عني أفلتُّ ابتسامة، ولعله اعتبرها استجابة، خاصةً وقد حركتُ أصابع قدمي بحركة لا واعية. ارتعبتُ عندما قبض على قدميّ بكفيه كأنه اكتشف للمرة الأولى أنني لستُ ميتة، وأمرني مباشرةً كأنه اكتشف أنني مستيقظة: «فتّحي عينك مرّة إن شالله تموتي بعدها».

بعدها توجه نحو ملابسه المعلّقة، حيث سمعتُ رعشة الذهب. وضع قرطًا حول رقبتي، وإسورةً حول معصمي. وفي ثقبي أذني أدخل فردتي حلق. كبحتُ تألمي بصعوبة. كان إدخاله الحلق كإيلاج. قال داخل أذني كما تعوَّد، وكأنها طريقته الوحيدة لإسماعي في نومي، «البسيهم كل مرة لما آجي».

يبدو أن عودتي للسكون أحبطته. جلس في ركن السرير، وقد أوليته ظهري في حركة مباغتة، وبدأ يقرأ من أوراقه. من الواضح أن العبارات القليلة التي قرأتها في المرة الفائتة قد تكاثرت وملأت صفحات. كنتُ أسمع صوت إزاحة الصفحة لتقفز تاليتها مكانها.

بـدت صحـوة صوتـه الشـاب هـذه المرة علـى خصام مع جسـده المجعـد مثل قميصٍ غير مكويّ، لكنـه كان يقرأ برتابة، دون انفعالٍ أو تلوّنـات في الصوت، كأنه يُلقي كلمات شـخصٍ آخر، حتى كدت أنام بالفعـل، رغم أن مـا يقرأه كان يضـمّ تراوحات هائلة، حتـى أنه عندما تطـرّق لقبحـه بوجدانٍ مهان، كدتُ أفلت دمعـةً كانت كفيلة بإنهاء كل شيء.

بخلاف المرة السابقة، لم ينم فور أن وضع أوراقه على الكومودينو. فتح كتاب ألف ليلة وبدأ يقرأ حكاية رجل يُدعى نور الدين علي وجارية تُدعـى أنيس الجليس: «فقـال الخليفة من أنتِ فقلت أنا هدية علي ابن خاقان إليك وأريد إنجاز الموعد الذي وعدتني به من أنك ترسلني إليه مع التشريف والآن لي ثلاثون يومًا لم أذق طعم النوم».

كان يقطع قراءته كل حين ليناديني باسم جديد، كأنه يختار الأنسب لـي من ردة فعلي في انطباعات وجهـي النائم. ثم توقف فجأة وناداني بـ «شهرزاد».

سـرت رعـدةٌ في عروق وجهي، أعتقد أنه التفـت لها وتعامل معها كعلامة، فأخذ يكرر الاسم، كأنما يتأكدُ من جدارته قبل أن يسجّله باسم مولودته، مقربًا فمه أكثر فأكثر من أذني كأنه يلقي به في تجويفها.

كان هذا هو اسمي الحقيقي.

عندما استسلم لنومه، عدتُ أتأمل جسده. إنه غارق في نوم قاتل.

نوم قاتل، رحت أتأمل التعبير ثم بدأت أكرره كوسواس قهري. نوم قاتل. نوم يقتل. نوم يحمل سلاحًا. نوم يطعن. نوم يخنق. نوم يدس السم. نوم يُصوِّب طلقة.

هذه الليلة لا يبدو متهالكًا، بدا أكثر شبابًا لسببٍ ما، أحد تلك الأسباب التي لا تُرى، هذا إن جاز أن نقرن كلمة شاب بشخص شائخ. كانت تفاحة آدم في عنقه أكثر بروزًا، تكاد تشق بحر التجاعيد بينما تنتصبُ كأنما لتنفي أي شك حول رجولته. لماذا لا أخنقه؟ حلّ بسيط وسهل، ومع نومه القاتل هذا لن أَلقى مقاومة تُذكر. لم أجد إجابة. شعرتُ بشكلٍ مضبب أنني أفكر في الدم أكثر مما أفكر في الموت. بدت لي بقعةُ دم منفجرةً من فتقٍ مشهدًا يستحق أن نضحي من أجل رؤيته بشخص، لا يُشترط حتى أن يكون عدوًا.

ماذا لو التفت الآن بنصف إغماضة؟ لن يكون أمامي خيار آخر، وقد كشفني، سوى أن أقتله. لكنه لم يلتفت، ظل ممددًا في مكانه، على ظهره، في وضع ميت، مغيرًا من وضع جنين المرة الفائتة، كأنما يقرر في كل مرة الوضعية التي سينام بها. سمح لي هذا الوضع بتأمله بشكل أفضل. كانت كل التجاعيد التي عبرت وجهه قد تجمعت في رقبته، في طبقات متهدلة تسيل في مجاريها الدقيقة خيوط عرق لزجة ولامعة وثابتة كأنها من معالم عنقه. كان من حقه، فكرت، أن يصف

نفســه في يومياته بالرجل الدميم، خاصةً وأن رأســه بدا أكبر حجما من مقاييس جســده، وكأنه رأس راشــد ألصق بجسد طفل. هل هذا بسبب الشــيخوخة التي قلصت جسده أم أن رأســه كان دائمًا ضيفًا ثقيلًا على ذلك الجسد؟

هل يحلــم الآن؟ وبم يحلم العجائز؟ هــل يحلمون بماضيهم؟ إن هــذا يعني أن النوم بالنســبة لهم أحد أشــكال التذكر. هل تشــبه أحلام العجائز أحلام الأطفال؟ أم أن الأحلام أيضًا تشيخ مع أصحابها؟

كانت عيناه مسدلتين كأنه أغلقهما إراديًا لكي لا تهرب منهما النظرات القليلة المتبقية له، هل يولد كل شخصٍ بحصّةٍ محددةٍ من النظرات لا علاقة لها بقوة البصر؟ وهل تنحسر النظرات مع الشيخوخة؟ كنت أخمن عدد تلك النظرات الشحيحة التي يدخرها ليرى شيئًا أخيرًا قبل أن يموت. جميعنا يفضل أن يرجئ كنزًا ما للنهاية، حتى وهو يعرف أن العثور عليه سيكون متأخرًا.

هــذه المــرة كان فمــه مفتوحًا. وضعــت أنفــي فيه، ليســت رائحته بالكريهة كما اعتقدت، بسبب أسنانه التي لم تكن متهدمة لكن صفراء. كانــت رائحة أعماقه هــذه المرة أقل حيادًا من رائحة أنفاســه في المرة الأولى. إنها تُذكّر بشيء، شيء أعجز عن ابتعاثه رغم أن أبعد ذكرياتي لا تمثــل له بالكاد ســوى فصلٍ عابرٍ في شــيخوخته التــي بدأت قبل أن أولــد بوقــتٍ كافٍ. مــا الذي يمكن أن تثيره فيّ تلك الرائحة؟ ليســت رائحــة بقايــا طعــام أو قهوة أو تبغ، لكــن أقرب ما تكــون للرائحة التي يخلفهــا اتحاد المطر بالتراب، تلك الرائحة الغامضة التي تعد بالوحدة

وتعجل بها بينما يتقاطر الأطفال المستيقظون من نومٍ سيئ في طريقهم للمدارس. كانت رائحة أعماقه تلك، أو ما اعتبرتُها رائحة أعماقه، أكثر إنسانية من رائحة أنفاسه الربيعية، لكن أكثر تذكيرًا بالفقد.

هل سأل الست روزا عن تعليمي؟ بم أخبرَتـه؟ أم لعلها كذبت عليه بأنني لا أجيد القراءة والكتابة، كأنها تطمئنه، بتواطؤ غير واعٍ، أنه لن يكون بمقدوري يومًا ما أن أقرأ أوراقه أو، وهذا هو الأخطر، أن أكتب قصته؟

يبدو وجهه محايدًا في النوم. البعض ينامون بشبح ابتسامة، أو شبح تقطيبة، شبح غضبٍ راقد من بقايا اليوم، شبح كراهية، لكن ذلك العجوز كان يبدو كأنما أزاح أشباحه دفعة واحدة لينام كميت. ماذا تراه يعمل؟ أي مهنة تلائمه؟ فكرت، ولأن علاقته بقلمه بدت لي أكثر من علاقة مؤقتة، فقد خمنتُ أنه يعمل في مهنة لها علاقة ما بالكتابة. اخترتُ له أن يكون صحفيًا. وهنا لمحتُ رعدة تعبر وجهه الخالي من التعبير. هل سمع صوت أفكاري في نومه وأومأ لا واعيًا؟ ماذا لو أنه يعرف أنني مستيقظة؟ ماذا لو كانت التمثيلية تدور بالضبط عكس ما اعتقدت؟ هو من يمثّل النوم لكي تكتمل مادة روايته، خلافا لسابقيْه، بمادةٍ غير متوقعة؟

سمحتُ لنفسي أن أمرّر يدًا على شعر صدره الأبيض بينما أفكر أن صدره أقرب لتجويف. كانت ذراعاه أيضًا متهدلتين عند الكوعين، كأن الشيخوخة تنتقي أمكنتها بالطريقة التي يتكون بها الماء في مصبات نهر. والخطوط التي تقطع جبهته، لا تبدو علامات عجز قدر

ما تبدو ثلاثة أو أربعة سطور غامت كلماتُها واتحدت مُشَكِّلةً مقطعًا في صفحة متروكة.. بدت لي متناقضة مع جوهر النوم، حيث تستسلم كل الأعضاء.

بدأتُ، متجرأةً أكثر، أحاول فردها بأصابعي، بينما أُزيحُ من جديد، غير مصدقة، إلحاح الفكرة المرْعبة بأن هذا العجوز مستيقظ الآن.

مدفوعةً بهذا الهاجس استدرتُ نحو الوسادة. التقطتُ المسدس. بدا أكثر خفة. لماذا تفقد الأشياءُ ثقلها في هذا البيت؟ استعدتُ طريقة الست روزا في استخدامه، وصوّبته نحو قلبه، مغيرةً من قراري الأول بالتصويب في جبهته. لكنني، مثلما يحدثُ في الأفلام، ولحظة ضغط الزناد، أخفضته.

لِمَ تراجعت؟ لم يكن الخوف، لم تكن خشية العقاب، عقاب البشر أو الله. لم ترتعش يداي ولم تهتز ذراعاي المتصلبتان. ربما فكرتُ في هذه اللحظة أنني أريده أن يُكمل حكايته أولًا، كمحكومٍ بالإعدام يستحق فرصةً كاملة للاعتراف. ربما فكرتُ أنّ ما يكتبه سيكون هو إدانته التي ستمنحُ قتلي له مذاق الانتقام العادل، وربما فكرتُ أن انتقامي الحقيقي منه وممن ينتمي لهم، أن أخدعه برواية يكتشف لدى قراءتها أنني كنت المستيقظة، وكان هو النائم.

استبعدتُ احتمالًا واحدًا بدأ يغزو عروقي كسرب نمل: ربما بزغ شيءٌ ما في هاتين العينين المغلقتين، والرائحة المموهة كملابس جندي، والجسد الشريطي، والروح الذاهبة. شيءٌ إذا ما وُلد لا يفنى حتى يدمر كل شيء في طريقه، شيءٌ اسمه الحُب.

أفقتُ في اليوم التالي، ربما قرب منتصف اليوم، مرتعبة. لقد نمتُ عقب مغادرته، في الغرفة نفسها التي نمتُ فيها من قبل. أنا، هذه المرة، من غرقتُ في نومٍ قاتل، واستيقظتُ مهددةً كما لم يحدث منذ وُلِدت: كانت هذه المرة الأولى منذ وعيت الدنيا، التي أذوق فيها طعم النوم في سريرٍ واحدٍ مرتين.

مدينة العجائز

(الليلة الثالثة)

«كان صاحب ذلك البيت الغامض للمسنين يخطف الرجال العجائز بالطريقة التي يخطف بها آخرون الأطفال. كان يسرقهم من شوارع الإسكندرية: فاقدي الذاكرة، المجاذيب العراة، الشحاذين، المطرودين من بيوتهم وزوجات أبنائهم، وجميع أولئك الذين شاخوا للدرجة التي عادوا معها أطفالًا. كان يعيد تدويرهم بعد أن يحوّلهم لأشخاص آخرين. كان يبيعهم: نعم، فمثلما هناك دائمًا عجائز فائضون عن الحاجة في بيوت، ثمة بيوت أخرى بحاجة لعجوز ما ليؤدي دورًا غاب صاحبه: أب ميت ظن ابنُه أنه مسافر ويجب الآن أن يعود، أو امرأة تبحث عن اسم أب لابن حرام. لقد باع لي شخصيًا ذات يومٍ بعيد أحد العجائز.

- هذا الرجل كان أول عجوزٍ قتلته في المهمة..

***

تُكمل شهرزاد: تعبر مدام شهرزاد فناءً موحشًا، يلوح في نهايته قوس غرف أفقية مطفأة الأنوار، حيث يعيش عجائز هذه الدار الموحشة للمسنين. إنه مكانٌ مرعب، يتوارى في منطقة معزولة بالبيطاش، يبدو

شتويا مهما تقلّبت الفصول، وقد ترك الاحتضارُ المتأخر لقاطنيه بصْمَتَه على كل شبر فيه.

العجائز نائمون، كالأطفال، تحت قمرٍ مكتمل، فيما تتقدم مدام شهرزاد شاعرةً أنها تتنفس الليل.

- ذلك العالم الذي لا يمكن على وجه الدقة تحديد عمره.. كم كان في تلك اللحظة عجوزًا.

ثمة شخص واحد مستيقظ، هو من ستقابله الآن. حجرته هي تلك الوحيدة المضاءة، والتي تفصلها مسافة آمنة عن كتلة الغرف المتلاصقة لقطيع العجائز، أسراه. هي أيضًا حجرة عالية، تُشكِّل طابقًا في ذاتها، تطل عليهم كأنها تراقبهم. ستقتل شهرزاد الشخص الذي ينتظرها في الغرفة المُضاءة، لتخصم روحًا من العالم الذي لا مكان فيه سوى لجميع من شاخوا.

كان بيت المسنين مكانًا مقبضًا، زارته من قبل، لكن في نهارات أكثر براءة، لتقوم بمهام نظيفة كممرضة. لكنه الليل الآن، والرجل الذي دخلت لتُنهيه ربما يكون بدوره شخصًا آخر، فالناس في الليل ليسوا أبدا أنفسهم في النهار.

- كان المكانُ بعيدًا عن المدينة، لكن الأكيد أن ذلك الرجل اختاره لأنه كان أبعد مكان عن نفسه.

رأته لأول مرة في مستشفى الحميات، دخل مختنقًا بحُمّى البحر المتوسط العائلية، في نوبة كادت تودي بحياته. قال يومها لشهرزاد

بعدما ضخوا الأوكسجين في رئتيه: «حاسس ان قلة الكلام هيا اللي خانقاني مش قلة الهوا».

تحدَّث معها كثيرًا. كان متأكدا أنه لن يغادر المستشفى حيًا فتكلّم براحته، حكى حكايته صادقًا، حكى ما لم يعرفه أحد وما لم يكن ينبغي لأحد أن يعرفه. وبالمقابل حكت له هي واحدة من قصص حياتها المتوهمة. اختارت واحدة مثيرة وخطرة لتطمئنه بأن خطورة ما حكته له تفوق بكثير ما حكاه لها.

لكنه نجا، ولم يسامح نفسه على اعترافه الذي أصبح منذ تلك اللحظة عورته. ظلت ممرضته تهديدًا لأنها عرفت أكثر مما ينبغي. رغم ذلك نجت هي أيضا. أن تقول كل شيء أو لا تقول شيئًا على الإطلاق: كانت شهرزاد تعرف أن من يملك القدرة على واحدةٍ من الاثنتين، هو من ينجو.

كان خارجًا على القانون، يدير تجارةً غريبة في مدينةٍ لم تعُد تبالي. الإسكندرية كلها كانت تعرفه ويسميه الناس ببساطة «حرامي العجايز»، لكن أحدًا لم يكن يملك دليلًا لإدانته، وفوق ذلك كانت بضاعته كالخردة بلا قيمة ولا صاحب. لم يكن هناك من يهتم بعجائز تائهين، فالناس يبحثون عن الأطفال فقط.

كانت شاحنة ببابين خلفيين تلفّ الإسكندرية يوميًا، تتوقف في أي شارع، ينزل منها رجال مفتولون في ملابس التَمَرجية، يقتادون العجوز المنسي أو التائه ويقذفون به في صندوقها، ثم يُغلق البابان من جديد، وتكمل الشاحنة سيرها. في المساء تفرغ حصيلتها في جوف

هـذه الدار، حيث يتأمل حرامي العجائز بنفسـه حصيلـة اليوم، يفرزها ويصنفهـا، يفـرّق -دون حاجـةٍ لدعم أحد- بيـن النوعيـات، الطبقة، المسـتوى الثقافي، درجة السلامة العقلية، ثم يكتب لكلٍ منهم تاريخًا جديدًا، ما يلبث أن يتحول إلى أوراق رسمية في مكاتب الدولة.

جميـع «المسـنين» اسـتقروا فـي المـكان بـأوراق هوية مـزورة لا يشـوب الشـك سـلامتها. كان يخلـق لكلٍ منهـم قصة أكثـر إقناعا من حياته، وتكفلت علاقته برجال السـلطة الكبار في المدينة بتأمين عمله الغريب ليبقى سرًا في الظلام، ظلام العجمي وظلام العالم معا.

لـم يُعرف لـه بيت خارج هذه الأسـوار. كان يقيم هنـا، بين عبيده، كأنه مطرود مثلهم ولاجئ في هذه الغرف. تتذكر شـهرزاد أنها سـألته مـرة: طب دول وعرفنـا حوارهـم.. إنت بقى مين طـردك؟ أجاب دون تفكير: المدينة.

عندما تصمت مدام شـهرزاد لتبلع ريقها ينظر لها العجوز متوسلا. لقد بدأت دون إنذار حكاية جديدة.

- حسـنا أنت تنتظر حكاية مدينة العجائز.. لكنها تحتاج أن أحكي ما كان مع هذا القتيل الأول، فمن هذه الحكاية بزغ كل شيء.

يبدو كأنه يومئ، لكن جميع إيماءاته، تأييدًا أو رفضًا، ترحيبه أو ضجره، كل ذلك أصبح الآن لا شيء. لقد بدأت الليلة الثالثة ودون إنذار بحكايةٍ جديدة. ربما لا تعود لحكاية روزا الأولى وروزا الثانية أو منزل الجميلات، وربما عادت لهما، لا يعرف، لكن العجوز فيما

يبدو مشدود لمعرفة حكاية لص العجائز، وما حدث عندما تحوّلت شهرزاد إلى قاتلة لأول مرة.

- ذكَّرني هذا الرجل بحكاية الرجل الذي انتقم من مدينة كاملة عندما فشل في العثور على سرير لنومه، فقرر إعداد جيش من المستيقظين في فندقٍ لا تُطفأ أنواره.. الحكاية لكاتب مصري اسمه طارق إمام وقد قرأتها ضمن حكايات كان يكتبها أسبوعيًا في جريدة «الدستور»، رشّحتها لي ابنتي التي كانت من قرائه.

حكايته غريبةٌ مثل اسمه، فقد أطلق عليه الأهالي: صاحب الحجرات، لأنه الرجل الذي يملك بنايةً ضخمة عند تخوم المدينة، تضم آلاف الغرف، خصصها للغرباء الذين يأتون لقضاء مصالحهم. الحجراتُ دائمًا مضاءة، سواء كانت مأهولة أو خالية، وحتى في ساعات نوم مستأجريها تظل أنوارها موقدة. كان شيئًا غريبا ولكن صاحب الحجرات كان له تبريره الخاص: «كي ترشد الغرباء في ليالي المدينة الحالكة التي لا يزور القمرُ سماءها إلا نادرا».

بالنسبة للأهالي، لم يكن أكثر من طاعنٍ غامض بعينين يزداد جحوظهما يوما بعد يوم لانقطاع النوم عنهما. منذ سنواتٍ طويلة لم يعد أحد يراه إلا جالسا على عتبة بنايته المشعة، يسرد حكايا طفولته التعسة، كي لا يفقد تاريخه الذي لم يعد يعرفه سواه.

يُقال إنه شيَّد هذه البناية التي بناها وحده حجرا حجرا، انتقاما لكبريائه فقط، فهو ليس من أبناء المدينة، وقد جاء منذ سنوات طويلة ليقضي مهمة كان من المفترض أن تستغرق يوما واحدا، غير أنها طالت، وطال

معهـا انتظـاره حتى أنه مكث عامـا كاملا بلا نوم، فقد توسّـل إلى جميع أهالـي المدينة أن يُسـمح لـه بليلة على سـرير، ولكن أحدا لم يسـتجب لتوسـلاته. رفـض الجميع اسـتضافته، فقـد كان الناس في هـذه المدينة يخافون الغرباء، ويرعبهم أن تتجول بين جدرانهم أحلامٌ قادمة من أسِرَّة أشخاص آخرين. من ناحيته، لم يكن الرجل يجيد النوم في الخلاء، فلم يكن قبل زيارته هذه قد نام خارج العتمة المُحكمة لدفء سريره.

مـن يومهـا عوَّد الرجل نفسـه ألا ينام أبـدا، لأنه اعتبـر النوم العدو الوحيـد الـذي هزمه وسـمح لدموع عينيـه بإغراق وجهه. صـار يكره الظلام، ويحلم مستيقظا، مفتوح العينين، مُشاهدا كائنات مناماته كمن يُحدق في كف يده.

هكذا قاطَع الرجل المدينة تماما، ولكي يتسـلى إلى أن يأتي موعد انتهاء مهمته، (التي لم يعرف أحد أبدا طبيعتها)، احتجز مساحةً منسية من الخلاء، وبدأ يشيِّد بساعديه حجراته المخصصة للغرباء، والتي لم يستفد هو منها في شيء. كان قد نسي النوم وانتهى الأمر.

يوما بعد الآخر يزداد عدد حجراته، حتى أصبح هو نفسه عاجزا عن تحديده بدقة، ويتضاءل أمله في إنهاء ماجاء من أجله، حتى هو نفسـه، نسـي مع مرور السـنوات وتراكم الغرف لِمَ جاء إلى هذه المدينة، كأن مهمتـه الحقيقـة كانت تلك المتاهـة من النوافذ التي يغـرق فيها النور، والتي شيَّدها بيدين من رماد.

صـار الضـوءُ المبهـر المنبعـث مـن حجراتـه يختـرق غـرف بيوت المدينـة، ويُقلق نوم الناس في أسِّـرتهم مهما أحكمـوا إطفاء الأنوار أو

إسـدال السـتائر، كأنه كان ضـوء انتقامه بالذات، والـذي جعل الأهالي يستيقظون على الدوام متعبين، بأحلام مشوشة وتعاسات ليلية لا تُحَد.

رغـم ذلـك لـم يجـرؤ أحد علـى الذهـاب إليـه أو مواجهتـه. كان الجميـع يخشـون صاحـب الحجـرات الـذي تحـاك حولـه حكاياتٌ مرعبة، وتَحكي عنه الأمهات لأطفالهن باعتباره مسـخا يأكل الأطفال في الظلام ويحوِّلهم إلى حِزمٍ من الضوء.

لـم يكـن أحد يعـرف أي كنز كان الرجـل يملكه، الكنـز الذي كان يغترف منه ليقيم حياته، والذي مكَّنه من تشييد كل هذه الحجرات غير المنتهية، خاصةً أنه كان يمنح نزلاءه مالا ليغويهم بإطالة إقامتهم، وكان أغلبهـم يرضخون لأنهم فقـراء جاءوا إلى هذه المدينـة بحثا عن مهن مُحتقرة يرفض الأهالي القيام بها. هكذا صار الغرباءُ الذين يقيمون في بناياته لا يغادرونها، وينسون، مثله بالضبط، ما جاءوا من أجله.

جميعهـم قبلوا النوم في غـرف مضاءة لا تُطفأ أنوارهـا أبدا، وكان هـذا هـو شـرطه الوحيـد أمـام عشـرات المميـزات السـخية، ولأنهم كانـوا فقراء، فلم يكن النـور والظلمة يمثلان لهم شـيئًا أكثر من لونين متناقضين. هكذا أُشـيع أن الرجـل يخلِّص زبائنه مـن حاجتهم للنوم، ليكتفـوا بأحلام اليقظـة مثله، وليواصلـوا حياتهم بحدقـات مفتوحة، وبأعيـن يـزداد جحوظهـا يوما بعد الآخـر، متحوِّلين، علـى مهل، إلى نسخٍ متطابقةٍ منه.

ظل صاحب الحجرات يكدس الغرباء مُحوِّلًا إياهم على نار يقظته الخفيضـة إلى نسـخٍ من أرقـه، وكأنه يصنـع مدينة موازية مـن الرجال

الذيـن لا ينامون. لم يكـن الغرباء يتجاوزون محيط البناية المسـتيقظة بدورها في بحر الضوء الذي جعل منها برمتها عينا هائلة مفتوحة على نـوم المدينة، حتى جـاءت الليلة التي فوجئ فيهـا الأهالي بالنور وهو ينشب مخالبه في ظلمتهم.

في تلـك الليلة فوجئ النـاس بجيش من الرجـال جاحظي الأعين يتحركـون صفـا واحدا في خطـوات منظمـة، بمارش رتيـب، يدكون الأرض بوقـع خطاهـم، ومن عيونهم تنطلق دفقـات ضوء يكفي النظر فيها للإصابة بالعمى.

بـدأ أصحـاب البيـوت يهربـون، ليحتـل الغربـاء جاحظـو الأعين البيـوت واحـدا بعد الآخر. القليلون الذين امتلكوا شـجاعة التمسـك بحوائطهـم كانوا يفاجأون بالغرباء يصوبون الضوء نحو كل شـيء إلى أن تشـتعل فيه النيران. ماهي إلا لحظات حتى كان الغرباء قد تقاسموا جميـع بيوت المدينة فيما بينهم، غير أن شـخصًا واحدا كان ينقصهم، هو صاحب الحجرات بالذات. لم يكن بينهم. عاد إلى وحدته الأولى بيـن حوائط غرف بنايتـه الهائلة، وفي ذلك اليوم فقـط، أطفأ كل أنوار حجراته، وأغمض عينيه لأول مرة منذ جاء إلى المدينة.

تنهي مدام شـهرزاد حكاية صاحب الحجرات التي لا تُطفأ أنوارها (العنوان لإمام وليس لها). قرأتها، حرفيا، من الذاكرة، حيث استعادت صفحة الجريدة وفتحتها أمام ذاكرتها.

تعود لتكمل سـيرها في الفناء، الذي كان القمر يضيؤه كأنما يعريه، تنحرف إلى مصعد خشبي بضلفتين، عتيق وضيق حتى أنها أحست أنه

بداخلها أكثر مما هي بداخله، سيضعها أمام باب حجرة الضحية. تفكر أنها نجت، أنها نجحت في مهمتها من قبل حتى أن تبدأ، طالما عبرت الفنـاء الموحش لذلك المكان المقبـض، وتُحكم من البالطو الأبيض حول جسدها وكأنه درعها الأخير في حرب.

تنظـر في مـرآة المصعـد ولا تخفض عينيهـا، كأنها تنتظـر منها أن تبادلها النظر. وجهها كما هو. لم يتغير عن الأمس، مثلما لم يتغيّر وجهُ الأمس عن أول أمس. سألت نفسها متى تشيخ إن كان اليوم لا يكشف التحـولات التـي حدثت في اليوم السـابق؟ إنها حتمـا تحدث لكننا لا نراهـا، ونبـدأ اكتشـافها عندمـا ينتبه الآخـرون لها ويصرخـون بها في وجوهنا. كانت تردد «لكم في القصاص..» فيما كان صوت آيةٍ أخرى يتكرر بلا نهاية لكن ليس من داخلها: «سـبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنا له مقرنين». مصعد سـخَّره الله لها لتقتل. وشعرت أن الآيتين معا، النابعة من داخلها والسـاقطة عليها من السـقف، تحرسـانها وتتحدان لطمأنتها حيال صورتها الجديدة، ملاك رحمة في طريقه لتفريغ جسد. ملَّسـت بيديهـا على طيات البالطـو، كأنها تعيد كيّـه براحتيها، بحرص عاهرة. لاحظَت اتسـاخا طفيفا من أثر يد طفل تشـبث بها لتشتري منه علبـة مناديـل بينما تقترب من البوابة. تمنـت الآن أن تقتل ذلك الطفل الذي لوّث بياضها بلون تعاسـته، وفكـرت، جادة، أنها لو وجدته لدى خروجها، فستنهي حياته.

رغـم أنهـا سـتصعد طابقـا واحدا، فقـد بدا لهـا المصعـد في تلك اللحظـة قطارا بطيئـا يعبر بمسـافرٍ وحيد بيـن مدينتين. أخيـرًا يتوقف

لتخطو خارجه وهي تبرطم لنفسها: «شتا مجرم». إنه ديسمبر، نوّة «قاسم» القاسية، والمطر الأكثر ملوحة، الذي يبدو عندما تتلقاه على لسانها كعادةٍ سيئةٍ من الطفولة، كأنما ينبع من البحر وليس السماء.

لو كان جميع المطلوبين متجمعين في دار العجائز هذه، لأنجزَت المهمة في ليلة واحدة وانتهى الأمر. لكن هذا المكان مسرح لموت رجل واحد. أحبطها ذلك، مثلما أحبطها أن يكون ذلك الرجل بالتحديد هو الهدف الأول، وقد بدا لها رمزيا أنها تقتل إله العجائز في المدينة، وكأن ما ستفعله هذه الليلة سيتسبب في لعنة، اجتياح أو وباء.

- وهذا بالفعل ما سيحدث..

عندما أخبرتها الست روزا (عندما أمرتها في الواقع) أنها ستبدأ بذلك الرجل، ارتجفت.

-كنت بطّلت اروح المكان ده من يوم ما خلّفت بنتي..

ينتبه العجوز، أو تتوهم أنه انتبه لدى ظهور ابنتها في الحكاية.

ذات مرة، تلك المرة التي لن تُنسى، دخلَت الدار وقت فُسحة العجائز. كانوا ينتشرون في الفناء تحت شمسٍ متوارية لشتاءٍ آخر بعيد، متفرقين على الدكك الرخامية وفي الممرات وتحت الأشجار العجوزة المعمرة وفوق العشب. كانوا عراةً تماما، يتشمسون في سلام أعضائهم الخامدة. كانت دائرةً فسيحةً، عشوائية ومسالمة، قطعتها شهرزاد -التي كانت وقتها الآنسة شهرزاد- من منتصفها

متجهـةً نحو المصعد لتمنح صاحـب الدار حقنة. لكن الدائرة بدأت تضيـق، بتواطـؤ عفـوي ودون اتفـاق مـن العجائـز الذيـن لا يعرف أحدهـم الآخـر، والقادمين من أمكنة لم يكن مـن الممكن أن تلتقي دون الشـيخوخة، بقايـا قصـور المدينـة وخرائبها معـا. اعتقدت في البدايـة أن قوس الدائرة الذي يدنـو ليُغلق عليها وليحاصرها محض تهيـؤات، وطمأنت نفسـها، عندما بدأت تهجس أن شـيئًا غير عادي يحـدث، أن لا أحد منهم قادر على فعل شـيء. لكن مع دنوّ الدائرة، وكأنمـا أصـدروا أوامر واعية، وجدت نفسـها محاصـرة بذكورهم، وقـد انتصبـت فجـأة فـي اللحظـة ذاتهـا، لتسـبقهم نحوهـا. نظرت لأعلـى، كأن وجـود غرفة مالك الـدار كافٍ لحمايتهـا، لكن لا أحد أطل، والعاملون بالمكان تبخروا، ربما انتهزوا فرصة الفسحة لينالوا قسطا من النوم. في لحظة صارت محاطة بالتحام القطيع الذي ذابت كنقطة في بحره.

-اغتصبوني واحد واحد.. وبعد تسـع شهور.. لما حتيجي بنتي.. حافضل لغاية ما اموت اشوف في وشها ملامح كل عجايز الدنيا..

تتنهد شـهرزاد، فتتجه نحو النافذة لتفتح فرجةً صغيرة، كأنها تطرد هواءً مستعملا.

- لمـا ده حصـل كنـت صغيـرة أوي.. مش حتصـدّق.. كنت بنت بنوت والله.. شُفت دمّي بيسقي التراب.

تجربها بالفصحى: «رأيتُ دم عذريتي يروي التراب»، ثم تنظر إليه كأنهـا تفاضل أمامه بين ردائيـن، لكنها تبدو راضيةً عن صيغتها العامية

التـي نطقتها بها. تلتفت نحوه وقد علـق ضوء الخارج بعينيها: فكّرت لمـا بدأت احـس بالحمل انـي عايزة الجنيـن ده.. وكنـت متأكدة انها حتكـون بنت. رحـت لصاحب الدار وقلت له البـت اللي حتيجي دي انـت ملزوم تدبر لها أب.. اداني اسـم راجل علشـان يبقى أبو البنت.. اخترته من بين شوية صور.

تقترب منه، وتهمس كمن ينطق بسر: إن هذا يعني أن ابنتي، بمعنى ما، تعرّت بعد ذلك لجميع آبائها.

تلتفت للعجوز وهي تشهر كفين بأصابع مقوسة كمحرك دمى: لو بإيديا كنت اقتل روزا دي بإيديا دول.. أقتلها هيا مش أي حد تاني.

تلتقط اسم الست روزا، كأنه ذكّرها بنفسه.

- اختارتنـي صاحبة منزل الجميـلات النائمات لهذه المهمة لأكثر مـن سـبب. كان الطُعم هو الانتقام، فأحد هؤلاء هـو من فعل بابنتي ما فعل. لكن السبب الحقيقي هو قدرتي على أن أقوم بمهمةٍ كهذه. كأنني المرأة التي تلد العجائز.. هل تعرف هذه الحكاية؟ حسنًا سأحكيها لك بالمرّة.

بعـد أن تُنهـي حكاية المـرأة التي تلـد العجائز، تقـول: روزا أيضًا كُلّفت بمهمة ذات يوم بعيد. كان عليها أن تؤديها.

كان ممتلئًا بحكاية المرأة التي تلد العجائز حتى أنه لم يبد شغوفا بإكمال حكاية روزا الكبيرة وروزا الصغيرة مع منزل الجميلات ولا بأية حكاية أخرى من التي جاءت شهرزاد لترويها. شعر أنها أجمل

حكاية حكتها حتى الآن، حتى أنه تمنى لو كانت حكايتها الأخيرة. كانت حكاية مكتملة كالموت.

لا يبدو أن العجوز يملك تعليقا، لكنها تجدها فرصة مناسبة لتحكي لنفسها حكاية بينما تتظاهر أنها تمنحه الوقت ليفكر في إجابة. إنها حكاية الطفلة التي رسمت وجوه جميع آبائها. تقول شهرزاد الحكاءة لشهرزاد المستمعة: عنوان غريب مش كده؟ فتبتسم الأخرى.

ذات يوم سألت الطفلةُ أمها عن معنى جملة قالتها المُدرّسة في الفصل. «قالت إن اللي بنحبهم مش بيموتوا لإنهم عايشين جوّانا». قالت لها شهرزاد: «الناس بيعيشوا هنا» وأشارت لرأسها، لكن الطفلة صححت لها: «لأ.. الناس بيعيشوا هنا»، بينما تضع كفا على موضع القلب.

فكرت مدام شهرزاد في عبارة المدرّسة وفي سؤال ابنتها، وأخبرتها أن أي أحد إذا استحضرناه يمكن أن يعود للحياة. لم تكن تعرف أنها في ذلك اليوم منحت طفلتها المادة اللازمة كي تخلق أبا. بعدها بدأت الطفلة ترسم أباها المتخيل، وتسبب غياب أي صورة له في أن تتخيل ملامحه بحرية إذ لم تسأل أمها أبدا عن شكله.

تقول شهرزاد لشهرزاد: ذات يوم رسمته بالرصاص وفرجتني على الرسم، أخفيتُ ذهولي بصعوبة، لقد كان واحدا من العجائز الذين تناوبوا عليّ، لقد منحتني إجابة، لأنني ظللت أفكر، من منهم نجح منيه في تلقيحي. رسمته رغم أنها لم تكن تحمل شيئًا حتى من ملامحه، هي التي جاءت نسخةً مني جسَّدته وكأنها كانت إلى جواري في تلك

الظهيرة. لكن تلك لم تكن نهاية المغامرة، فما لبثت الطفلة أن مسحته، ورسمت عجوزا آخر، كان أيضًا واحدًا ممن اغتصبوني. ستظل تفعل الشيء نفسه، تمحو أبا كل ليل لتخلق آخر مع كل صباح، على نفس الورقة، ودائما كانت تنجح في استحضار وجه عجوز يمكن بالفعل أن يكون أباها. عندما أنهتهم، رسمت طفلا، وتركته يكبر، كانت تعدّل ملامحه في الرسمة ذاتها، بالممحاة نفسها التي راحت تتضاءل وتشيخ كلما شاخ هو. كان هو الرجل الذي حملت اسمه دون أن يكون أباها، الرجل الذي باعه لي صاحب دار المسنين لتحصل الطفلة على أبٍ في الأوراق الرسمية. ظل الرجل يكبر، كأنها صارت إلهته لا طفلته، حتى جاء يومٌ أغلقت فيه باب حجرتها، انخرطت في بكاءٍ معذب وصامت، ثم فتحت درجًا، وارت أباها فيه ولم تفتحه ثانيةً أبدا.

بعد سنوات، ستفتح شهرزاد الدرج، ولن تجد غير التراب.

تخشى أن حكايتها لنفسها استغرقت وقتا، فتلتفت للعجوز، لا يبدو أنه استشعر ضجرا لصمتها، كأنه يعرف أنها تُخبر نفسها بشيء. كانت تعرف أنه لا يزال يتأمل حكاية المرأة التي تلد العجائز، وكانت تعرف أنها أفضل حكاياتها.

تقرر إعادته لسلطتها، فتحدثه عن كتاب غريب رشحه لها «الرملي».

- كان عبارة عن رواية كُتبت فيها صفحة واحدة هي الصفحة الأولى وتُرِكت بقية صفحاتها خالية. أخبرني الرملي، الذي كان يعرف بعض كُتّاب القاهرة بشكلٍ شخصي، أن الناشر رفض نشر

الروايـة، (وكان ناشـرا مثقفا، ناشـرا فـردا وليس تاجر لـب) لأنه رأى أن الصفحـة الأولى في رواية كاتبه كفيلـة بجعل جميع القراء يكملون الروايـة مثل بعضهم البعـض بمجرد قراءة صفحة واحـدة منها، وكان ذلك الناشـر الفرد يحـب الكُتّاب الأذكياء الذيـن يخلقون بنصوصهم المفتوحة قراءً أذكياء يعيدون إنتاج النص. تزيّد الناشر فراهن المؤلف أن جميـع القـراء لو أكملوا كتابة الرواية اسـتنادا إلـى صفحتها الأولى فسيكتبون الرواية نفسها، دون تغيير في كلمة أو عبارة أو حتى فاصلة، وعلى اختلاف ثقافاتهم ومستوياتهم اللغوية وعلاقتهم بالأدب وأنواع خطوطهم وأحجامها.

بتعالـي الروائيـن المصريين، بتـوع القاهرة بالذات، قـال الروائي للناشر الفرد: «خلاص انشرها فاضية».

كان الناشـرُ مغامرا. لكنه كان، كجميع الناشـرين، تاجرا أيضًا حتى لو كان ناشـرا فـردا، ويعـرف أن كتابا أوراقـه بيضاء بهذا السـعر أرخص من كشكول دراسي وبالتالي فنفاده مضمون حتى لو اشترته أمهات لأطفالهن بعـد تمزيـق الصفحة الأولى. كان يعـرف أيضًا أن عدد الكُتّـاب في البلد أكبر من عدد القراء، بالتالي فصدور كتاب يجعل الجميع كُتّابا لهو أجدى بكثير من تلك الكتب التي تتكدس عبثا لتجعل من الناس قراءً.

أصـدر الناشـر الروايـة ذات الصفحـة الواحـدة فـي ألـف نسـخة مضطـرا، فقد كان يحـب تعبير «طبعة محـدودة»، بزهـده وتعاليه، في الصفحـات الداخليـة لكتبه. ونشـر إعلانـا صغيرًا بصفحـة الثقافة في الصحف الثلاث يطالب فيه كل من يكمل كتابة نسـخة بإرسالها للدار

حيث ستُعقد مسابقة لتحديد أي النسخ أقرب لرواية المؤلف الأصلية والتي لا تزال مخطوطا في أدراج الدار. قال الناشر إن أقرب النسخ لمخطوط المؤلف ستُنشر مكتملة باسم صاحبها وستُرشح للبوكر، خاصةً وأن الرواية الخالية كانت من فئة الكعب.

انتظر الناشر ليرى النتيجة ولو في نسختين من الرواية، ففضلا عن كون جميع الناشرين تجارا، فجميعهم أيضًا فضوليون. لكن الذهول كاد يودي بالناشر الفرد حين عادت إليه الألف نسخة ممتلئة، وفي وقتٍ قياسي. جميع النسخ كانت، لذهوله، متطابقة، كأن قارئا واحدا هو من أكملها جميعا. حتى نسختي (تقول شهرزاد) كانت متطابقة مع بقية النسخ. لم يفز أحد القراء بالطبع، لأنهم جميعهم كتبوا النص نفسه. لكن الناشر راضاهم بإعادة طرح النسخ الألف بخطوط يدهم الألف، وكما يحدث دائمًا في مصر، اشترى كل كاتب نسخته.

المفاجأة أن الفائز كان هو المؤلف، لأنه الوحيد الذي أكمل روايته بطريقةٍ مختلفة، وهكذا تمكّن أخيرًا من نشر روايةٍ مكتملة.

- قلتُ لك في الليلة الفائتة إن روزا الكبيرة استيقظت ذات صباح مقررةً أن تنفذ قرارها بطرد الفتاة النائمة، عندما حدث ما سيقلب حياة روزا الصغيرة والبيت بأكمله رأسا على عقب..

فجأة، طرق شخصٌ باب البيت. ما إن فتح له القواد الباب متحسسا مسدسه، حتى رأت روزا الكبيرة عجوزا غريبا، يتأبط كتبا بدت ملتصقةً بإبطه، ويبرز من جيبه قلم حبر ترك بقعةً داكنةً على الجيب بدت لها أثر جريمة. كان شعره القطني يشير إلى عجوزٍ مكتمل، لكنه

بدا طفلا شاخ فجأة. كان يتأبط كتبًا، وكاد القوَّاد يصرفه هاجسًا أنه جاء للمكان الخطأ، لكنه عبرهما إلى الداخل منسلا بخفة وكأنه غير مرئي. لم يكن هذا كل شيء. كان ثمة شيء ما غير حقيقي في هيئته يشير لحياة أخرى تحيا تحت الملابس، كأن يدًا ما اقتلعته من زمنه وزجت به في زمن آخر. أجال نظره في البيت مثل ضابط، كأنه جاء ليسترد شيئًا نسيه، شيئًا يكمن بداخله ولا وجود له في هذه الغرف.

كانت روزا الكبيرة تُدخل بناتها غرفهن بدءا من السابعة مساءً بعد أن تُشرف بنفسها على إعدادهن، وعندما يجيء زبون، تفتح له الغرف بالتوالي إلى أن يشير لواحدة، لتغلق باب الغرفة وراءه. لكن اليد الواثقة لذلك العجوز أوقفت رسغ روزا الكبيرة بينما تهم بإدارة مقبض باب أول غرفة، وحيث سمعت صوته للمرة الأولى والأخيرة: أنا عاوز أوضة البت النايمة.

تتنهد شهرزاد، بينما تتجسد أمامها روزا الصغيرة وهي تستقبل أخيرًا عجوزا جديدًا بعد أيامٍ من التبطل الإجباري تسببت فيه سمعتها المريبة.

داخل الغرفة وضع كتبه على الكومودينو الصغير بجوار السرير، وتمدد إلى جوارها دون أن يخلع ملابسه أو يتخفف حتى من كوفية الشتاء التي أخفت ذقنه. كانت هذه هي اللحظة التي تُغمض فيها روزا الصغيرة عينيها عادةً ولا تستيقظ إلا في اليوم التالي. لكن النوم، ولأول مرة، خاصمها بدخول ذلك الشخص، كأنه جاء بلعنة جميع المستيقظين. ولكي تتحاشى رعب ما سيحدث وهي مستيقظة،

أغمضــت عينيهــا، متصنعةً النــوم. غير أن العجوز كان أكثـر كرما منها. لم يخلع ملابســه، فقط رفع قميصه لأعلـى ليُخرج رزمة أوراق مخبأة. لـم يلمـس الفتاة النائمـة. اكتفى بالتمـدد بالقرب منها، تلمَّس شـعرها وأنفاسـها، وظل يتأملها كقـط، وكأن نومها هو بالضبـط ما جاء يبحث عنه.

بدأ يكتب شـيئًا، وكان يلقي نحوها نظرة ثم يعود ليكتب، حتى أنها ظنت في نظراتها المختلسـة له بعينيها المواربتين أنه يرسـمها. بعد أن انتهـى، دس الأوراق مـن جديد تحت قميصه ونـام على ظهره، حيث نهضت روزا الصغيرة وبدأت تتأمله عن قرب، مسـتغربةً ذلك العجوز الـذي جـاء ليثبت أنه يمكـن أن يدخل هـذا البيت شـخص أكثر غرابة منها.

عنـد انصرافـه منـح روزا الكبيرة مبلغـا إضافيا فـاق توقعها. يومها دخلت روزا الكبيرة عليها وقد عاد الدم لوجهها حتى أن روزا الصغيرة أحست كما لو أنها ستبلغها أن ابنها نجا من الحرب. لم تكن تعرف هل تكمـل تمثيلية النوم أم تصارح قوادتها أن النوم جافاها لأول مرة. لكن القوادة كانت أذكى منها، قالت بخبطة سريعة وموجعة على مؤخرتها: قومي ماهو مش ممكن يكون دفع كل ده علشان عجبه شخيرك.

كان ثمة شيء غامض استشعرته القوادة ولـم تسـأل عنه الفتاة العذراء التـي حصلت أخيرًا على ثمن بكارتها، شـيء ضاعفـه امتناع النوم عن الفتـاة لأول مرة، وداراه المال الـذي قبضته في ركنٍ بعيد من وجدانها المتشكك كجزء ضروري من مهنتها.

تتنهد شـهرزاد: بعد أيام سـتقول روزا الكبيرة لروزا الصغيرة مثلما قالـت روزا الصغيـرة لابنتي بعد سـنواتٍ طويلة: الراجـل اتصل تاني وطالبِك بالاسم.. الليلادي.

منزل النائمات

(الفصل الرابع)

عندما يعود للمرة الثالثة سأدركُ بشكلٍ غامض أنه أصبح رجلي الدائم، الأدق: رجلي الحقيقي وقد باتَ الآخرون ظلالا شاحبةً لجسده. كان ذلك يعني أنني صرتُ بالمقابل، بمعنى ما، امرأته.

كالمرتين السابقتين اتصل في اللحظة الأخيرة، رغم تنبيه الست روزا أن يبلغها قبلها بيومين أو ثلاثة، لتستطيع «تنظيم جدولها» و«تجهيز البِت»، لكنه لم يفعل. من جانبها لم تجرؤ على إخباره أن ما تعنيه بـ«تنظيم الجدول» يخص نومي لعجائز آخرين، كأنها بدورها بدأت تتعامل معي كامرأةٍ تخون رجلها في الظلام.

في الغالب كان يقرر في لحظة، ودون استعداد مسبق، ربما بسبب الإلهام الذي وصَّفه ذات مرة للست روزا قائلا: «الإلهام ما بيديش إنذار»، الإلهام الذي كان يباغته فيدفعه لارتداء ملابسه على عجل، وكأن الصفحة الحقيقية التي يكتب عليها روايته كانت جسدي.

اكتفى بي. على الأغلب كان يحتاج فتاة بعينها لتكون «موديل» لروايته، وكنت أنا هذا الموديل المثالي، صورة بلا روح أو صوت،

قادرة على تحفيز خيال كاتبٍ طمح دائمًا أن يكون كتابه الأول هو كتابه الأخير، ليدخل إلى غرفةٍ لا تتبدل، حيث فتاة لا تتبدل، وقد جلب معه غروب العالم، يضعه على طاولته، مشيرًا، مع كل كلمةٍ جديدةٍ يُدوّنها، لغروبه الشخصي.

رغم ذلك، يبدو أن الست روزا أبت أن تخرج عن اتفاقها المذعن معه دون ربح جديد، حتى لو كان رمزيا. ففي اليوم التالي لليلته الثانية معي وجدتُ دراجة جديدة مربوطة بحديد البوابة، خفيفة كحيوان مفترس فقد وزنه. ستخبرني أنه جلبها لي لأذهب وأعود بها من العمل أسرع. كانت دراجة سباق، متنوعة السرعات، تأملتها وأنا أفكر أي سباق صرت فيه وأي خصمٍ يجب أن أتجاوزه لأصل أولا؟ لم أكن أعرف، حتى لو تقّدمت جميع من يركضون في العالم، أين سأصل؟

كانت دراجتي بطيئة، دراجة للتنزه وليس للوصول، وبسبب ذلك اضطررتُ أكثر من مرة أن أتركها في فناء المصنع وأستقل تاكسيا ينزلني عند أقرب نقطة لمنزل الست روزا، وكان ذلك يحدث عندما يقرر عجوز في آخر لحظة تبكير مجيئه، وتأمرني الست روزا: «اتصرّفي في مواصلة بس ما تنزليش قدام البيت».

ذات مرة، قال لي سائق تاكسي وهو يتأملني لحظة نزولي «بس انتي لسه صغيرة أوي على شغل الست روزا». ألهذه الدرجة كان البيت، الذي يفترض أن يكون سريًا، معروفًا لدى سائق شاب؟ لم تُبدِ الست روزا ارتباكا عندما أخبرتها بما قاله، علّقت مستسلمة: ما خلاص خلّو لنا اسكندرية قرية.

هكذا بدأتُ أتعامل مع الدراجة الجديدة، شعرتُ فوقها أنني أكثر خفة وهشاشة، كانت هي من تقودني، حتى أنني بتُّ أشعر بينما أتقدم بها في الشوارع (دائمًا في شوارع المدينة الخلفية، وكأنني إن خرجت بها للكورنيش سيسحبني البحر) أنني أقطع مدينةً من الريح.

بالمقابل أدخلت الست روزا دراجتي القديمة غرفة البروفة، وكان هذا يعني أنها انتهت.

لكن لماذا يحظى هذا العجوز بالذات بهذا النوع من التدليل؟ هل هو أكثر أهمية أو سلطة من رجال آخرين يترددون على هذا المنزل ولا ينجح حتى عريُهم الكامل في إزاحتهم عن عروشهم؟

من جديد أسأل نفسي، السؤال الذي لفرط ما كررته فقد بريقه: لماذا كذبتُ عليها؟ هل انتظارا لإكمال الحكاية؟ وأي شغف كنت أريد به أن يستكمل لي شخص آخر حكاية أعيشها معه؟ هل يبدأ الحب هكذا؟ بكذبة ننقذ بها حياة شخص آخر لكي نموت نحن؟ أي حب؟ كان فضلًا عن عجزه، ومثلما وصف هو نفسه في أوراقه، دميما. ربما عندي إجابة غامضة وغير محكمة، فالمرأة لا تخون أبدا أول شخص رآها عارية.

تملك الست روزا جانبا من الحكاية، تملك ما أمليته عليها وقد حذفتُ منه ما يتعلق برجولة العجوز. لكنها لم تفتح فمها في مرة إلا لتفرغ واحدةً جديدة من عباراتها الناشفة، الآمرة والمقتضبة.

كان عليّ أن أنتزع نفسي من هذه الأفكار مع الهمهمة الأخيرة للعجوز رفقة الست روزا قبل أن تمد رأسها، كالعادة، لتراني مغمضة

أو لتنبهني لإغماض عيني، لتدلف ساقه، كأنها دائمًا تسبق جسده بخطوة، لتضعه في لحظة على حافة فراشي.

وجهَت له عبارة واحدة قبل أن يدخل، لم أفهم (وربما لم يفهم هو أيضا) إن كانت تحذيرًا أم توسّلا.

- خد بالك دي تالت مرة تطلب نفس البت..

تنبيه مثل قنبلة خامدة. كان من الواضح أن الست روزا لا تملك حياله سوى التحذيرات التي لوّنها صوتُ التضرعات. في المدينة حفنة من العجائز لا يجوز لامرأة في وضعية الست روزا أن تغضبهم، ربما لذلك كانت تقتلهم مباشرةً إذا ما خدشوا الحدود الواهية لبقائها حيّة. كانت تُصفّيهم اتقاءً لغضبهم وليس فقط تعبيرًا عن غضبها، وكأنها وصلت لاتفاق مريح مع الموت نفسه. إنها شبح سري، يتجسد فقط لمن يريده، لكن التقاطه في لحظة مثل ذبابة في كوب لن يكون بالأمر الصعب لمثل هؤلاء الرجال الذين يبقون خطرين، حتى لو فقدوا ذكورتهم، حتى لو بدوا أليفين أغلب الوقت ومتسامحين مع كلماتها المنفلتة أثناء تعديلهم المبالَغ فيه لملابسهم بعد مضاجعةٍ لم تحدث.

لقد فقدوا سلطة الطبيعة التي كانت تجعل منهم رجالا في الأسرّة، لكن أيديهم المرتعشة لم تفقد بعد قدرتها على استخدام السوط. إنهم رجال سلطة، حتى لو تخلوا عن سياطهم لجلادين جدد، يستقبلون الهواء خارج مكاتبهم، دائمًا في اللحظة التي لا يعود مطلوبا فيها من الناس أن يفعلوا شيئًا ليصيروا ضحايا. وكجميع رجال السلطة، فأُلفتهم

أشبه بحيوان مفترس فقد ذاكرته. دخل هذا المنزل محافظون متقاعدون، ومن بعدهم موظفو المحافظة الغاربون، ومتقاعدو المجلس المحلي مصبوغو الشوارب، ومأمورو أقسام شرطة لا تزال أيديهم تؤلمهم من أثر توجيه الصفعات، وإجمالا كل رجال السلطة في المدينة، الذين كانوا يعرفون أخبار البلاد من الصحف ونشرات الأخبار مثل أي شخص آخر، وفي الوقت نفسه، ينظرون للقاهرة باعتبارها عاصمة بلد آخر، مدينة لا تربطها بشوارع الغرق الذاهبة للبحر هذه سوى الحدود الواهية التي رسمها قلمٌ مرتعش على أنقاض خريطة.

هذا البيتُ الغارق في سبات ساكنيه، طالما وفّرَ منصبا تقاعديا لا تعوزه الملابس ولا قوة الجسد لكل من شاخوا قبل مقاعدهم، منصبا يحتاج فقط سريرًا استسلمت له روحٌ مخدرة، لتصبح فتاة عزلاء نائمة رعيةً كاملة. كأن طموح السلطة الأخير عندما تتجرد من أسلحتها، أن تعثر على مكانٍ مظلم حيث يمكنها أن تحلم.

ما من سلطة غاربة فشلت في أن تعثر لنفسها على عزاءٍ هنا، مكافأة نهاية خدمة حيث تتقاعد فوق هذه الأَسرّة بجوار فتيات لم يخرجن بالكامل من الأرحام التي لفظتهن، بقي جزء من أجسادهن هناك، في أحشاء النساء اللائي ما زلن يصرخن، موسّعات بين سيقانهن، لكي يتخلصن من الحياة التي تتململ في فروجهن، لتولد بالضبط من حيث دخل الرجال الذين قتلوا كل شيء.

ربما كان «عجوزي» واحدا من هؤلاء الأشباح الذين تنعكس صورهم على بحر المدينة، تغرق بعد قليل، غير أنها تعود لتطفو

فـي الصباح التالي، منتفخة وثقيلة مثل أشـد الجثـث إنكارا للأعماق. سأعرفُ بعد ذلك أنه كان صحفيًا في جريدةٍ محليَّة، كافأته بعد سنوات من الأخبار غير المؤثرة بعامود صحفي في الصفحة نفسـها التي تُنشـر فيهـا أخبـاره، الصفحـة التـي لا يقرأهـا أحـد. لكـن عاموده هـذا كان يُقص بأيدي المسـاعدين والسـكرتيرات، ليوضـع على مكاتب رجال السـلطات المحلية، الذين لم يكـن ليتورع عن ابتزازهـم إن تعرض لما يقض أمانه في سبات شيخوخته التي امتدت بأكثر مما حلم هو.

أراد أن يكون شاعرا ذات يوم، وانتهى به الأمر كجميع من يقررون أن يصيروا شعراء رغم أنف الحياة واللغة معًا، وحيدًا في بيتٍ يكتظ بكل كتب العالم ولا ينقصه سوى الكلمات التي لن يكتبها أبدا.

مثل المرتين الفائتتين، سيشاركني نفس الغرفة، وكأنها في طريقها لتصبح بيتنا المشترك.

لقد جلب معه بالفعل ما يأتي به الرجالُ عادةً عندما يقررون لمكانٍ ما أن يصبح بيتا لهم. وضع فازة ورود طبيعية على الكومودينو، سيحرص مع كل زيارةٍ على تجديدها، جلب مروحةً مثل قزمٍ يحرك رأسه الكبير يمينا ويسارا، وثبّت جرامافون عتيقا في ركن، صفّ بجانبه اسطوانات الموسيقى الغاربة لأزمنته، جلب راديو صغيرًا ظل يتنقل بين ضوضاء محطاته إلى أن ضبط مؤشره على إذاعة الإسكندرية ثم أغلق زرّ الصوت، ورصّ المزيد من الكتب المغبرة فوق سابقتها حتى صارت تُشكّل عمودا نحيلا عند التقاء حائطين.

فعل ذلك قبل حتى أن يخلع ملابسه، ويبدو أن هذه المهام الصغيرة أجهدته، لأنه عندما أعطاني ظهره أخيرًا ليتعرّى، كانت نقاط عرقٍ لامعة وثابتة تتلألأ على صفحة جسده. هذه المرة غيّر من طراز ملابسه التي اكتست فجأة بألوان الشباب الساخنة. بدت عندما تركها على المشجب مرتبكةً بينما تكاد تنسكب، مؤذنةً بترجمة تنافرها اللوني إلى شيء ملموس على بلاط الغرفة.

مثل المرتين الفائتتين، أخرج رزمة الأوراق وبدأ يراجع حفنةً منها كمن يتأكدُ من صحة إجاباته قبل مغادرة اختبار، وكان كل عدة لحظات يمسح عليها بيده كأن تلك الأوراق هي الصورة الأعمق لعريه.

لقد كتب شيئًا جديدا. بدأ يقرأ لي بصوتٍ عالٍ بعد أن أنهى مراجعته الصامتة، لكنه هذه المرة لم يكن جالسًا مثلما فعل في المرتين السابقتين، بل أخذ يتجوّل في الحجرة ويتحرك حول سريري جيئة وذهابا، ملهَما، كأنه يخاطب حشده. يبدو أن سلاما ما وجد أخيرًا طريقه لقلبه الذي خاض كل الحروب وخرج ناجيا بمعجزة تشبه معجزة بقائه حيا.

عندما انتهى وضع الأوراق واقترب من أذني. نطق اسمي عدة مرات بينما يتأمل عضلات وجهي بعدسة حدسه المكبرة، وكان أدنى تغيُّر عفوي يطرأ على ملامحي كفيلا بأن يثير فيه انفعالا فائضا.

سألني في أذني، بطريقة طفل: «مش عايزة انتي تعرفي اسمي؟» صمتَ قليلًا، وابتعد مراقبا رجفة فمي، كأنه ينتظر إجابة، ثم، وكأنه أدرك أخيرًا عبث ما يفعل مع فتاةٍ لن تستيقظ، عاد وقال في أذني وقد أحاط فمه بكفيه، كأنه سينطق بسر: اسمي جبريل. صمت مجددا، ومن جديد عاد يتأمل وجهي، هذه المرة ليرى رد فعلي. يبدو أن الذهول الذي عبر أعماقي كومضة رعد في نوّة قد ترجم نفسه لتعبيرِ ما فوق وجهي ليس بوسعي أن أصفه، تعبير بدا له حافزا لمواصلة الحياة، قبل أن يقترب من جديد، وكأن أذني باب بيته: «وبيدلّعوني يقولوا لي يا جابو».

في لحظة نظر في ساعته، التي لم يكن يخلعها حتى وهو مكتمل العري، أنهى صمت الراديو الخشبي، لينطلق الصوت الأليف لمذيع أعرف «حِسّه» ولا أعرف اسمه، كان يقرأ مقالا كتبه جبريل في الجريدة،

موضوعه الحب. أخبرني أثناء التتر القصير أن ذلك المذيع سيقرأ أسبوعيا مقاله والذي سيكون موضوعه، مرةً بعد مرة، «حكايتنا».

قبل أن يعود المذيع لقراءة المقال الذي قطعه التتر، حدثني عن القط الذي قدمته له زميلة كهدية مع كتالوج، والذي حوّل حياته إلى جحيم. توسلتُ إليه في أعماقي لو يستطيع جلبه هنا. في هذه اللحظة أجاب:

- حاضر.. بس روزا توافق.

هل أتى هذه المرة ليكتب الفصل الثالث؟ متى ستنتهي هذه القصة؟ وأي شيء عليّ أن أفعله لأمده في كل مرة بعنصرٍ جديد يُكمل به حكايته؟ كيف أطيلُ عمر حكايته؟ هل يُشبع النوم إلهاما؟ هل يكفي سكون جسدٍ ما لتحريك حكاية أو لقذف حجر في بحيرة راكدة من الأوصاف؟

إنه مخدوع، لا يعرف أنني أيضًا أراه، أنه عندما ينام أستيقظ أنا ونتبادل الأدوار. أتأمل جسده، وأفكر في فصل جديد من روايتي التي أبنيها بمواد اليقظة حيث سأدوِّنها يومًا ما بلغة النوم.

ربما هذه هي القصة المثالية، القصة المثيرة، التي يجب أن يكتبها: قصة فتاة تتصنع النوم مستبدلةً رغبتها في القتل برغبتها في الكتابة. بل إن الأجدى، ليهرب من تقليد العجوزين السابقين، أن يكتب الحكاية على لسان تلك الفتاة ويجعلها تدور بالكامل من وجهة نظرها.

لكن كيف يكتبها وهو لا يعرف عنها شيئا؟ ولماذا لا يتخيل ما لم يحدث (ولن أقول ما حدث) لماذا لا يفترض حدوث ما لم يقع، ولن أقول ما يستحيل أن يقع؟ ألا يجوز أن نكتب سوى ما يمنحه الواقع جواز مروره، العام والروتيني؟ أليس من حق الحياة أن يقبض عليها شخصٌ ما، ينحني عليها كمن يعثر على قطعة عملة تحت قدميه، ليحوِّلها إلى كذبة؟

ما المطلوب منه أكثر من أن يلتفت، يستدير على عقبيه للحظة ويلقي نظرةً إلى الخلف، ليرى عالمه يركض نحوه وكأنه كلبه الأليف؟ لكن الكلاب أيضًا يمكن أن تصير مفترسة إن نحن التفتنا لنلقي عليها نظرة.

تذكرت أنني تعرضتُ لعضة كلب. كنت خارجة من مصنع الملابس، ألعب بالأزرار الزائدة كما هي عادتي. دائمًا كان هناك كلب عند ناصية الشارع، في الزاوية التي أنحرف عندها ليختفي أفق المصنع. توحي العبارة أنني أقصد كلبا بعينه، لكنني لا أقصد ذلك. دائمًا كان هناك كلب مختلف، لكن يؤدي الوظيفة نفسها، وكأنه جزء من مشهد يتحتم أن يتكرر باختلاف بطله.

كل يوم، وقبل انحرافي عن الشارع، كنت أتوقف أمام الكلب الجديد، مختارةً أن أقذف زرا في الهواء وأتركه يقفز ليلتقطه. كانت لحظات مرحة، تنتهي بعبوري الهمهمة الخفيفة للحيوان. كل يوم كنت أغيّر لون الزر مثلما يغير الكلب من نفسه. لم ألتفت خلفي يوما بعد عبوري، لكنني ذات يوم، وبعد أن أنهيت العرض الخفيف، فكرتُ أن ألتفت لأرى ماذا يفعل الكلب بالزر بعد أن أغادر. في تلك اللحظة التقت عينانا. نسي أنني من منحته الزر، وربما خشي أن تكون نظرتي تعني أنني سأعود لأسترده. في هذه اللحظة هجم عليّ بقفزة رشيقة يظللها عواءٌ مسعور، وفي لمح البصر كانت كل الكلاب التي لم تظهر أبدا مجتمعة قد أصبحت قطيعا برز من العدم ليتّحد أمام الخطر. كلها حضرت في لحظة، عينا كل منها بلون الزر الذي لاعبته به، سيل ألوان محدقة.

ركضوا خلفي، وطالني أحدهم، عقر ساقي، وفي هذه اللحظة لم يحاول الباقون إكمال اللعبة. استداروا بسرعة، لكنهم ما إن فعلوا ذلك حتى وجدوا سرب كلاب آخر، جاء ليعقرهم هم، وكأنه جاء لإنقاذي. حدث ذلك لأنهم بدورهم التفتوا، وهكذا، لا يعود شخص لمكان غادره إلا ليصبح ضحية لأشباحه. في ذلك اليوم فهمت أن من يستدير ليرى أثر فعلته، لن يحصل سوى على طعنة، من الشخص الذي كان يبتسم له بالذات.

ربما يأتي العجائز لفتاة شابة لكي لا يلتفتوا للخلف، لكي لا تعقرهم كلاب ماضيهم المتجمعة على نواصي الأزمنة التي عبروها ولا يجب أن يعودوا إليها. إنهم بهذه الطريقة يتحركون في هذا المنزل، مجبرين، للأمام، من حيث يهيأ لهم أنهم جاءوا لكي يتذكروا، لكي ينظروا إلى الخلف، وقد وجدوا أخيرًا طريقةً متجسدةً يصبح المستقبل بموجبها زمنا في المتناول.

ماذا لو التفت «جبريل» في لحظة مفتوح العينين؟ كان يجب أن تستقر الرصاصة في جسده في المرة الأولى، وأغادر، وكانت لديّ حجتي، فهو ليس عاجزا. لكنني، مرةً بعد مرة، كنت أترك له شيئًا للهوه فيما أنحرف مودعةً شارعه، مُرجِئةً اللحظة التي سألتفت فيها، لينتهي كلُّ شيء.

ما الذي تغيّر في عريه هذه المرة؟ فكّرتُ بينما أتفقّد جسده النائم للمرة الثالثة كمن يتجوّل في مدينة محطمة. هل تمنح معرفة الاسم فارقا عند تأمل الجسد؟ ثمة ما تغيّر، غير أنه، ككل تغيّر حقيقي، لا يكشف نفسه للعينين، إذ يتطلب لكي يتجسد أن نراه من الداخل.

ناديته باسمه، ثم باسم تدليله. ورأيت رجفةً خافتة تعبر وجهه، تماما كالرجفة التي منحتها أنا له عندما نطق اسمي.

كيف يمكن أن يكون شكله في شبابه؟ فكرت لأول مرة، مستغربة نفسي، وبدأت أتحسس ملامحه كأنني أتخيلها على صفحة وجه أخرى، مستويةً ومفرودة. الملامح لا تشيخ، هي فقط تُحاط أكثر فأكثر بضوضاء الزمن وتُحاصر بركام الوقائع التي تجعل من وجه طفلٍ قناعا لشيخوخته. نظرتُ نحو ملابسه. ربما يحتفظ فيها بصورة قديمة. كان يعلق القميص والبنطلون والمعطف على مشجب واحد، وبترتيب وضعها فوق جسمه، بحيث تبدو ملابسه رجلًا مكتملًا غادره جسدُه.

لا شيء في جيوبه، وفي محفظته عدد من الكروت المهترئة التي بالتأكيد مات أصحابها. كانت ثمة صورة لامرأة. ترتدي قرطا. نفس القرط الذي أرتديه. وحول معصمها نفس الإسورة التي تحيط بمعصمي، والحلق الذي ترتديه، كان يتدلى من أذنيّ الآن. مع صوت اهتزاز الحلي الواقعي كنت أسمع ترجيع صداها في زمن آخر، زمن بعيد بدا صداه أكثر حدة من صوت الحاضر.

شـعرتُ في لحظة أنني محبوسـة في صورته. أننـي تلك المرأة في شـبابها، رغـم أنني عمليـا يجب أن أكون مسـتقبلها. هل هـي أمه؟ لا تشبهه، لكن الرجال عادة، لسببٍ ما، لا يرثون ملامح أمهاتهم.

في لحظة بدا لي أن هذه الشـابة يمكن أيضًا أن تكون السـت روزا. ثم شـعرت أنها يمكن أيضًا أن تكون أمي. بعد لحظات وصلتُ لفكرة أن هذه الصورة هي صورة كل امرأة مدفونة في ماضيها.

ثمة كارت، عليه اسـمه، وكلمة «صحفي»، واسم جريدة سكندرية يعلـوه فنـار. لـم أتخيل أن له اسـم أب أو لقبـا. إنه جبريـل فقط، حتى «جابو»، اسـم تدليله، بدا لي ينتمي لحروف اسـمه فيما يخص شخصًا آخر، يليق به أن يكون اسما لطفلِه، أو لقبا لكاتبٍ أكثر شهرة.

أعدتُ الصورة إلى مكانها، وعدتُ إلى السـرير، يتيمةً كما لم أكن من قبل. كنتُ أشعر أنني ودّعتُ صورة قديمة لي، وأن جسدي كله في هذه اللحظة أصبح، وللأبد، صورةً منسية في جيب معطف.

فـورَ مغادرتـه، خرجتُ إلى غرفـة البروفة، وأدخلـتُ الدراجة إلى غرفتي. أفسـحتُ لها مكانا في السـرير. كانت المـرة الأولى التي أُبلِّغ فيهـا الســت روزا بقرارٍ لن أتراجع فيه، ففور دخولهـا الغرفة قلت لها: «العجلة دي هتفضل هنا، ولما اموت هتتدفن معايا».

***

تتثاءب شهرزاد وقد أطل نور الصباح من النافذة، لكنها تكمل للعجوز بينما تُنهي الليلة الثالثة: لم تكن الفتاة تعرف وهي تخبر الســت روزا، مجازا، أن دراجتها ستُدفن معها، أن هذا بالضبط ما سيحدث.

مدينة العجائز

(الليلة الرابعة)

ما إن غادرت شهرزاد دار العجائز، وفور مواجهتها الشارع، حتى استشعرت وهنا غريبا. كان ظهرها محنيا، مفاصلها تؤلمها، وثمة رغبة حارقة في أن تنتزع وجهها وكأنه قناع ثقيل. نعم، كان وجهها ثقيلا بجميع السنوات التي لم تعشها، وقد تراكمت في تلك اللحظة فوق عمره الحقيقي كطبقةٍ ثقيلة من المساحيق. لكنها، في غمرة استغرابها، وبينما تهش طفل الصباح الذي عاد يجذبها من البالطو لدى خروجها من البوابة لتشتري منه علبة مناديل، انتبهت فجأة. رفعت الطفل من جذعه، بقسوة شبابها وشيخوختها معا، حتى صار وجهه في مستوى عينيها. كان وجهه غابة من التجاعيد. لقد أصبح عجوزا مكتملا. نظرت حولها متمنيةً ألا ترى ما تأكدت من وقوعه، لكنها رأت. لقد صارت الإسكندرية مدينةً كاملةً من العجائز.

***

مـاذا حدث؟ حتى وصولها لبيـت العجائز كانت الحياة كما هي. كان هناك أطفال، شـباب في مقتبل الحياة، نسـاء في منتصف العمر ومراهقـات. هـل تسـبب قتلهـا لصاحـب الدار فـي لعنةٍ مـا حوّلت السـكندريين كلهـم فـي لحظـة إلى عجائـز؟ لم يبـدُ الطفـلُ مدركا لمـا أصابه من شـيخوخة، نظرة الفـزع الوحيدة التي قوّضت سـلام طفولتـه كانـت حينما رفعته شـهرزاد الذاهلة لتـرى عن قرب وجهه المتغضن.

فـي تلك اللحظة، وجدت نفسـها وحيدة بين عجائـز العالم الذين طـرأوا في غمضة عين وكأن المدينة أصبحت انعكاسـا مفتوحا لمنزل الجميـلات النائمات، هناك وهنا كان ثمة عجائز يتكدسـون في مكان واحد تديره امرأة. لكن هدف شهرزاد في المدينة المفتوحة هو قتلهم، فيما كانت الست روزا تمنحهم حياة جديدة بإقراضهم الفرصة للتذكر، حيـاةً متخيلـة، زائفـة ربما، وعالقـة في تلك المسـافة بين الاسـتيقاظ والنوم، لكنها في النهاية كانت قُبلة نجاة.

- بعـد ما اتأكـدت ان الواد بتـاع المناديل اتحـوّل لراجل عجوز.. افتكـرت انـي كنت نـادرة اقتله لو شـفته تاني.. وقبل مـا رجليه تلمس الأرض.. كانت حقنتي عبّت دمّه سم.

تركت الجثة المكوّمة في الشارع المعزول كحيوان نافق، ومع أول انحرافـة، أخرجـت مـرآة حقيبتها الصغيـرة. كانت نظرة واحـدة كافية لتعـرف: هاتان عيناي، وهذا أنفي، وهاتان شـفتاي. هذا وجهي، لكن بعد ثلاثين عاما على الأقل من الآن.

ماذا حدث؟ وأين ذهبت هذه السنوات بين دخولها غرفة صاحب دار المسنين وخروجها منها؟

هل قفز الزمن في خطوةٍ واحدة للمستقبل؟ أم أن الزمن كما هو بينما شاخ الناس فجأة؟ كانت مدام شهرزاد تعرف أن الزمن وحده، ذلك الأشد هِرَما من الجميع، يظل طفلا.

لو كان بإمكانها التذكر لفرَّقت ببساطة، لكن شهرزاد بلا ذاكرة. اختفت الإناث. فقط رجال عجائز، باختلاف أحجامهم وأعمارهم الحقيقية. الرجال قتلة. الرجال فقط هم القتلة، قتلة بتكوينهم، وليسوا بحاجةٍ إلى سبب لكي يدفنوا امرأة.

إنها لا تعرف كم سنة على وجه التحديد مرت بين دخولها بيت المسنين ومغادرتها له. شعرت كأن يدًا مجهولة امتدت لجيبها وسرقت بسرعة ما وجدته فيه من سنوات، ولأول مرة تشعر أن التذكر الذي حرمت نفسها منه كان عزاءً، دليلا، على الأقل، أن ثمة حياة وُجِدَت.

البحرُ أيضًا، مع القفزة الزمنية، أصبح عجوزا. سوِّر بالكامل. دَخَلَت دار المسنين وهم يعملون بدأب لإخفائه بنوادٍ جديدة للعسكريين والشرطيين والقضاة، لكن كانت هناك بقايا زرقة تتخلل الأسمنت كعلامات الترقيم النحيلة بين صفوف العبارات.

عندما انفتح المصعد وعبرت نحو باب غرفة لص العجائز الموارب، سمعت صوته الآمر «ادخلي». وجدته في انتظارها خلف

مكتبه. يبدو جذعه جذع شـخصٍ مكتمل. لكـن اهتزازةً تكاد لا تُلمح في جلسـته، للأمـام والخلف، توحي بأن ثمة ما يشـبه آلة تحركه. كان محاطا بالشاشـات، تعرض شـوارع الإسـكندرية كلها، وقبالته شاشـة أصغر، تكشف الغرف التي يعيش فيها العجائز.

يتحرك هـو باتجاهها، وهو يدفع العجلتين بيديـه. إنه مُقعد. تلمح الجريدة فوق مكتبه، فتبادره: في أخبار عن البت النايمة؟

ينظر لها باسـتغراب. تقول: مش الفكرة في الحادثة نفسـها.. البت دي كانت بتاخد اسـكندرية من شـرقها لغربها، سايقة عجلتها وهيا في سـابع نومة.. وأمة لا إله إلا الله بتشـوفها طايرة وهيا مغمضة زي ريح عميـا.. أصل البت دي حكايتها غريبـة أوي.. أصلها ما كانش بيجيلها نوم أبدا إلا لو نامت في سرير غريب..

تكمـل الجرعة التـي أعدتها من الحكاية بينما تنتظر سـريان المادة المميتة في جسده.

- فـي اللحظـة التي خمـدت فيهـا أنفاسـه.. أضيئت فجـأة جميع أنوار الغرف. كأن أولئك العجائز المحبوسـين شـموا رائحة دمه الذي جف. وفي لحظة، سمعتُ ارتجاج أبواب. نظرتُ بينما يتحرك كرسيه المتحـرك ملليمترات غيـر مرئية للأمام والخلـف كأن المعدن ينبض، وقد ضاعف موت الرجل من حياة كرسيه.

مـن نافذته، كانت أبواب الغرف الموصدة من الخارج بأقفال ثقيلة كأبواب زنازين السجون ترتج. شق الصوت المرعب سكون الضاحية الأقرب للميتة وارتعبت لأنه سيكشـفني لو استيقظ الأهالي أو حاولوا

اقتحام المكان ليعرفوا ما يحدث. لكن في لحظة، لا أعرف كيف، رغم وهن الأيدي التي تطرق الأبواب، انفتحت الأبواب في توقيت واحد، وحررت زنازين المكان. رأيت قطيع العجائز يركضون مغادرين.. كانوا يركضون كأطفال حتى أنهم وصلوا البوابة الحديدية في لحظة.. وبضغط أجسادهم الهشة أزاحوها منطلقين للشارع.

- كنتُ مرعوبةً حتى أنني خشيت المغادرة في أعقابهم أكثر مما خشيت أن تنكشف فعلتي بينما أشارك جثةً غرفتها ممسكةً بالحقنة التي قتلتها. بعد لحظات غلب الفضول الرعب، هذا ما يحدث طوال الوقت في الحياة، يتحول الفزع إلى رغبة في المعرفة، ظللت أتفرج، مشهرة الحقنة، دليل إدانتي، تحت القمر المكتمل الذي ابتلع خطواتهم. ظللتُ أراقبهم حتى تفرقوا، كل في اتجاه، وقد تحرروا أخيرًا من عبودية الغرف ليواصلوا جنونهم في شوارع المدينة، كما كانوا دائمًا، عرايا ومجذوبين، بلا ماضٍ يؤرقهم، وبلا أمل.

- لن تصدق.. في هذه اللحظة انتابتني طمأنينة غريبة.. لا.. بل سكينة.. حتى أنني لم أعد أخشى العقاب.. لقد شعرت في تلك اللحظة بامتنان لهم.. امتنان غسل كل أحقادي منذ نهشوا جسدي وتركوني عاريةً ومهانة في فناء الظهيرة ذاك.. كنت قوية، رغم أنني وحيدة في مكان مخيف لا يؤنسني سوى جثمان متجمد فوق كرسيه المتحرك، وقد اكتسب نفس درجة برودته. كل ذلك حدث دون أن يلتفت أحد.. كأن من العادي في هذه المدينة أن يخرج جيش رجال عراة بعد أن يحطموا بوابة حديدية بدُويٍّ يشبه سقوط قنبلة..

- خرجتُ آمنة.. حتى أنني عبرت كمين شرطة عند «القمة» بثبات. البالطو الأبيض أفضل من بطاقة رقم قومي.. تماما كأسمال المشايخ وبذلات الضباط. لو التفتُّ، لرأيت شيخوختهم الجديدة بينما يتسامرون بحثا عن قاتل، يُفضِّل ألَّا يكون حقيقيا.

لكن كيف يمكن أن يكون شخصٌ ما حقيقيا وآخر غير حقيقي؟ هل القاتل الحقيقي هو من يقتل؟ أيهما من يمكن أن ندعوه قاتلا؟ شخص قتل بالخطأ دون أن يكون راغبا بالقتل؟ أم شخص يتمنى أن يقتل ولا يملك الخطة أو الأداة أو الشجاعة؟ من فيهما الحقيقي؟ من فيهما الموجود؟ إن القتل يختار مقترفيه لا ضحاياه.

يُذكّرها ذلك بكتاب غريب اشترته مرة، إنه الكتاب الذي يختار قارئه. كان الرملي محبطا لأن كل من اشتروه أعادوه حيث رَفَض الكتابُ أن يقرأوه. كانت صفحاته ملتصقة ويلزم لفتحه سكين أو مسطرة ككتب هيئة الكتاب زمان، وإذا رَفض الكتاب القارئ سيعجز الأخير عن فض صفحاته الملتصقة. حصلت مدام شهرزاد على نسخة وعادت للبيت. انفتحت صفحات الكتاب معها بيسر شديد. كان ناشره قد أعلن في مربع صغير بالصحف الثلاث أن القراء الذين سيقبل الكتاب أن يقرأوه سيجري تكريمهم في حفل بمقر الدار بالقاهرة. أرسلت شهرزاد رسالة تخطر فيها الناشر أن الكتاب وافق أن تقرأه. عندما وصلت للدار في شارع عدلي، سألها الناشر عن رأيها في الكتاب وهو يتسلم نسختها المفتوحة التي تثبت جدارتها بالتكريم.

قـال لهـا إن من يقرأ هـذا الكتـاب لا يموت. كانت عبارة تسـتحق أن تقطع المسـافة الطويلة لتحصل عليها. كانـت العبارة الوحيدة التي أمكنهـا اعتبارهـا، طيلة حياتهـا، مكافأة. كانـت العبـارة الوحيدة التي تسـتحق سفرا بين مدينتين ولا يسـتقيم أن تُقرأ في إيميل أو خطاب أو تتلقاهـا الأذن في مكالمـة موبايل، فقد كانت عينا الناشـر وهو ينطقها تؤكدان شيئًا لا سبيل لإنكاره: هذا رجلٌ لن يموت.

- في تلك اللحظة اكتشـفتُ أنني، وكذلك جميع من وافق الكتاب أن يقرأوه، انشغلنا بفرحة القبول عن القراءة..

تتنهـد شـهرزاد: عندما عـدتُ إلى الإسـكندرية كانت نسـختي قد أُغلقـت من جديـد. رفضَت بعد ذلك أن تُفتح فيما أحاولُ، يائسـةً، أن أنقذ حياتي..

- هكذا أعدتها للرملي الذي أخبرني أن كل الفائزين الاسكندرانيين أعادوا نسخهم بنفس الطريقة.

تعود شـهرزاد لتسـأل العجوز كأنمـا توبخه: برضه مـا قلتليش لما باحط نفسـي مكان حد تاني أنا باروح فين.. ازاي باكون موجودة جوا حد وانا نفسي ما ليش وجود؟

بعد أن دفنت أباها في درج المكتب، قررت ابنتها، وقد نجحت في بعثه، أن تستحضرْ أناسا غير موجودين، بالطريقة التي يصبح بها الناس جزءا من عالمنا: إنهم، ككل الناس، يبرزون من العدم. بعد ذلك كانت تدفنهـم في مقبرة درج مكتبها نفسـها، إنهم، ككل الناس، يذهبون إلى

العدم. بدفنها لآبائها كان بكاؤها قد جف، وكان دفن أي شخص آخر بعد ذلك، بداهةً، أقل إيلاما.

كان الناس عندها يبدأون بفكرة، ملمح مختلق في وجه لم تره، ثم ما يلبثون أن يتجسدوا على مهل حتى يصلوا للسن الذي يبدؤون فيه حياتهم الواقعية في مشهد حياتها. بعض من ترسمهم كانت تقابلهم صدفة، في «مشروع» أو عربة ترام أو على الكورنيش أو في زحام مول. كانت تبتسم دون أن تنظر لهم، وهم أيضًا كانوا يبتسمون.

كانت تتحدث دائمًا عن الاختفاء. كأنها عثرت على صيغتها الخاصة لتعريف الموت، وقد صار طفلها الذي تدلّله باسم أقل إيلاما.

في يومها الأول بالمصنع عرفت ابنتها أن هناك مقعدا يختفي من يجلس عليه. سمعت قصص اختفاء الفتيات اللائي شغلنه، لأسباب مختلفة. بدا لها تحذير العاملات إلهاما حتى أنها، بنظرة واحدة، استحضرت وجوه جميع الفتيات اللائي شغلنه قبل أن يبتلعهن ثقب العالم. ولأنه كان المقعد المجاور مباشرةً لها، قررت أن تملأه بفتيات خيالها، وهن فتيات موجودات بالفعل ولا ينتظرن للتجسد الفعلي سوى قرارها. كانت أجسادهن الواقعية تظهر بعد فترة كافية من وجودهن بداخلها، فيما يخطين فوق بلاط العنبر ليبدأن العمل، ولهذا كانت تستقبلهن بفتور، يثير استغراب بقية الزميلات، اللائي لم يكن يعرفن أن لا وجود بالنسبة لها لشخصٍ لم تقابله من قبل.

كان الأشخاص الذين لا وجود لهم يتزايدون في عالم ابنتها، بدأوا في البيت، ثم صاروا مدينة، وفي الأخير تحولوا لشعبٍ كامل، غير مرئي.

لكنهـا ذات يوم، وبدافع الفضـول، قررت أن تقضي يوما على ذلك المقعد. نظرت لها البنات بفزع بينما أسقطت جسدها عليه كأنها تفرغ روحها منه.

- فـي ذلـك اليوم سـتتغير للأبـد حياة ابنتـي في منـزل الجميلات النائمات..

تُخرج شـهرزاد نفسها من جسـد ابنتها وقد شعرت به يشدّها لعمقٍ قد لا تعود منه، وتهمس للعجوز: «احنا وقفنا فين؟»

أيـة إجابـة ينبغـي أن يمنحها؟ أية حكايـةٍ تقصد؟ إنها تغـزل متاهة من الحكايات الناقصة، خشـيت في لحظة أن تكـون هي أول التائهين بداخلها.

- .. لنبـدأ من حيث انتهينا في قصة روزا الكبيرة وروزا الصغيرة.. أخبرت روزا الكبيرة روزا الصغيرة أن العجوز طلب مضاجعتها للمرة الثانية.

دخـل للمرة الثانية غرفـة روزا الصغيرة، وللمرة الثانية فشـلت في النـوم، وللمـرة الثانية مثّلـت النوم، وللمـرة الثانية لم يحـاول إيقاظها مـن نومها الزائف. فـي تلك الليلة فرد أوراقه فوق جسـدها وبدأ يقرأ. فاجأهـا بقـراءة شـيء كتبه هـو. يبـدو أن فكرةً مـا ألهمته، بإلهـام هذا المـكان، وبإلهامهـا أكثر. كتب عـن عجوز يدخل بيتا مشـبوها ليتذكر حياتـه بجـوار فتاة نائمة. تكـررت زياراته، وفي كل مـرة كان يأتي وقد طوّر شيئًا ما في قصته.

كان يهمس في أذنها، بصوتٍ يزداد شبابا في كل مرة، بما كتب، وكانت هي تقدم له رأيها باستجابات تبدو عفوية وغير مقصودة، بابتسامة أو تقطيبة.

كانت تموت فضولا لكي تفتح عينيها، لكنها كانت تعرف أن هذا لو حدث فلن ينهي قصته. هذا البيت، هذه الغرفة، هذا السرير وهذه الفتاة المغمضة بين الملاءات كغريقة في موج، أنهت فشله في العثور على قصة، وجعلت منه، أخيرًا، شخصًا آخر.

كل مرة، كان يدفع لروزا الكبيرة مقابل أكبر، كان في الواقع ثمن الاستمرار في كتابة قصته، وكانت القوادة تكتم استغرابها من إصراره في كل مرة على الفتاة النائمة، تحت شمس المال الذي كان أكبر بكثير من أي مبلغ يمكن لرجل أن يدفعه مقابل أجمل فتاة هنا.

ظلتا تسهران معا، ملصقتين أذنيهما بالراديو، انتظارا لسماع أي شيء، وكانت روزا الكبيرة تقطع لحظات الموجات المشوشة بأي حديث إلا الحديث عن ذلك العجوز الذي يضاجع مومس صغيرة متأبطا كتبه.

لكن ذات ليلة، وبينما تجلسان للراديو الصغير، أطفأت روزا الكبيرة المؤشر. كانت المرة الأولى التي تُخرس فيها القوادة الصوت الذي تحوّل بالنسبة لروزا الصغيرة إلى صوت الابن المفقود نفسه. حل صمت، ولأول مرة منذ دخلت هذا البيت، تعرف روزا معنى أن يكون الصمت مسموعا للدرجة التي يمكنه معها أن يصم أذنيها.

- إنه الصمت الذي ستحرص روزا الصغيرة على تجسده بعد ذلك.. عندما تصبح الست روزا.

أدركَت الفتاة أن ثمة شيئًا غير عادي سيقال. لقد شعرت أن القوادة بإطفائها مؤشر الراديو دفنت ابنها الآن، وفي تلك اللحظة عرفت روزا الصغيرة أن هذا الجندي لن يعود.

سألت روزا الكبيرة «الواد ده نام معاكي؟» قبل أن تفكر روزا الصغيرة في الإجابة، استوقفها وصف القوادة للعجوز. أكملت القوادة وكأنها قرأت تساؤلها وهي تنظر مباشرةً في عيني روزا الصغيرة: «الواد ده مش عجوز.. ده عيّل.. عيّل من دور ابني».

عندما نطقت الكلمة الأخيرة رأت روزا الصغيرة كراهية العالم في العينين السوداوين. وانتبهت لأول مرة للون هاتين العينين، كانتا حدادا آخر يتحرك في حدقتي المرأة اللتين تجمدت فيهما الدموع.

ماذا تقصد روزا الكبيرة؟ هل هو متنكر؟ ولماذا؟ هل هو هارب من الحرب بطريقةٍ ما؟

تجمدت روزا الصغيرة، كأنها مسؤولة في تلك اللحظة عن حماية ذلك العجوز. العجوز أم الشاب لم تعد تعرف. لم تستطع أن تصارح القوادة أنه لا يضاجعها. لن تفهم. لماذا يدفع شخصٌ ما كل هذا المال مقابل تأمل فتاة نائمة؟ لو أخبرتها أنه يتحدث عن حياة قادمة تجمعهما معا، ستُقتل، ليس مسموحا باتفاقات كهذه هنا. ولو أخبرتها أنه يكتب رواية عن البيت لقتلتهما معا. بدلا من أن تبحث عن إجابة لروزا الكبيرة، بدأت تبحث عن إجابة لنفسها: هذا الرجل الذي لم يخلع

ملابسه مرة، هل هو شاب متنكر؟ بدأت تتذكر، إن له صوتا واهنا، لكن الأصوات ليست دليلا على الشباب أو الشيخوخة، كانت تعرف ذلك، وكأن الصوت يحيا زمنه الخاص بمعزلٍ عن الجسد. لكن شيئًا ما في هذا العجوز كان يؤكد كلام روزا الكبيرة، ربما مظاهر شيخوخته بالذات كانت تنفي شيخوخته: انحناءة ظهره، مشيته المتئدة كأنما يخشى أن يطأ ظلّه، كلها بدت للفتاة الآن علامات تُظهر ما أراد أن يخفيه هنا. لقد سألت روزا الصغيرة نفسها ذات السؤال وقد شعرت أنها من تعرضت للخيانة وليس صاحبة البيت السرّي، لكنها أخفته بسرعة، كأنها قررت أن تحمي ذلك الرجل حتى من نفسها بين تلك الجدران الخطرة، ذات الآذان والأفواه وكافة الحواس، والتي تنقل أفكار قاطنيها.

وعيدُ روزا الكبيرة نبه الفتاة لما ظلت أياما تنكره. إنها تريد هذا الرجل، وستبقيه حيا، ستضاجعه. اكتشفت في تلك اللحظة أنها تريد أن تضاجعه، وحيث ستعثر بين أحضانه على إجابة جميع الأسئلة، فلا يمكن لشخصٍ أن يُخفي زمنه في الفراش.

لكن روزا الكبيرة وضعت حدا لأفكار الفتاة وكأنها أشهرت سكينا لتذبح الأمل. دون أن تنتظر إجابة روزا الصغيرة قالت: الواد ده لازم يتقتل.

في تلك اللحظة رأت روزا الصغيرة كراهية العالم في العينين السوداوين. وانتبهت لأول مرة للون هاتين العينين، كانتا حدادا آخر يتحرك في حدقتي المرأة اللتين تحجّرت فيهما الدموع.

فكّرت روزا الصغيرة في الرواية، التي باتت روايتها هي، وشعرت بشكلٍ غامضٍ لكن لا يقبل التشكيك، أنها مسئولة عن اكتمال هذه الرواية.

تتصبب مدام شهرزاد عرقا، وهي تزيح يد الماضي عن فخذي الفتاة التي تتذكر لها، وتتطلع نحو العجوز.

- الرواية التي ستكملها أنت.

(2)

«حذّرني السائق: حذارِ، ففي هذا البيت يَقتلون. وأجبته: ليس مهما، إذا كان القتلُ بدافع الحُب».

جابرييل جارثيا ماركيز

«ذاكرة عاهراتي الحزينات»

منزل النائمات

(الفصل الخامس)

أكتبُ هذه اليوميات على الوجه الآخر للأوراق التي كتبَ عليها جبريل الحكاية بطريقته، الحكاية التي بدا فيها أنه تعجّل أو تنكّر للنهاية فوضع نهاية القصة قبل أن تنتهي القصة، كأنه خشي أن يموت قبل أن يُتمّ روايته.

كانت نهاية سعيدة، من تلك التي تبذل أقصى ما بوسعها لتُزيِّف نهايات الواقع، كأن الموت يُكتَبُ في القصص ليخونَ جوهره: ليصبح ابتسامة.

أكتبُ بخطّي، خط يدي النائمة، على أظهُر الورقات التي كتبها بخطه، خط يده المستيقظة. يُدوّن المستيقظون ما رأوا في نومهم، لكني أفعل العكس، مفكرةً أنه بهذه الطريقة وحدها، يمكن لليقظة أن تصير بمعنى ما سباتا، ومتسائلةً: ما الكتابة إن لم تكن تلك المحاولة المستحيلة لتحويل الواقع إلى حلم؟

أكتبُ، بقلمه نفسه، وقد قررتُ أن آخر صفحة كتبها هو ستكون آخر صفحة أكتبها أنا، حتى لو أردتُ كتابة المزيد، فقد سجنني في

مساحة قصته، وأي كلمة زائدة خارج أوراقه، ستكون تلقائيا كلمةً خارج قصتي.

هو أيضا كان حبيس بناءٍ محدد سلفا. كتب روايته في خمسة فصول، كسابقيْه. وقصر زياراته في روايته على خمس حتى لو كان هذا الرقمُ كذبة، كأنما تواطأ ثلاثتهم على عدد زفرات المتعة التي يحتاجها كاتب لإنهاء امرأة.

ربما لم يكن قراره، ربما كان قدره، لأنه عندما يفتح باب غرفتي للمرة الأخيرة، ليقرأ لي أخيرا نصه المكتمل، سيستدير في اللحظة نفسها ليغادر عالمي، تاركا قصة عمره، كمن يودع وصيته.

كان من حقي أن أكتب قصتي كولادة، إن أردت أن أكتب لأكون امرأة لا لأضيف للرجال كاتبا. وإذا كان الرجل يحتاج خمسَ مضاجعات على الأقل ليَقتُل، فإن المرأة بالمقابل تحتاج تسعة أشهر لكي تلد. وعندما يتعلق الأمر بحكاية، فإن الصرخة الأولى لولادتها تستحق تلك الأطوار التسعة المؤلمة.

الحكاية التي أرويها الآن، وقد منحني النومُ أرضا محررةً للكتابة لا يقطعها خوفُ المستيقظين من رعب الواقع. الحكاية التي منحتُها عنوانا مبدئيا: «طعم النوم»، حيث لم أعد أعرف، هل أكتب حكايتي أم حكاية أختي، أمي مدام شهرزاد أم مستخدِمتي الست روزا، أم أنني أعيد كتابة حكايته هو، كآخر هدية يمكن أن يتلقاها في احتضاره؟

ما كتبه من خلف ظهري وما كتبته من خلف ظهره، هل تظلان حكايتين؟ أم أنهما، بالضبط كوجهيْ الورقة الواحدة، صارتا رغم

أنفينا رواية واحدة؟ وهل من طريقةٍ لتنجو حكايتان معا، بينما وُجِدت إحداهما لتمحو الأخرى؟

ربما كانت الكتابةُ ذلك الخداع نفسه، فأنت تبدأ الكتابة عن شخصٍ فور أن يوليك ظهره، ظنا منك أنه لا يراك، أنه ميت في تلك اللحظة، وفور أن يستدير، يكون، رغم أنفه، قد عاش للأبد.

هل سيقرأ هذه الأوراق، هذا الوجه الآخر لمخطوطه، ذات يوم؟ أم سيسترد الرواية التي كتبها دون أن يعبأ بقلب الصفحة على وجهها الآخر، وليقرأ الجميعُ روايته فيما أكتفي أنا بدور الكاتب والقارئ معا لحكايتي؟

القرارُ بيدي الآن.

لقد فقدتُ شيئا ما هنا، شيئا لا يمكن تسميته. بين هذه الجدران التي ترى فيها الشيخوخةُ نفسها وجها لوجه في المرآة الأخيرة التي يضمها هذا البيت، بين هذه الحوائط التي لا تعكس الظلال، في هذا الفناء القمري حيث كان يجب أن أعبر لأترك المدينة، كأن المستقبل لن يكون أبدا أكثر من غرفة، تختلف عن جميع غرف العالم، تلك التي نمتُ فيها والتي استيقظتُ فيها على السواء، في شيء واحد: أنها غرفة مُعدَّة للتذكر. الفِناء الذي يتوسطه قمرٌ ثابت، موجود بنفس القوة في النهار، وكأن الليل يقطن هنا، وتحت جسد ذلك الرجل الذي ذاق جسدي كأنه لسان العالم وقد اكتفى بلعق حواسي.

لقد فقدتُ شيئا لا أسميه، فحتى عندما شاخت الدنيا وأظلمت في جسدي بنومٍ أبدي، ظلت جميع حواسي تعمل، عدا واحدة: حاسة

زائـدة وبـلا وظيفةٍ تقريبا حد أن أحدا لا يسـتطيع تعريفها، حاسـة مثل ذلـك الموظف المتبطـل الذي، بحضـوره، يبدأ العمـل. إنني حتى لا أملـك دليـلا على أنني امتلكتها يوما ما. غير أننـي، أنا النائمة الآن وقد دُفنـتُ في مـلاءة طفولتـي مكتملةً بكفاءة حواسـي، أبكيهـا ولا أبكي حياتي.

هـذه الحاسـة الضائعة، التي لم تمدّني يوما بلـونٍ أو صوت، بطعمٍ أو برائحـة أو بدنـو خطر، الحاسـةُ التي لسـتُ مدينةً لها حتى بشـيء، والتـي أُدركُ الآن أنها لم توجد أبـدا: كل هذا الغياب، هو ما يسـتحق أن أستردّه.

فـي مقاله: «**منــزل نائمات أم مدينة عجائز**»، يتســاءل طـارق إمام، (1977)، عما سـيفعل لو أتيح له أن يعيد كتابة القصة التي كُتبت مرتين قبل ذلك.

قرأتُ المقال قبل سـنوات من دخولي منـزل النائمات (ربما ثلاثة أو أربعة أعوام) في مكتبة أمي. كانت قد انتزعت الصفحة من الجريدة ووضعتهـا مطويـة بيـن نسـختي «الجميـلات النائمـات» لياسـوناري كاواباتا و«ذاكرة عاهراتي الحزينات» لجابرييل جارثيا ماركيز.

كنـتُ أمد يـدي لإخراج رواية جابـو، في واحدة مـن المرات التي قررتُ فيها إعادة قراءتها، عندما باغتتني الصفحة المحشورة بين كعبي الروايتيـن كسـتارة خفيفة بين غرفتين. اندهشـتُ قليـلا. كنتُ من قراء «إمـام» الذي كان يكتـب حكاية أسـبوعية في جريدة «الدسـتور» ولـم أعرف أنه يكتب نقدا في الصحف الأدبية التي تشـتريها أمي أو أنها قد تكون قرأت له شيئا.

فـي مقاله اجتزأ إمـام مقطعين من روايتي كاواباتـا وماركيز، الأول يخص تسـاؤل «عرضي» مـن العجوز «إيجوشـي» بطـل «الجميلات النائمـات» حـول أم الفتـاة، والثانـي يُنبِّـه فيه السـائق بطـل «عاهراتي الحزينات» أنه «في هذا البيت يقتلون». يقول إمام: رغم ذلك لا وجود لأم في الرواية الأولى، ولا تجسيد للقتل في الرواية الثانية.

يُكمـل إمام، كأنما مُعاتِبا شـخصا لن يراه: «وضع كاوابات تسـاؤلا شـديد العرضيـة على لسـان عجوزه حـول إن كانت الفتـاة تحاول أن تضمـه كأم، بينما مر ماركيز في روايتـه على حادث قتل هش وعرضي بدا معه رد فعل بطله كأنه صادفه في شارع أو طالعه في جريدة.. حيث تطلب «روسا» من البطل في أحد المشاهد أن يساعدها في إلباس جثة قتيل داخل بيتها، ويفعل ذلك بآلية كأنها تطلب منه مساعدته في إلباس طفلها قبل أن يعود ليكمل سرده كأن شيئا لم يحدث».

إنهما، حسـب إمام، مقطعان «يتيمان»، ذلـك أن لا امتداد لهما في القصتيـن. كان مسـتثارا بمـا أسـماه «الحكايـة الغائبة» فـي الروايتين، الحكاية المضمرة أو المهملة، لكن فادحة الحضور وهي تطل برأسها للحظات مثل طفلٍ متلصص يصعب نسيان ملامحه.

يُكمل إمام: لو أنني أعدتُ كتابة هذه الرواية لمرة ثالثة، فسأصدِّرها بهذيـن المقطعيـن، وسـأجعلهما الحكايتين الحاضرتين فـي روايتي: لأبحـث عن الأم الغائبة عند كاواباتا، وعن القتيل الغائب عند ماركيز، أمـا صوتـي، فهو دون شـك للفتـاة النائمة، سـتكون هي من سـيروي الحكايـة، أثنـاء نومها بالذات، وأثناء ذلك سـتحكي عـن أمها لتصبح أداتي لاسـتحضارها. ثم يتسـاءل إمام كأنه يفكر بصـوتٍ عالٍ: ولـم لا تظهر أمها بنفسـها لتتحدث؟ ومن يدري، ربمـا تصبح الأمومة والقتل في نهاية المطاف شيئا واحدا.

يرى إمام أن تمثيل الشيخوخة لم يتجسد في «الجميلات النائمات» بقطيـع رجـال عجائـز كمـا يبـدو ظاهريـا، (وكمـا أرادت الرواية) بل

بامرأتيـن (الشـخصيات الغائبـة أيضـا): واحدة معلنة وواحدة سـرية، أو واحـدة موجودة وأخرى غير موجـودة: القوادة أو مديرة المنزل في الواجهة، والأم في الخلفية، كأنها تختبئ خلف جسدها. كلتاهما، كما هو متوقع، فضلا عن الفتاة النائمة، مهمشة وبلا اسم، بينما يضيء اسم العجوز «إيجوشي» سماء الرواية الخالية كقمر وحيد.

لن أنسى آخر عبارة وقعت عليها عيناي قبل أن أعيد طي الصفحة، بينما يفتح الكاتب تساؤلا بدا مريرا بينما أتخيله ينطقه ناظرا في عينيّ: أما آن لإحدى الفتيات أن تتكلم؟

السـؤال لـن يلبث إمام أن يكمله، مسـتثارا، ومخفضـا نبرته، كأنما يهمس في أذني: ماذا لو انقلبت اللعبة فأصبحت الفتاة هي المسـتيقظة والعجوز هو النائم؟

في بعض أحلامي أرى نفسي نائمة. يرعبني ذلك أكثر من أي حلمٍ آخر: أن يحلم شخصٌ بنفسه وهو نائم، فذلك يعني أن ثمّة حلمًا ثانيًا، لن تتاح له الفرصةُ أبدًا ليعرفه.

أمي على مقربة من سريري. لا أحتاج عينين مفتوحتين كي أراها.

تركَت لها الست روزا مهمة الإشراف على نومي الأخير، كأن الأمومة لا شيء سوى ذلك الانتظار بين مهد ومقبرة.

مستغربةً، ربما، من جسدي الهامد الذي لا تتحرك فيه سوى يد آخذةٍ في التدوين، وقد استقلّت عن الجسد النائم والعينين الذاهبتين. هل ستُواصل هذه اليد استقلالها عنّي لأفاجأ في النهاية بأنها كتبت شخصا آخر لا أعرفه؟ إنها يدُ الحكاية، أي أنها بمعنى من المعاني، يد الكذب.

بالتأكيد تموتُ أمي فضولًا لتعرف ما أكتب، لكنها لا تفعل، لأنها أيضا تُدرك أنني لا أريد ذلك، وأنني سأشعر بتطفلها وسأغضب حتى لو كنت نائمة، وقد يدفعني ذلك لإجهاض روايتي، وهو ما لم تكن مدام شهرزاد لتسمح به حتى لو كلّفها حياتها.

إنها تفكر أنني لو متُّ فستصبح هذه الأوراق ميراثها، ولم يكن أثمن عند مدام شهرزاد من أن ترث حكايةً مكتملة.

أمي تقتلُ الآن، بينما أكتب أنا قصتي هذه. تقتل عجائز الست روزا عقابا لهم على ما حدث لي لأن أحدهم أودعَني النوم في منزل النائمات. تعاقب نفسها في حقيقة الأمر، فنحن دائما ما نقتل أنفسنا في صورة شخصٍ آخر.

في أعماقها تتمنى أمي لو خلّصت المدينة من جميع عجائزها انتقاما لابنتها، يائسةً، لأنها تعرفُ أنه في كل لحظة، هناك من يولدون عجائز. وكانت شهرزاد تعرف أن تلك الرغبة المستحيلة لو دخلت حيز الممكن، فسينتهي بها الأمر بقتل المدينة نفسها.

لقد بدأتْ رحلتها كقاتلة، مستخدمةً، بدورها، الرصاصة ذاتها، الرصاصة التي تنجو وحدها كل مرة عائدةً إلى قاتليها، وأحسّت لأول مرة بتلك الراحة، فمع كل عجوز كانت تشعر كأنها تقتل الموت.

كيف ستنتهي حكاية مدام شهرزاد؟ كنتُ أسأل من أجل روايتي لا من أجل مصير أمي، بينما أفكّر، لأول مرة كروائية: لن يكون «جبريل» آخر قتلاها، حتى لو أعلنَت ذلك وزعقت به.

عدتُ لأتذكر مقال «إمام»: «في روايتي، لو تسنى لي أن أعيد كتابة الجميلات النائمات، ستكون ثمة قصتان متقاطعتان، قصة الفتاة وقصة الأم، (أو قصة القتل وقصة الأمومة)، وصولا لمواجهةٍ نهائية بين الدورين، ولو بطريقة الروايات البوليسية الرخيصة».

إنه يرى أنه «بينما تبدو شيخوخة الرجال في الرواية نهرا منسجما، فإن شيخوخة النساء تخلق صراعا بين وظيفتين على واحدة منهما أن تحسمه لصالحها بالقضاء على الأخرى: «الأم والقوادة وبينهما الفتاة النائمة: إنه صراع هذه الحكاية الحقيقي.. مثلثها مكتمل الأضلاع.. وهو الصراع الغائب أيضا، والذي ينبغي، لمرة، أن يصبح حاضرا في روايةٍ جديدة».

يـرى إمـام أن ضلع المثلـث الثالث، الفتـاة، يجـب أن يلعب دورا جوهريـا في الصراع. إلى من تنتمي الفتاة النائمة، للأم أم للقوادة؟ أين يكمن عالمها الحقيقي؟ في أي بيت يوجد سريرها حقًا؟

يقول إمام، كأنما يهمس في أذني بطريقة العجوز جبريل: ينبغي أن تقتل الأم القوادة، إنه نوع من الثأر، لأن كلتا الروايتين بدأت وقد قتلت القوادة الأم بالفعل، بل قتلت الأمومة، وأمومتها هي قبل كل شيء.

يهمـس الكاتب في أذني كنبوءة: لقد قررت مدام شـهرزاد أن تقتل الست روزا.

في الحادي والعشـرين من سبتمبر، تقلصت ساعاتُ حظر التجول لتبدأ مع منتصف الليل وتنتهي في الخامسـة صباحا، باسـتثناء الجمعة الذي ظل يوم المدينة المختطف، حيث يبدأ الحظر في السابعة مساء.

بدأت الإسكندرية تسترد، على استحياء، قدرا من ليلها بينما بدأتُ أنا أفقد ذلك الليل، فقد بات العجوز يأتي في أي وقت، ودون استئذان، وكان يجب دائما أن أكون في انتظاره.

لـم تكف السـت روزا عن تكـرار تحذيرهـا: «إوعـي يعمل فيكي حاجة». تحذير شـخص لم يصدق كذبتي، بل تواطأ معها فحسب لأنه لا يملك سـوى التواطؤ، لكنـه فوق ذلك تحذيرٌ أمومي، ربما اكتسـى بتلـك العاطفة المفاجئة عندما لامسـت السـت روزا حلمتها المنسـية تحت لون الحداد.

ظللـت أفكـرُ كثيرا، هـل يمكن أن نلتقـي أنا وأمي صدفـة في بيتٍ مـا؟ حتى جاء يـوم دخلتُ فيه أحـد البيوت لأنام، وقبـل أن أدفع باب الغرفـة، رأيتها في الصالة تدس إبرتها فـي وريد مريض. التقت عينانا، بحيـاد غريبتيـن، دون أن يبدر من إحدانا أدنى فعـل يوحي بأنها تعرف الأخـرى. لـم نعُد أبدا بعـد ذلك للتحدث عـن تلك الصدفـة الغريبة، كأنها لم تحدث.

بحلـول أكتوبـر، سـتصبح الغرفة التـي تجمعني بجبريلـي، أخيرا، ملـكا لي.. ليصيـر هذا المربـع الصامت فـي قطيع الحجـرات أرضنا المحررة.

ذات ليلـة، كمـن يتنازل لضيفٍ عن بيته، دسَّـت السـت روزا يدها فـي صدرهـا حتى هيئ لي أنهـا سـتلقمني ثديها، قبل أن تفـرد راحتها بالمفتـاح الصـدئ الـذي بدا أقـدم عمرا بكثير مـن الباب الـذي خُلق مـن أجله. فعلَت ذلـك دون كلمة، وكان هذا اعترافـا منها بأن علاقتي والعجوز باتت، بشكلٍ ما، خارج قبضتها.

هل أمرها بذلك وقد قرر أن يصبح أكثر من ضيف عابر؟ أية سلطة يملكهـا هـذا الرجـل؟ إن رجـالا كثيريـن ممـن يجيئون هنـا يملكون سـلطات تفـوق بكثيـر الحمايـة التـي يمكـن أن يمثلها قلـمٌ مرتعش. هنـاك من يأتون هنا وأصابعهم على الزناد، هناك من يأتون بسـوطهم، وبمطواتهـم، وبالألقـاب والمناصـب والأوسـمة التـي تجعـل جميع الأمكنة بيوتا لهم. ليس العجوز إذن بصاحب السـلطة الاسـتثنائية، إلا لو كانت سـلطة يجيد ممارستها بالتحديد على هذه المرأة التي ترتدي حدادها، سلطة ليس لها سوى اسم واحد: الحب.

مـددتُ يـدي وتناولـتُ المفتاح الذي أصبـح لي. رأيتهـا في تلك اللحظـة مهزومـةً لأول مرة، حتى أن شـيخوختها بدت أكثـر قِدما من سـنوات عمرهـا. كأن جميع الطعنـات التي تلقاها جسـدها ولم تصل

أبدا للقلب، كل الندوب التي مُحيت تاركةً جسدها لرداء حالك كمن يرتدي ليله، كأن كل هذه السنوات، كل هذه الحجرات والأسرَّة، الفتيات النائمات والعجز مفتوح العينين، كل هذا لم يكن شيئا أمام المفتاح الذي أخرجته من داخلها، لتمد به يدا نحوي، متجردةً، ليس من غرفة ستُخصم من ثروة حجراتها، ولا من سريرٍ أفلت من قبضتها، بل من الشيء الوحيد الذي كان يُبقي قلبها حيا، بعد أن رحل جسدها كله، كأنه سبق وجودها الظاهري نحو التراب.

بدءا من تلك الليلة، لن تُستخدَم الحجرة لحساب عجائز آخرين. ستصبح زياراته عفوية وقد تجرّدت حتى من التنبيه الشكلي بأنه في طريقه للمنزل. وسيجيء قرار تخفيف ساعات الحظر الذي سيصدر مطلع الأسبوع الأخير من أكتوبر، ليقتصر على أربع ساعات يوميا فقط من الواحدة صباحا للخامسة فجرا، ليُكمل المؤامرة على الست روزا.

أصبح يأتي في أي وقت. ودائما مفزوعا كأنه فقدني للأبد. طَبَّ مرة على غفلة عندما قرأ عن حادثة سير لفتاة على دراجتها أودت بحياتها، ومرة عندما أغرقت فتاة نفسها من فوق كوبري ستانلي، وثالثة عندما اختفت فتاة، حيث اختفت قبل سنوات طويلة عروس في ليلة زفافها، تاركةً المدينة للعنة هذه البقعة التي صارت حكاية تورثها الجدات لأحفادهن. لقد صرتُ بالنسبة إليه فتاةً تموت كل يوم وينبغي أن يأتي هنا ليتأكد أنها لا تزال حيّة.

أحيانا كان يأتي بينما أنا في سرير رجلٍ آخر. ينطلق فزعا نحو باب غرفتنا قبل أن توقفه الست روزا، «مش في أوضتها»، دون أي توضيح

آخـر. ودائما كان يأتي بشـيء جديد سـيضاف لعشـنا، كنـت أراه عند عودتـي للنوم، وقـد صار هذا السـرير مكانا أبديا لنومـي حتى أنني لو حاولت النوم في سرير آخر كنت أفشل.

هل كان يجب أن تستيقظ أشباحي لكي أعثر أخيرا على مكان ثابت لنومـي، وفي هذا البيت بالذات، حيث تكاد الوحدة تتجسـد مكتسـبةً شكلا ولونا ورائحة؟

ذات يوم، فتحتُ باب الغرفة لأجد نفسـي في مكانٍ آخر، حد أنني تراجعـت خطوتين للوراء ظنا مني أنني أخطـأت ليس فقط الغرفة، بل البيت كله.

نُزعت سـتائر الحوائط القرمزيـة الثقيلة، وظهـرت الحوائط أخيرا مثلمـا تشـرق شـمس مفاجئة في سـماء الشـتاء. كانت هنـاك لوحات ازدحمـت بها الجـدران. وظهرت فجأة نافذة، بـدت مثل جرحٍ طارئ في حائط العالم. هل كانت موجودة أم شُـقَّت على عجل لتسـمح لي بتنفس آمن في الغرفة التي يبدو أنها صارت مصيري؟

أصبحت الغرفة مساحةً مؤثثة بالكامل من بقايا متاعه الذي سيغذيه مـرة بعد مرة مثل عريس شـاب بينما يصبح يوما بعـد الآخر أكثر غربة في بيته. حتى أنني لم أسـتبعد أن يفاتح السـت روزا في مرة بقراره أن ينتقل للإقامة هنا.

وللمـرة الأولى فكرتُ أنه أصبح موجـودا في جميع الأوقات التي يغيب فيها جسده. كان بجانبي في المصنع، يرفع زرا في الهواء ويتلقفه بفمـه المفتـوح، يبتلعه ويضحك. كان في غرفتي بالبيت، يتأمل سـرير

الطفلـة الـذي لم يكبر ويسـألني: «بتنامـي فيـه ازاي» وأجيبه: «عمري مـا نمـت فيه من يوم ما وقفـت على رجلي». كان فـي المدينة، في كل المدينة، يجلس أمامي كطفل فيما أطوّقه بذراعيَّ المتشبثين بالمقبض. وهاهـو، فور دخولـي الغرفة التي فقدت ملامحهـا، يوليني ظهره بينما يرتب الأشـياء فـي أماكنها، محـاذرا أن يلتفت لكي لا يصطـدم بعينيّ المغلقتين على اتساعهما.

هل أدرك يقظتي؟ ربما، وربما أدرك، مثلما أدركتُ، أن الحب ليس بحاجة لأربع عيون مفتوحة.

دنوتُ منه وقد علت أنفاسه. بدا خفيفا في نومه مثل هبّة ريح، أكثر خفة من المرة الفائتة، التي كان فيها أكثر خفة من سابقتها، وكأنه كان في كل مرة يفقد شيئا من وزنه ليضاعف حضوره.

هل يشبه أبي؟ يفترض أن أبي في مثل عمره لو كان حيا. هل أبحث عن جثمان أبي فيه؟ وماذا لو كان ذلك الرجل أبي؟ هل سأنتقم منه؟ أنكون قد التقينا على شرف الانتقام نفسه وتراجعنا في اللحظة ذاتها؟ لماذا لم أفعل؟ ألأنني أخشى أن يكون أبي؟

أنا، حبيبة هذه الغرفة، وعاهرة جميع الغرف الأخرى. ترى كم غرفة تعرف عهره هو؟ لقد قال في أوراقه إن خادمة اسمها «دميانة» تشاركه البيت، وإنه يضاجعها من الخلف لأنها لا تزال عذراء. لقد أحبته، كما يعترف في موضع آخر من أوراقه، فهل أحبها هو يوما؟

سمحَت لي الست روزا (أو على الأقل اضطرت أن ترضخ لطلبي) بأن أترك له هدايا في الغرفة، بحيث يستقبلها فور دخوله. كانت أولها البيجامة التي يرتديها الآن، وقد أصبح زوجا لا رجلا. احتلت ملابسي مشجبا في الدولاب الذي أتى به ولم تعد سرا. استعدتُ النظارة السوداء وتركتُها سرا يتأمله. تمنح المرأة دائما رجلها الجديد تذكارا من حبها الأول. بالمقابل قبلتُ هداياه المتزايدة التي كان يتركها قبل مغادرته. لم أعد أضع المساحيق على وجهي، أو أثبت الرموش الصناعية، بعد أن همس بطلباته تلك في أذني.

هكذا صرنا أقرب شخصين في العالم لم يلتقيا أبدا.

يتقلّب، ربما بأثر حلم، بأريحية من لا يخشى أن يستيقظ على عينيّ المفتوحتين، وربما أعجبته اللعبة، أمثل النوم في استيقاظه ويمثل النوم في استيقاظي.

هل أحببتُ ذلك الرجل؟ وإن كنت مخطئة فلماذا لم أقتله؟ لقد رأيته مستسلما كفريسة لا أمل لها سوى التعجيل برصاصة القناص. جئت لأنتقم لجسد أختي وإذا بي أقع في غرام الرصاصة.

نهضتُ، أخرجتُ قلم الروج من درج الكومودينو، وكتبتُ على مرآة التسريحة: شهرزاد. إنه إعلان صريح باليقظة. ماذا سيكون شعوره عندما يستيقظ في الخامسة، ويرى الاسم الذي اقترحه لي مكتوبا بقلم روج رخيص؟ ربما قتلني هو، انتقاما لكبريائه. مسحتُ اسمي بسرعة، تاركةً صداه الباهت على صفحة المرآة. لو أراد، لرأى أثره.

هل كنت أفتح له أخيرا باب مقبرة بإخباره أنني كاذبة؟ أم كنت أفتح لنفسي، أنا، ذلك الباب، حيث سينهي روايته هذه، حيث سيعثر فيّ على حب عمره المفقود، حيث سأتسبب في ضياعه، وحيث سيقتلني.

كانت الست روزا تُدوّن خلفي ما يدور في الغرف. بعد خروج كل عجـوز، كنت أُملي عليها ما حدث، كاذبـةً في أغلب الأحيان ومحرفةً للوقائـع. بالتدريج تدرّبتُ على خلق ماضٍ جديد لكل عجوز، وحياةً لم يعشها، وحالة جسدية تناقض الحقيقة.

كانـت تولـي اهتماما خاصـا بجبريل، الذي رحتُ أطـور له، مرةً بعـد مرة، مشـاهد لم تحـدث في الغرفـة لأمليها عليهـا، وقد تحـوّل أخيـرا لشـخصيتين، تعيش إحداهمـا في الواقع فيما تحيـا الثانية في الحكاية.

كانت تسـتدرك لـو فاتتها كلمـة، وكأنهـا بدورها قـررت أخيرا أن تكتـب روايـة عن عجائـز منزلها. هل تعيـد بعد ذلك صياغـة ما تدوِّنه خلفي؟

ذات يـوم أسـرَّت لـي واحدةٌ مـن زميلاتـي المختفيـات بتفاصيل زيارتهـا لبيـتٍ غامـض حيث نامت لعجائـز لا يفعلون شـيئا، ووصفت صاحبته بعبارة واحدة: «ست شَبه الموت كده».

أخبرتنـي أن صاحبـة المنـزل (والتي لم تنطق اسـمها أبـدا) كانت تحكـي لكل فتاة حكاية قصيرة قبل أن تدخل الغرفة، وكأنها تنيمها بها علـى طريقة الجدّات، ثم تخبط بظهر يدها خبطة خفيفة على المؤخرة بما يعني: «يللا».

ظـل ذلـك يحدث حتى جاء يـوم تجرأت فيه إحـدى الفتيات على التذاكـي أمـام زميلاتها بأن الحواديـت الصغيرة التـي تحكيها صاحبة المـكان قبـل أن تنيِّم الفتيات، تكون في كل مـرة ملخصا لحياة الرجل الذي سيشـاركها سـريرها، وهي تفعل ذلك بعد تبسـيط القصة وجعل أبطالها من الحيوانات والطيور. قالت بثقة إن المرأة، بطريقةٍ ما، تعرف تاريـخ كل عجوز يجيء إلـى هذا المنزل، ويبدو أنهـا كانت ماهرة في مسخه عندما تعيد سرد حكايته.

أخبرتنـي زميلتـي أن الفتاة التـي تبرعت بتوضيح وجهـة نظرها حول حكايـات المـرأة العجيبـة اختفت تمامـا. تبخـرت وكأنها لـم توجد في ذلـك المكان يوما. وتوقفت المـرأة لأيام عن الحكي، بـدت فيها مكتئبة وبشـيخوخة مضاعفـة. ذات يـوم، وكانـت لم تعـد قادرة فيمـا يبدو على المقاومـة، جمعـت صاحبة المنـزل الفتيات، كأنهن فـي طابور صباحي، وقالت: «طبعا كلكم بتسـألوا زميلتكم راحت فين. زميلتكم اتقتلت. ليه؟ علشـان حاولـت تدي معنى لحكايـات مالهاش معنى. إحنا مش شـغلتنا نفسر.. ولما بنحكي بنكون عاوزين نكدب مش نقول الحقيقة.. لكن أول ما الكدبة بتتصدق.. بنموت.. زميلتكم ماتت علشان صدّقت كدبة».

أخبرتنـي زميلتـي أن صاحبـة المنـزل قالـت هـذه الكلمـات ثـم تنهدت بعمق كأنها غسـلت يديها مـن الدم، وأنها بعدها عادت تحكي الحكايات، ورجع الدمُ لعروقها. ليس ذلك فقط، بل صارت تفعل ذلك بإسـهاب أكثر. قالت زميلتي وعيناها تلمعان: أنا كمّلت معاها علشان خاطر الحكايـات مش الفلوس.. وكنت عارفة اني لو اتقتلت بعد كده أو اختفيت مش هيكون بسبب راجل.. هيكون بسبب حكاية».

عندما اختفت زميلتي ذات ليلة ولم يُعثر عليها، كنتُ الوحيدة التي خمنتُ أن تلك الفتاة عوقبت لأنها أفشت حكاية ما، ربما تكون تلك الحكاية نفسها التي حكتها لي بالذات.

لكن الست روزا لم تحك لي أي حكايات، لم أرها مرة وهي تقتل من يخونون وصاياها، لم أعرف بأي أداةٍ تفعل، من كان يُساعدها ولا كيف تُوارِي جثث عجائزها وفتياتها معا. منذ وطأتُ هذا المنزل لم أر أبدا شخصا سواها، والزبون القادم من أجلي. لم يأت أبدا رجلان في الوقت نفسه، ولم أقابل في مرة إحدى الفتيات الأخريات اللائي تُغلق عيونهن هنا. ظلت هذه المرأة شاهدا وحيدا على حفنة أشباح معزولة ومظلمة يستحيل لأحدها أن يعثر على تجسّده، ومن أراد أن يظل حيا تحت هذا السقف، كان ينبغي أن يظل وحيدا.

أتكون كل حكايات زميلة المصنع عن صاحبة المنزل مختلقة لتُكمل جاذبية الرعب؟ لم تبدُ كاذبة في لحظة. أذكرُ أنها كانت تحكي لي كالمنومة، مأخوذةً وصوتها شاحب، بينما تصف المرأة التي فتحت لها البوابة، متواريةً خلف ملائكة الجبس التي تحرس فردوسها المتوحد، وحيث سأعرف مدى دقة وصف الفتاة المتبخرة فور أن تفتح لي البوابة المرأة نفسها، فيما تُقدّم نفسها كظلٍ للظلام، واسْمٍ غيرَ معلنٍ للموت.

تكتب الست روزا ما أمليه عليها، فيما أتخيل المشهد: رجلٌ يكتب رواية عن فتاة أثناء نومها، الفتاة تكتب رواية عن الرجل أثناء نومه، وامرأة تكتب رواية عن الرجل والفتاة أثناء نومهما. ثلاث روايات، على واحدة منها أن تنجو وتميت الأخريين.

شـعرتُ أنني في لعبة غامضة من تلك التي تجيد الســت روزا إدارة أوراقهــا. لكن، حتى لو افترضنا أننا فـي لعبة، يكتب فيها ثلاثتنا القصة نفسها من خلف ظهر الآخر، فمن في النهاية سيكون الضحية؟

وفـق الترتيـب الطبيعـي للمـوت، يجـب أن يموت العجـوز أولا، فالســت روزا، ثم أنا. لكن الواقع لديـه دائما ترتيبه المختلف، وقصتنا هـذه واحدة من تلـك القصص التي عندما يموت أحـد أبطالها يُخلِّف بقعة دمٍ كبيرة تتوزع على صفحاتها حتى تختلط الأنساب.

هـذه المرة، وكأنها تضعنـي في اختبار جديد، سـألت وهي مطرقة في أوراقها: هوا الراجل ده بييجي هنا بكُتُبه ليه.. علشــان يقرا؟ قبل أن أفكِّر في إجابة، أكملت القوادة سؤالها وقد رفعت عينيها لتنظر مباشرةً في عينيّ: والّا عشان يكتب؟

مدينة العجائز

(الليلة الخامسة)

لم تتخيل روزا الصغيرة أن تفكِّر في القتل. كانت الكلمة نفسها بالنسبة لها غامضة وأقرب ما تكون لمفردة غير موجودة في الواقع. لكنها ذات يوم تأملَتها للدرجة التي شعرت معها أنها قادرة على لمسها كجسد موجود. حدث ذلك في اليوم الذي قررت فيه أن تقتل روزا الكبيرة.

***

تلتفت مدام شهرزاد للحظة نحو العجوز وتقول كأنما تزوّده بحكمة: إنك تصبح قاتلا عندما تنطق كلمة قتل لأول مرة. ليس بالضرورة أن تصف بها ذلك الفعل الذي ينتهي بفتق في جسد شخصٍ ما. يكفي أن تنطقها وأنت تشعر بها، حتى لو كان السبب طقسًا سيئا أو مشاكسة طفلٍ في حافلة، وقد كان هذا ما حدث لروزا الصغيرة، ابنة العشرين، عندما رددت لنفسها في تلك الظهيرة البعيدة: صيف قاتل. كررتها لنفسها أكثر من مرة، وكلما نطقتها أكثر كلما تحوّلت المفردة، مرة بعد مرة، إلى شيء أكثر وضوحا، مثل سماءٍ غائمة تشقها الشمسُ فجأة. بمعنى أدق، لشيء مألوف، مثل حيوانك الأليف الذي لا تنفي

وداعتُه الطارئة شراسته الأصلية. كانت كلمة «قتل» هي حيوان روزا الصغيرة المفترس، الذي استأنسته فجأة في تلك اللحظة من يونيو 1967، ربتت عليه وتركته يلعق المناطق المكشوفة في جسدها، ولم يعد يتبقى سوى أن تأمره بالهجوم ليعقر صاحبة البيت.

عندما نطقت روزا الكبيرة كلمة «قتل»، شعرت بها روزا الصغيرة بداخلها هي. نظرت الفتاة مجددا، ولأول مرة بهذا التجرؤ، كأنها بتصويب تلك النظرة كانت تجرب رصاصتها الأولى. في العينين الوداعيتين، رأت نفسها. في ذلك اليوم تعرّفت على وجه عدوها الحقيقي.. وفي تلك اللحظة، قررت أن تقتل «روزا الكبيرة».

تتجه مدام شهرزاد نحو النافذة، حيث تلفظ المدينة نهارها. تبدو لفرط التذكر امرأة أخرى، تشحب بينما تزيح الستائر، مثل بريق مقموع.

«.. كان هناك رجلٌ يكتب رواية عن فتاة أثناء نومها، الفتاة تكتب رواية عن الرجل أثناء نومه، وامرأة تكتب رواية عن الرجل والفتاة أثناء نومهما. ثلاث روايات، على واحدة منها إن أرادت أن تنجو أن تميت الأخريين. شعرت الفتاة النائمة إذن أنها في لعبة غامضة من تلك التي تجيد الست روزا إدارة أوراقها. لكن، حتى لو افترضنا أنها في لعبة، يكتب فيها ثلاثتهم القصة نفسها من خلف ظهر الآخر، فمن في النهاية سيكون الضحية؟».

تفكر مدام شهرزاد بينما تكرر لنفسها ذلك المقطع من الجزء الذي حكته بالأمس في حكاية ابنتها، وقد أعادت صياغته، بتصرّف طفيف، بما يصلح كمدخل حكاية صغيرة مستقلة. تقول (للعجوز،

لكن لنفسها أكثر): كلمة زائدة، أو تبديل بسيط في الضمائر، قد يحوّل خبرا في صحيفة إلى حكاية لا تُصدَّق. اللغة هي من تكتب بنا وتنطق عبرنا وليس العكس. نحن أدواتها للتعبير عن نفسها. اللغة تتكلمنا. هل بإمكاني القول: نحن لغة اللغة؟

كانت مدام شهرزاد تشعر بالإلهام أمام الحكايات الصغيرة المكتملة التي تُحكى كجزء من حكاية كبرى، والتي يمكن بنفس القوة استعادتها واجتزاؤها، بحيث لا تبدو فقط على درجةٍ مُعتبرة من القوة، بل أكثر قوة من الإطار الذي يضمها. الحكايات الصغيرة أيضا تملك قدرةً لا نهائية على تكرار نفسها داخل حكايات كبيرة متجددة ومختلفة ظاهريا. إنها ما يجعل الناس بمرور الأزمنة يشتركون في الحكاية نفسها، وهي ما يجعل التاريخ ذاته رحلة دائمة من تكرار نفسه.

كانت مدام شهرزاد تشعر أن تلك الحكايات الصغيرة أشبه ما تكون بفئران السفن الغارقة، هي أول ما يقفز من الحكاية الكبيرة لتبحث عن أقرب شط تواصل فيه حياتها. حتى هذه اللحظة التي تقرفص فيها على سرير العجوز، لم تعرف شهرزاد أبدا حكاية صغيرة فشلت في النجاة بنفسها، بينما تعرف عددًا لا نهائيًا من الحكايات الكُبرى التي ماتت بموت أصحابها أو أزمنتها أو أمكنتها.

ثمة حكاية صغيرة أيضا في حكاية روزا الكبيرة وروزا الصغيرة. إنها «حكاية القواد الذي فقد مسدسه». كانت علاقة قواد البيت السري بمسدسه هي العلاقة الوحيدة الحقيقية التي عاشها ذلك الرجل مع

جسدٍ ما. بالتدريج، لم يعد المسدس ما يحميه، بل أصبح هو من يحمي ذلك المسدس.

- وذلك ما يحدث دائما.. يتحوّل ما نظنه سلاحنا لطفلنا اليتيم.

ذات يوم سرق أحدهم مسدس القواد. جن جنونه، فتش المنزل شبرا شبرا، فتش مومسات البيت جميعا، حتى روزا الكبيرة، سيدته ومستخدمته، رضخت للتفتيش. وكان من الجنون حد أنه جرد الفتيات من ملابسهن ومد يده في فروجهن بحثا عنه، لكن المسدس كان قد اختفى ولن يعود.

بدءا من تلك اللحظة فقد القواد رغبته في الحياة، وتوقف عن النوم مع العاهرات.

سيُسمّي مسدسه بعد ذلك «المرحوم» وكأنه يرثي ابنه الوحيد، سيظل يتلمس أي خبر عنه، بالضبط مثلما تتلمس روزا الكبيرة أي خبر عن ابنها المسروق، وسيتبنى وجهة نظر سوداء لخصتها عبارة لن يكف عن تكرارها: «لو شافني تاني بعد ما سبته يتوه حيقتلني وحيكون معاه حق».

عندما ييأس تماما، سيحمل على عاتقه مهمة إحياء سيرة مسدسه، مفشيًا جميع الأسرار التي لم يكن يجب أن تخرج، ومُعرِّضا التاريخ السري لسيدته لرياح جنونه، دون حذر أو حيطة، ودون أن تدري المرأة ماذا بوسعها أن تفعل أمام شجاعة عمره الضائعة التي ردّها له الفقد.

ذات ليلة، أسرّت القوادة لروزا الصغيرة بنفثة كراهية أن «المخصي» - هكذا كانت تُلقّب القواد في لحظات غضبها عليه - وصل لدرجة

الجنون التي جعلت منه شبحًا حقيقيا يهدد حياتها، أكثر خطرا من كل عفاريت البيت المسكون، التي كان يخشاها هو نفسه فيلهج في الليالي بآيات قرآن يقرؤها وهو نجس دون أن يفهم معناها. قالت روزا كأنها تنطق برجاء: «طب ما تقتليه يا ستّي». فتنهدت روزا الكبيرة: مش دايما الموت بيكون حل.. ده بسبع أرواح.. اللي زي ده ما بيموتش.

عندما طلبت منه روزا الكبيرة تصفية العجوز المتنكر، سألها يائسا: بإيه؟ مدت يدها بمسدس، لكنه أشاح بوجهه. قالت القوادة وهي تصوب المسدس باتجاهه: يبقى تموت انت.

التقط المسدس، منكسرا، وعينه في الأرض. نظرت روزا الصغيرة، التي كانت تجلس تحت قدمي سيدتها، لذلك الرجل الذي فقد معنى حياته بين يوم وليلة. رأت يده المرتعشة وهي تمتد لتمسك بمسدس روزا الكبيرة، رأت هزيمته وهو يشعر أنه أصبح خائنا لذكراه الوحيدة، وهنا أدركت أن قصة هذا البيت نفسها في طريقها للنهاية.

فيما هو مطرق، دفعت القوادة بروزا الصغيرة باتجاهه. استغربت الفتاة، فزجرتها المرأة: «إيه.. انتي مش بقيتي ست؟ ولّا لسه بنت بنوت؟» أدركت روزا الصغيرة في تلك اللحظة أن كذبتها انكشفت. سيفض ذلك القواد بكارتها، ولن يؤثّر نومها على إرادته الجارفة وجوع جسده الذي ضاعفته شراسة الفقد. نظر لها القواد، غير مصدق. أمسكها من ذراعها، بكفه التي تحمل المسدس الجديد، لامست روزا الصغيرة في تلك اللحظة الكائن البارد في الكف الساخن. خرج بها متجها نحو أقرب غرفة، حيث سيضاجعها، كمكافأةٍ مبكرة مقابل قتله

العجـوز المتنكر.. وكانـت تلك هي آخر مرة ترى فيهـا روزا الصغيرة لمعة عينيه».

تسـتدير مدام شهرزاد للعجوز: أقدمت ابنتي على القتل مرة واحدة مثلما سـتقتل روزا الصغيرة مرة واحدة. سأحكي لك ذلك بإسهاب في الليالي القادمة، على لسانها هي كما أفعل دائما. لو أنك سمعت صوتها مـرة لعرفـت أنني، حرفيا، أحكـي بصوتها، لتتيقن إلـى أي درجة نصير الشـخص نفســه عندما نتكلم. الصوت: إنه ما نرثه حقا. الصوت فقط، يمكن أن يظل نفسه في عمرين مختلفين.. إنه آخر ما يشيخ فينا.

- لكن ما يهمني أن أقوله الآن، وربما هو أغرب شـيء في رحلتي كقاتلـة، أننـا قتلنا ذات مرة الشـخص نفســه. في كل قصـة هناك دائما ذلك الشـخص الذي يُقتل مرتين. أؤكد لك، من واقع خبرتي العملية فـي هذه المهمـة أن ذلك ممكن الحـدوث.. وهو مـا يُذكِّرني بكتاب أعطـاه لي الرملـي ذات مرة، كتاب يبدأ كصديـق وينتهي كعدو، حتى أنـك تضطـر لقتله في النهايـة. لكن قتلك لـه يميته بالنسـبة لك فقط، بحيـث يمكنـك أن تعيـده للبائـع ليقرأه قـارئ بعدك ويقتلـه وهكذا. الغريبـة أن هذا الكتـاب كان عـدوا للجميع، وقتله جميـعُ من قرأوه. هنـاك بعض البشـر يملكون موهبة أن يكونوا أعـداءً للجميع، وبعض الكتب أيضا. كان ناشرُه يعلم ذلك فطبع منه نسخةً واحدة، لأنه يعرف أن أحدا لن يحتفظ به، وكان يحصل على نسبته من الباعة بعدد تداول النسـخة الوحيـدة، وبعـد كلّ ألـف قراءة كان يسـترد النسـخة ليكتب رقـم الطبعة الجديدة ثـم يعيدها للرملي. كل شـخص كان يقتل ذلك

الكتـاب بالطريقـة التي يُعـرّف بها القتـل ويجيد تنفيذهـا، تذبحه ربة البيت بسـكين الدجاج، البلطجي بالمطواة، ضابط الشـرطة بالطبنجة الميري، والكاتب بالكلمات. أنا دسستُ حقنةً في كعبه، حقنة مميتة، ثـم أعدته للرملي. كان كتابا يسـتحق القتل، لأنك تكتشـف بالتدريج أنه يشـي بـك. يقرأ أفـكارك أثناء القـراءة ويرددها بصـوتٍ عال. لقد انتشـر بين قرائه أن فيه مسًّـا سـحريا، ما اضطر ناشره لنشر توضيح في الصحف الثلاث يؤكد فيه أنه ضد الدجل والخرافة وأن كل ما يخص غرابة الكتاب يرجع الفضل فيـه للعلم وتوظيف التكنولوجيا الحديثة وليس للسحر والشعوذة.

- المهـم.. خرجتُ إذن من بيت المسـنّين لأفاجـأ أن المدينة كلها أصبحـت مـن العجائـز. لن تصـدق.. أول ما فكـرت فيـه كان ابنتي.. أتكون شـاخت؟ لا يجب أن تشيخ الآن.. كنتُ على استعدادٍ أن أتقبّل موتهـا دون شـيخوختها.. كنت على أتم اسـتعداد لقتـل العالم إن هي حصلت على يومٍ واحد لم تعشه بعد..

- فـي ذلك اليوم رأيـتُ الفتاة تكتب لأول مـرة.. كانت يدها، كيف أصف، مسـتيقظة؟ حسـنا، كانت يدُها مسـتيقظة، ممسـكةً بقلم، قلمك أنـت، الذي تركته في زيارتك الأخيرة، وعلى أناملها نقاط زرقاء دقيقة، لوثات حبر. كانت قد بدأت سطرا واحدا وكانت آخذةً في إكماله، عندما اقتحمـتُ الغرفة، وألقيتُ نظرة سـريعة متطفلة على مـا يمكن أن تكون كتابـة فتاة نائمة، فسـحبت اليدُ المسـتيقظة الأوراق على الفور ودسّـتها تحت المخدة كمن يخبئ مسدسا، ومن يومها لم أعد للتطفل ثانيةً.

تسـألـه: هل يمكن أن تكون حياةٌ، بكاملها، محاكاةً لرواية؟ ماذا لو عرفـت أن كل ما يحدث الآن، وما حدث، وما سـيحدث، مكتوبٌ في رواية ابنتي؟

تُغمـض عينيهـا: ما زلتُ أذكر تلك العبارة الأولـى، التي قرأتها في تلك اللحظات المسـروقة، كانت تصف مشهدا متخيَّلا في المستقبل، سـيقع بحذافيـره بعـد ذلـك: *«تـدس الإبـرة القاتلـة في وريـد الرجل العجـوز، وتشـعر براحة الاقتراب من الموت، كأن السـائل السـام بدأ يجري في عروقها هي»*.

تقترب منه: هل تعرف ماذا يعني ذلك؟

تمـرّر كفهـا على راحته، ثم تمسـك يـده كأنما تتأكد من تجسّـدها وبالمقابل تضع يده الأخرى على فخذها ليتأكد من سخونته الإنسانية: إن ذلك يعني أنني، أنا وأنت، في هذه اللحظة، لسنا سوى كلمات.

منزل النائمات

(الفصل السادس)

يوم أعلنوا رفع حظر التجول، صرتُ قاتلة.

انتصـف نوفمبر، وزحف البردُ متعكزا علـى الذراع الغاربة لعجوز جديد. لقد تلمّسـتُ برودته قبل أن يعبر العتبة إلى الحد الذي شـعرتُ معه أنه من جلب الشتاء معه.

في راديو جبريل كان شـخصٌ ما يقول بلهجـة المذيعين المحايدة «قـرر رئيس الـوزراء رفع حالة حظر التجول عن البـلاد بدءا من الغد، الخميـس، الرابع عشـر من نوفمبر عـام 2013». قالهـا دون أن يتوقف ليلتقط نفسـا، مُشـددا على العام وكأن الناس بحاجة لمن يذكرهم في أي سنة يعيشون.

في اللحظة نفسـها انفتح الباب لتقول الست روزا بطريقتها الآمرة: «يللا العجوز الجديد على وصول».

كنت أستعد للاحتفال مع جبريل، في الغد، بمرور ثلاثة أشهر على لقائنـا الأول. كنت أعرف أنه سـيجيء، حتى لو تأخر اتصاله الشـكلي بالست روزا، وكنت أفكر في الهدية التي يمكن أن أقدمها له.

أغلقتُ الراديو وقد سبّب لي خبر رفع الحظر انقباضًا غامضًا، كأن حياتي المختبئة هنا، متستّرةً بليالي المدينة الفارغة، قد تعرّت فجأة.

مـع كل مرة تتقلص فيها سـاعات الحظر كنت أنقبض، شـاعرةً أن خطرا ما يقترب من سر الغرفة المحظورة التي صارت هي العالم، لكن تلـك الليلة، كنت أحدس، سـتكون نهاية ما، ليسـت تلـك النهاية التي ينتهـي بعدها كلُّ شـيء، لكن التي تصنع بدايةً جديـدة، لا يعود بعدها الشخصُ نفسه، فليست النهاياتُ مثلما يعتقد الكثيرون شيئا واحدا.

كانـت السـت روزا تُملـي التحذيـرات الروتينيـة علـى «العجـوز الجديـد»، عندمـا سـمعتُ صوتـه. غير معنيـة بما يقول، مـددتُ يدي متحسسة المسدس، مسدسه.

كان صاحبُ المصنع وراء الباب، يتأهب لدخول غرفتي.

ذات صباح دخل صاحب المصنع عنبرنا مثلما تعوّد أن يفعل يوميا، لكن الفتاة التي تجلس إلى جواري ارتعدت كأنها شافت عفريت. كانت رعدة تجاوزت جسدها إلى جسدي الملتصق بها حتى أنني شعرت بها تسري في أعماقي كشرارة كهربية. بعدها، غَيْرَ محتملة الانفراد بالرعب، طلبت مني أن أكتم سرا، وفي الحقيقة كانت تريد أن أقاسمها الرعب لا السر.

همست في أذني: «أنا قتلته امبارح.. بإيديا دول».

قالتها ورفعت كفيها بين وجهينا كأنها تتأكد أنهما موجودتان. كانت محمومة، أخبرتني أنها كانت تذهب إليه في شقته، طلبت مني أن أعِدَها أن يبقى الأمر سرا، وأخبرتني بذعر: «لو حد عرف اني اتكلمت هاختفي».

كانت مثقلة بالشعور بالذنب وتريد أن تفرغ ضميرها في أذنٍ ما، دون أن تعرف أنها منحت السر، بالضبط، لمن يبحث عنه. قالت إنها بالأمس أفرغت مسدسه في جسده، وإنه تكوّم على الأرض مثل مصفاة يسيل الدَّمُ من كل ثقوبها.

- فكرت ما اجيش المصنع تاني.. بس قلت ان ده حيكون دليل ان انا اللي قتلته.

قالتها وهي تعيد النظر نحوه، بينما يقطع عنبرنا بابتسامته المعتادة، الابتسامة التي يولد بها جميع المطمئنين. لم أعرف إن كان مغزى

نظرتها الشعور بالامتنان لأنها نجت من جريمة، أم الرعب لحقيقة أن هناك شخصا يمكن أن ينهض من دمه ليواصل عمله في الصباح. كان المسدس في جرابه، كلبه الموثق، آمنا ولا يمكن أن يكون قتل صاحبه بالأمس.

تقدم منّا، أخرج منديله الكبير وفرده في الهواء، ليبدأ فقرة اليوم السحرية. سمعنا صوت طلقة نارية ستظل آذاننا بعدها تعاني الصمم أياما. رأينا الثقب العميق في جبهته، مكان علامة الصلاة الداكنة، وخيط الدم اللزج يسيل طوليا بامتداد وجهه. بعدها نهض، مبتسما بثقة السحرة، دون أن يلتئم الثقب أو يتوقف خيط الدم عن التمدد. اقترب من قاتلته وقال لها: طلّعي الرصاصة من شنطتك، دي عُهدة. وضحك لمزحته. بينما اليدُ المرتعشة للفتاة، التي لن تظهر ثانية أبدا، تفتح السوستة، وتعثر على الرصاصة، لتمد بها يدها المثلجة لراحة يده المفتوحة، قبل أن يعيدها لخزانة مسدسه بينما يغادر العنبر.

في ذلك اليوم، عرفتُ أن العجائز لا يموتون.

هل سأقتله أم سأكتفي بالوشاية للست روزا لتتولى هي الأمر؟ وهل بمقدورها أخيرا، كتتويج، وقد أنهت العديد من الفانين، قتل شخصٍ لا يموت؟

انفرج الباب. وخطا الجسدُ الرخو خطوته الأولى داخل الغرفة. غمرتني الرائحة التي تميزه والتي لا يمكن أن أخطئها: رائحة لا أحد. في هذه اللحظة اكتشفتُ، مستبدلةً الرعب بالدهشة، أننا نشترك في شيء أعمق مما تصوّرت: تلك الرائحة.

كيف لم أفكر من قبل؟ طالما وقف إلى جانبي في العنبر، أقرب ما يكون للالتصاق بي، تاركا عينه بين ثدييّ، بينما يغزو أنفي عبيرُ جسده المحايد وتذكارات جدرانه المتطابقة حيث كان عليّ أن أُسجن بين الماكينات وأبتلع الأزرار مع لعابي. كيف لم أنتبه؟ الرائحة: إنها رابطة عميقة حد أنها تستحق أن تصبح مصيرا مشتركا للشخصين الوحيدين في العالم اللذين كان لهما العبير النقي لجميع الأقمشة التي لم تلامس جسدا.

أولاني ظهره ليخلع ملابسه. بدا من الخلف، بظهره الخالي من الشعر وعجيزته اللدنة الضخمة المنتوفة، وبترهلات جنبيه، كامرأة لم تعد تحيض. وفي لحظة استدار، بثديين مترهلين استناما عند قوس كرشه، عبرا عينيّ في لمحة خاطفة بينما أُغمضهما.

ألقى نظرةً على وجهي. لقد كشفني. بدءا من الغد مافيش مصنع، لن أرى المزيد من البنات المختفيات كأن وجودهن إلى جواري وليس على المقعد الملعون كان إشارة مرورهن لعالمٍ يصبح فيه الناسُ غير مرئيين.

هل تصدُق وجهة نظر الست روزا بأن الناس يعرفون بعضهم بعضا من شكل ملابسهم وليس من وجوههم النائمة؟ يصعب أن أصدّق، فقد شعرت بانفعاله بينما يرى وجهي النائم. لسببٍ غامض لم يبد لي انفعال المفاجأة، بل الجوع.

بينما يتضاعف الحضور الفادحُ لرائحته ليعلن عن اقترابه من فراشي، مددتُ ذراعي تحت الوسادة لأتحسس المسدس، لكنني لم أجده.

في هذه اللحظة سمعت صوته يخاطبني، بمرح الساحر واستخفافه: مش تقولي ان انتي اللي سرقتيه؟

هُنا فتحت عينيّ. لقد انتهت التمثيلية.

كان صاحب المصنع يقف على حافة الفراش، وبين فخذيه، مكان عضوه الذي لا وجود له، كان مسدسه منتصبا.

غيـر مكتفٍ بعريي المكتمـل، بدأ ينزع الرمـوش الصناعية، ويزيل المساحيق. محا طلاء شفتيّ بمنديل الساحر، وجاس بأنفه في جسدي ساحبا رائحة العطر الثقيل التي تموّه رائحتي الأصلية. لقد كان يعيدني إلى سلطته.

بعدها نهض. ألبس مسدسـه واقيا ذكريا، قبل أن يسـتدير من جديد باتجاهي.

بـدأت يـده، مباشـرةً، تعبث بعضـوي. كنت أضم سـاقيّ بتشـنج، موقنةً أن طاقتي القصوى في ضم سـاقيّ لـن تفلح أمام يديه الغليظتين المزدحمتيـن بالخواتـم. لـم أفهـم إن كان قـراره فـي هـذه اللحظـة بمضاجعتي نابعا من الرغبة أم العقاب.

إنـه سـاحر. الآن أصـدق، فلـم يقترب مـن الوسـادة، لم يمـد يده لاسـترداد مسدسه من تحت رأسي. بل أعاد السـلاحُ نفسه إليه، مُرتدًّا للجسد الذي أطعمه، ومستقرا حيث يجب أن يكون.

بَرَكَ فوقي، مريحا مؤخرته فوق ثدييّ، ثم أولج المسـدس في فمي ممسكا أجمة شعري بقبضته. كلما ابتل المسدس بلعابي أكثر مع تسارع دخولـه وخروجه كانت عيناه تزوغان أكثر ويبدو من رجفة جسـده أنه سـيقذف منيّ العالم. من أي خطرٍ سـيحميني هذا الواقي الهش لو أنه قذف رصاصةً في حلقي؟

في لحظة، وفيما كان غائبا في تأوهه، مديرا عينين غائبتين في سقف الغرفة، أدرتُ فوهة المسدس لتُصبح لصق سرته، ودوّت الطلقةُ، مفجرةً بطنه.

أقعى على حافة السرير قبل أن يسقط جسده الزلالي مرتجًا على الأرض. رغم ذلك وجد الوقت ليتقيأ جميع الأشياء التي لن تُدفن معه. قطع قماش، وأزرارا، أكثر عددا حتى من تلك التي ظللتُ أبتلعها إلى أن أوقفني الحب. تقيأ جنيهات ذهبية ادخرها في خزانة جسده الأكثر أمانا من أي مصرف والتي يستحيل أن يصل إليها اللصوص. كان يتقيأ كل شيء، كأنه احتجز في جسده بلدا كاملا. بعد أن تقيأ الأشياء بدأ يتقيأ البشر، حتى أنني رأيتُ فتيات المصنع المفقودات يغادرن فتق بطنه متسربلات في طابورٍ طويل، راكضات نحو الباب بسرعة، بامتنانٍ مذهول للجريمة التي حررتهنّ.

فور أن أفرغ عالمه انهار ممددا على ظهره، وقد مد يدا متشبثةً بدراجتي القديمة المرتكنة للحائط. نزلتُ من السرير لأتأمل جثمانه. للحظة تحرّكت حدقتاه في عينيه المتيبستين، وحدجني بنظرة: النظرة التي ستبقيه في ذاكرتي حيا للأبد.

تجمدتُ في مكاني، غارقةً في دمه الذي كان من الممكن أن يكون دم بكارتي. غير أن النظرة طالت، ولم تعد العينان تنظران في وجهي، بل في وجهٍ آخر، أشد إشراقا ورحابة: وجه الموت الشاسع مفتوح العينين.

نزعتُ المسدس، مُستَشعِرةً تألُّمه جرّاء هذا الإخصاء. رأيتُ عورته الفارغة، بئرا مفتوحةً ومظلمة، وفي جبهته رأيتُ غطاء بئرٍ

أخرى، أكثـر خواءً. وجهتُ طلقةً جديدة نحوها. كانت نظرته في هذه اللحظـة، نظرته الميتة الآن، موجهةً لمسدسـه الذي خانه وليس لعمره الذي غادره.

حتـى بعد أن سـكن تمامـا، ظللتُ متشـككةً في حقيقـة موته، حد أنني كنت متيقنةً أنه سـيكون غدا في المصنع، قبل الجميع، بالخدوش المعتادة التي كان يُظهرها ليتركنا نخمّن اسـم صاحبة أظافر المتعة في ليلته السابقة.

لـم يكن رعب تحوُّلي لقاتلة هو شـاغلي في هذه اللحظة المرعبة، بل سؤال عودته للحياة، ذلك السؤال الذي فور أن عبر ذهني، هُيِّئ لي أنه ابتسم.

ركضتُ خارجة وأنا أصرخ باسم الست روزا. مثلما يصرخ شخصٌ في حلم، لم تُردِّد صرختي، ذائبةً في صمت البيت، أيَّ صدى. لكن الست روزا ظهرت رغم ذلك فور نطقي باسمها الذي لم أسمعه. كانت أمامي في لحظة، كأن الأرض انشقت عن ثوبها أولا قبل أن يملأه جسدُها لتعود أخيرا شخصا متجسدا.

لم تبدُ منفعلةً بالمسدس الذي يرتعد بين يديّ ولا بالدم المرتد إلى وجهي وجسدي كأنني أنا القتيلة ولستُ القاتلة.

دون أن تسألني عما حدث، سألتني: «لبّستيه هدومه؟»

لم تنتظر ردا، همهمت لنفسها بينما تقطع البروفة باتجاه الغرفة: «الموضوع ده محتاج راجل»، ثم أمرتني على عتبة باب الغرفة قبل أن تذوب داخلها: «روّحي بيتك وما ترجعيش غير لما اتصل بيكي».

كاد السؤال يقتلني، هل تقصد بذلك الرجل جبريل تحديدا، وقد حانت الفرصةُ أخيرا لابتزازه بي؟ دون أن أسأل ودون أن أنتظر أنا ردّها هذه المرة، أجبتُ: نعم. لم تعد الست روزا بحاجة لتتأكد أن ذلك الرجل أقدم على المحظور الأكبر في ذلك المنزل: أحبّني، وقد حانت الفرصة أخيرا ليدفع الثمن.

مدينة العجائز

(الليلة السادسة)

«يـوم الخامـس مـن يونيـو 1967، تحوّلـت روزا الصغيـرة إلى قاتلة.

كانت في سريرها، فيما أدار القواد ظهره وبدأ يرفع جلبابه. أول شيء استقبلته في عريه كان مؤخرته، وبدا لها ذلك خيانة غامضة لرجولتـه. عندمـا اسـتدار القـوادُ ليواجهها، مـدت يدها تحت المخدة سـاحبةً مسدسـه، المسـدس الذي سـرقته هـي وخبأته حيـث لا يمكن ليد أن تعثـر عليه: خلف صورة الزعيم، التي لم يكن أحدٌ ليجرؤ على زحزحتها، وفي تلك الكوة الفارغة، التي تناسـى الجميعُ وجودها، حيث لا يجرؤ أحـدٌ على التخيل، أن فيها مسدسا مصوّبا نحو ظهر الزعيم.

فـي لحظة، تجمّدت فـي هواء الغرفة أربع نظـرات، كان القوادُ ينظر إلى سـلاحه الضائع، فيما كانـت روزا الصغيرة تحدّق في الحفرة بين فخذيه، حيث يجب أن يوجد عضوه المفقود».

***

عندما تكوّمت روزا الصغيرة في سريرها انتظارا لدخول القواد، اكتشفت أن النوم خاصمها للأبد. في مراتٍ سابقة، كانت تلك اللحظات بين دخول رجل إلى الغرفة وتجرّده من ملابسه، كافيةً لتغلق روزا الصغيرة عينيها ولا تستيقظ قبل الصباح، لكنها عندما حاولت هذه المرة فشلت. لقد جاء ذلك العجوز المؤلف، أو العجوز المتنكر وهي الكُنية التي ستصبح له بعد ذلك، ليسرق النوم من عينيها للأبد، فحتى في أوقات نومها الطبيعية رفضت عيناها، كأنما بإرادةٍ مستقلة عنها، أن تُغلقا. وبعد أن كانت روزا الصغيرة هي فتاة العالم النائمة أصبحت، بسبب رجل، عينيْ العالم المفتوحتين.

تسأل مدام شهرزاد العجوز: بوصفك كاتبا.. وأصبحتَ بالفعل أحد كتّاب حكاية منزل الجميلات النائمات.. ما الطريقة الأنسب من وجهة نظرك لكتابة قصة كهذه لمرة جديدة؟ للأسف لم أقرأ روايتك بعد، فالبنت تكتب عليها. هل أنهيتها حقا؟ ومتى يمكن لشخصٍ ما أن يقول إنه أنهى حكايةً ما؟ ولو ظلت روايتك، لا قدّر الله يعني، مخطوطا وما اتنشرتش، هتبقى اتكتبت واللا لأ؟

تشعرُ أن فمه يهم بالنطق، هل قرر أخيرا أن يتكلم مرة وقد أسال السؤال لعابه؟ بسرعة تمد يدا خاطفة نحو شِدقيه بمنديل لتمسح خيط اللعاب النحيل الذي خمّنت أنه يسبق الكلمات، وبالتجفيف الدقيق لفمه المبتل، تتأكد مع اللعاب، أنها مسحت أي أثرٍ للكلمات.

- ذات مرة أسررتُ للرملي بحلمي أن أقرأ مخطوطا قبل نشره. قلتُ له إن الكتاب المطبوع أقرب لرجلٍ نقابله في سن النضج وقد

محا للأبد تاريخ أخطائه.. ولذلك فجميع هذه الكتب تشبه أشخاصا بلا تاريخ. أومأ الرملي بثقة طبيب يُشخِّصُ مرضا أليفا يشعر مريضه الساذج أن لا شفاء منه. مد يده دون أن يلتفت إلى عمق دُكَّانه وأخرجها برواية قائلا: «خدي دي .. دي مخطوط.. الكاتب ده كل رواياته مخطوطات».

لم أفهم، بينما أقلّب الكتاب المطبوع. قال الرملي بينما يُخرج روايات أخرى لنفس الكاتب، إن هذا الكاتب لم ينشر أبدا رواية في صيغتها النهائية، لأنه كلما أتمّ رواية، وبعد أن يدفع بها للنشر، يكتشف أن المنشور هو مسوّدة الرواية وليس الرواية. قد تكون المسودة الأولى، تلك المبدئية المبتسرة، أو الأخيرة، الأقرب للنص في شكله النهائي، أو أي مسودة في مراحل العمل المختلفة.. المهم أنه في النهاية، بينما يُقلِّب نسخة روايته المطبوعة بين كفّيه، يُفاجأ أن النص المنشور ليس نفسه ما دفع به للناشر.

يُغيّر ناشره «غير الأمين» أو «الملعون»، سيان، مقتنعا أخيرا أن ناشره الفرد أشبه بسفينة تغمرها الثقوب لذا يستبدله بناشر مؤسسي يشبه جدارا أسمنتيا مصمتا. يطمئن الروائي على «البروفات» حتى آخر رمق، بل ويذهب بنفسه للمطبعة (وهو مكتسبٌ انتزعه، حيث يحظى به الكُتّاب الذين ينشرون مع ناشرين/ أفراد ولا يُسمح به أبدا للكُتّاب الذين ينشرون مع ناشرين/ مؤسسات). يرى الصفحات نفسها، صفحات الرواية النهائية، وهي تضاعف من نفسها في ماكينة المطبعة (وبالمرة يتأكد أن كتابه مطبوع في ألف نسخة فعلا حيث لم يعرف أبدا

مع الناشـر الفرد الرقم الحقيقي لنسخ أي طبعة). يكون كل شيء على ما يرام، حتى إذا تلقف أول نسخة من روايته الجديدة، يفاجأ مجددا بأن مسـودةً ما ضحكت عليه وحلت محل «النص المكتمل». هكذا عاش روائيٌ ما عمره كله ينشـر مسـوداته رغما عن أنفه، مثل رجلٍ يكشـف سـرواله عن عورتـه بدلا من أن يسـترها. لم يعرف الكاتـبُ أبدا كيف حـدث ذلك، ولا أي يد عبثـت مرةً بعد مرة برواياتـه. رغم ذلك حقق نجاحـا معتبرا من رواياته/ المسـوّدات تلك، تُرجمـت للغاتٍ مهمة، حصل بهـا على جوائز، واحتفى أهم النقاد بأعماله. اكتسـب جمهورا كان دائمـا، ويا للعجب، يتغنّى بمناطـق وعبارات لم تكن موجودة في النصـوص المكتملة التي لم تنشـر لأن الكاتب، يفترض، حذفها لعدم رضاه عنها!

ظـل الروائي يشـعر بغصـة كلما ضوعـف نجاحه، كمـن يربّي ابن غيـره، ليس فقـط لأنه تعرض للخيانة نفسـها كل مـرة.. لكن لأنه كان يفكـر أنـه حاز كل ذلـك بكائنات غيـر مكتملة، مفكرا بحسـرة فيما لو كانت نصوصه النهائية هي التي نُشِرت!

ظل الروائي المغدور يفتش عن السـر، وظل السـر هو من يكشـفه وليـس العكس، حتى واتته فكرة غريبة بينمـا يفكر في آخر رواية كتبها فـي حياته، ولم يكـن يعرف بالطبع أنها آخر رواية سـيكتبها في حياته: قـرر أن يكتبهـا مرة واحدة، بحيث تكون المسـودة الأولى هي نفسـها النص النهائي: يفكر أولا، يُعدِّل المقطع في ذهنه، يشـطب ويمزق في رأسـه ثم يسـتقبل الورق صيغةً أولى وأخيرة. عندمـا صدرت الرواية،

وبينمـا يتلقف النسـخة الأولـى منها منتصرا، اكتشـف أنهـا عبارة عن أفـكاره حـول الرواية.. وهي الأفكار التي لم تكـن، بالطبع، نقية، فهي ملتبسـة أيضا بأفـكار يقظته أثناء السـرحان والتأمل حول الأشـخاص الذيـن يكرههـم، آرائه الحقيقية في أعز أصدقائه، تفاصيل سـريرية مع زوجات وقاصرات، الأشـخاص الذين خانهم دون أن يعرفوا وأولئك الذين يوقن أنهم خانوه دون أن يملك الدليل، رغبات في القتل والحرق والتمثيـل ببعـض الناس، آرائـه السياسـية بألفاظها العامية الشـوارعية الأبيحـة، والتـي يعبر عنها في حواراته الصحفيـة بطريقة أخرى، مرتبة ومهذبة. باختصار، كان الكتاب فضيحة أخيرة، كان وشايةً نهائية تبخَّر بعدها الروائي للأبد كأنه فص ملح وداب دون أن يعرف أحد إن كانت أخفته الأجهزة أم انتحر. المهم أنه اختفى، مثلما تختفي فتيات المصنع اللائي يجلسن إلى المقعد الملعون بجوار ابنتي.

تقول مدام شهرزاد بسجعٍ طفولي: نرجع مرجوعنا تاني لموضوعنا. بمـا إنـك كاتب وكتبت فعـلًا الحكايـة دي.. إيه الطريقة الأنسـب من وجهـة نظر حضرتك (تقول حضرتك بغنج الأصحاب) لكتابة الرواية دي من تاني؟

لكنه قبل أن يرد، أو كأنها تعرف أنه لن يرد، تواصل بعد أن تمسـح فمـه بمنديلها للمرة الثانيـة: الرملي بصراحة هوا اللـي فتح عينيّ على هاتين الروايتين.. أعطانـي عام 1994 «الجميلات النائمات» لكاوباتا، بترجمـة ماري طوق وبمقدمة كتبها جابرييل جارثيا ماركيز. بعد عشـر سـنوات بالضبط، في 2004، عاد الرملـي وأعطاني رواية كتبها ماركيز

بنفسـه هـذه المرة، هـي «ذاكـرة عاهراتـي الحزينـات» بترجمة صالح علمانـي، وهـا نحـن الآن في 2014، وقد مرت عشـر سـنوات أخرى، وأعتقد أنه يجب أن أحصل على كتابة ثالثة للرواية.

تقول: كان الرملي يحب هاتين الروايتين بشـكل شـخصي، وأذكر أنـه قال لـي في مرة: لعلمِك اسـكندرية فيها بيت كـده بس مين يكتب عنـه؟ وعندما سـألته: فيـن؟ منحني إجابـة غامضة، قـال ضاحكا: في الحتة اللي تعجبك.

- أنا أيضا فكرتُ يومها، لماذا لـم تحظ الإسـكندرية برواية كهاتين طالما فيها البيت نفسـه؟ رد الرملي سـاخرا: علشـان مـا فيش خواجة دخله.

- لعلمَـك، هذا النمط من البيـوت يوجد في مدن كثيرة في العالـم، المدن البحرية بالذات، ونشأ في كل بلد وفق ظرف مختلف، لكن كان لابد من ظهوره، والأكيد أنه ظهر دائما في أعقاب هزيمةٍ كبرى أو بعد حربٍ خاسرة.

-لـذا عندما أدركتُ قبل عـام بالضبط من الآن، مثلما أدركَت روزا الكبيرة قبل سـبع وأربعين عامًا مع العجوز المتنكر، أنك دخلت ذلك المنزل كـي تكتب روايه، رحبتُ في داخلي. في الحقيقة شـعرتُ أنها فائـدة عامـة، أنـت تكتب روايتـك، والفتـاة بدورها تحقـق حلمها في الانتقـام، وأنا أخرج بحكاية جيدة أسـتطيع أن أرويها، حكاية تحفزني على التذكر بعدما عشت عمرا كاملا من النسيان الإرادي.

هل تصدق أن ابنتي عندما فشلت في الحصول على شقيقة انتهى بها المطاف لأن تحصل على شقيقةٍ في قصة؟ لقد أصبحت الكتب بالتدريج واقعها الوحيد، وكان على الواقع الحقيقي، ما ندعوه الواقع الحقيقي، أن يحاكي خيالها إذا ما أراد أن يثبت، لها على الأقل، أنه صادق.. أما المدهش، فهو أن ذلك حدث. وقد كان بوسع الفتاة أن تصدق أن بيتا في حكاية هو بيت الواقع، وأن فتاة قُتلت على الورق كانت شقيقتها الوحيدة.

وعندما دخَلت ذاك المنزل، جاء ذلك الانتقام مثل طوق نجاة، يمنحها مبررا لإكمال المهمة التي نذرت من أجلها حياتها. ربما كانت تدرك أنها شخصية في قصة، ليس أكثر من ذلك، وأن لا وجود لها خارج الرواية التي جئتَ أنت لتكتبها، ولهذا ظهرت يومها مطالبة بحقها في الدور الذي طالما حلمت أن تؤديه.

لكن ابنتي (تلوّن مدام شهرزاد صوتها بجديةٍ مصممة) كانت تريد نوعا مختلفا من الانتقام، كانت تريد الخروج من عباءة الدور الضيقة لترفل في عباءة المؤلف الواسعة، وهكذا عكست الأدوار معك، حوَّلتك من مؤلف من لحم ودم الى شخصية قوامها الكلمات. كان هذا هو انتقامها الحقيقي، ثأرها، والذي نالته أخيرا، حتى لو كان ثمنه ضياعها الشخصي.

تثني شهرزاد ساقين متقاطعتين، وكانت تلك علامتها أنها ستعود لحكاية الروزتين.

- كانت روزا الصغيرة تعرف في تلك اللحظة أنه لن يفلح مع ذلك القواد أن تمثل حتى النوم، إنه الشخص الذي يعرف كل كبيرة وصغيرة في هذا البيت، وكان أكثر ما يعرفه قصتها هي شخصيا. هكذا أبقت عينيها مفتوحتين، انتظارا لالتفاتته وقد تعرى. لكنه عندما التفت، وقبل حتى أن تنتبه للدموع في عينيه، نظرت للفجوة الغريبة بين فخذيه، وشهقت رغما عنها. بدأ يقترب، وقد وضع قبضته بين فخذيه مشهرا إصبعين. بدا مثل طفل يرفع مسدسًا وهميًا، بينما تتكاثف دموعه كلما اقترب، مصوبا إصبعيه أكثر فأكثر باتجاهها، دون أن يحوّل عينيه عن مسدسه الذي يواجهه الآن.

مترددةً في ضغط الزناد، انكمشت روزا الصغيرة على نفسها أكثر، كأن غياب ذكورته كان سببا لرعبها أكثر مما لو وجدت هذه الذكورة. ألقى بجرمه الضخم فوقها مغرقا إياها بدموعه، وعندما لامست فجوته فجوتها شعرت بالضياع. لم يحاول انتزاع سلاحه من بين يديها، كأنه أدرك أنه طالما أضاعه فلا سبيل لاسترداده. وفي اللحظة التي تأكدت فيها أنه سيفضها بأنامله، ألصقت المسدس، مسدسه بجبهته. رأت عينيه الجاحظتين تحدقان في سلاحه المشهر نحوه ليقتله. كانت التحديقة الأكثر رعبا في العالم، حتى أن روزا الصغيرة أغمضت عينيها مجبرة، لتسمع دويّ الطلقة».

- رأت الثقب في جبهته، رأت تجمد العينين المعذبتين وهما تفقدان في لحظة كل عذابهما، كأنها حررته، بينما يسيل خيط دم لزج وبطيء قاطعا وجهه، شعرت به يسيل من بين فخذيها. نظرت لمسدسه

الـذي لا يـزال بين يديها، حيث لن تنسـى نظرة القـواد الأخيرة، نظرته المُعاتِبة، له، وقد تلقّى الخيانة العادلة، التي تنبأ بها ذات يوم.

تسـتدير مدام شهرزاد نحو حقيبة يدها، لتُخرج منها مسدسا، تلوّح به في وجه العجوز الممدد كأنها تفكر في ضغط الزناد، لكنها بدلا من ذلـك تقـول وهي تُقلِّبه في الهـواء كأنها تُثمِّنه بوجـدان تاجر: إنه نفس المسـدس الذي سـتقتل بـه ابنتي صاحـب المصنع بعد سـتة وأربعين عاما.

- سأحكي لك: *يوم أعلنوا رفع حظر التجول، صرتُ قاتلة.*

منزل النائمات

(الفصل السابع)

عندما تستيقظ في الصباح التالي لقتلك شخصًا ما، يكون قد بدأ حياةً جديدةً بداخلك.

إنه، هو، من يوقظك، أبكر من موعدك المعتاد، وقد صار، بدءا من هذه اللحظة، طفلك.

الآن فهمت لماذا يتمنى القاتلُ، أو يحاول، التخلّص من نفسه بعد جريمته بنفس الطريقة التي أنهى بها حياة ضحيته. يعتقد من حوله أنه الجنون أو الندم أو الشعور بالذنب، غير أن الأمر لُيس كذلك. إنه يحاول يائسا أن يقتل مجددا الشخص الذي، فور مغادرة جسده العالم، انبعث داخله بحياةٍ مضاعفة.. الشخص الذي صار بدءا من الآن خالدا، ذلك أنه أصبح فكرة.

الآن أعرفُ كيف كان صاحب المصنع يُخرج كل الأشياء من داخله. لم يكن ساحرا، كان ببساطة قاتلا للجميع.

هل كان يجب أن أقتل جبريل إن أردت الاحتفاظ به؟ كنتُ لأستبقيه بداخلي بدلا من ذلك الرجل الذي بقتلي له أسكنته للأبد أعماقي، وقد صار، حرفيا هذه المرة، جوهر رائحتي.

هل كان قراري بالانتقام هو مكافأتي الحقيقية لجبريل والتي ضننتُ عليه بها، فيما تخمد، مرةً بعد مرة، رغبتي في قتله كموجة منحسرة عن الشاطئ؟ ولأمنح بالمقابل مكافأتي لأكثر شخص تمنيت موته؟ لو كنت أعرف لفعلت.

استيقظتُ في اليوم التالي وأنا أشعر مجددا أنني أخون جبريل. لقد خنته مع جميع أجساد ذلك البيت، وها أنا أبدأ خيانتي له مع أرواحه.

سقطت نقطةُ دم من بين فخذي. نقطة واحدة، ثقيلة ولزجة وكأنها اختصارُ دمي.

عندما غادرتُ منزل الجميلات النائمات بعد وقوع الجريمة، عبرتُ شوارع المدينة الخالية، شوارع الخطر التي تحرس الدبابات فراغها حيث يتطلع المجندون الريفيون لبحرٍ غامض ورثت عيونهم زرقته دون أن يكونوا قد رأوه من قبل. يحرسون مدينة لا يعرفونها، وربما يكنون لها العداء. لقد جاؤوا من خلف جبالٍ خشنة وحقول موحلة ليجدوا أنفسهم أسرى تلك الرائحة التي يدسها البحر في الأجساد كمنوّم الست روزا. لذلك هم دائما مغمضون، يشعلون سجائرهم الرخيصة بصعوبة في مدينة الريح هذه القادرة على إخماد جميع النيران لتُبقي فقط على نارها، نار الفضيحة والشهوات غير القابلة للقمع، وهي تفعلُ ذلك، بدورها، دون أن تكون مضطرةً لتفتح عينيها كي تطالع وجوه أعدائها.

الإسكندرية نفسها فتاة مغمضة عبرها جميع العجائز، استوطنها كل غريب وهو يرى فيها سريره الصامت، ضاجعها الجميع دون أن تراهم، ثم تركوها وحدها تقاوم الغرق.

أوقفني أحد الجنود. نظر لي بعينين محاطتين بغابة نمش، ثم عدّل «البيريـه» الأحمـر ولافتة الشـرطة العسـكرية علـى ذراعه كأنـه يتقدم لخطبتـي. نظر في بطاقتي ثم في عينيّ، كأنه يتأكد أنني صاحبة الصورة أو كأنه اسـتغرب العينين المفتوحتين لفتـاة تمتهن النوم. بعدها انحنى ليتأمل إطارات الدراجة كأنه يتأكد أنها ليست سلاحا ما. علّمهم قادتهم أن الحياة لا يُمكن أن تُعاش دون أعداء، أن لا أحد يمشـي متجردا من سـلاحه، وقـد كانت فتـاة على دراجة فـي ليـل المدينة الخاليـة عدوًا غامضًـا، لم يخبرهم قادتهم شـيئًا عـن وجوده، وقد ظهـر الآن ليُربك حُماة المدينة المختبئة في بيوتها.

ألا يخمـن ذلـك الجندي أنـي قاتلـة؟ وأن هذا حدث منـذ دقائق فقط؟ ألا يشـم رائحة الدم الطازج الذي لم تُتح لي الست روزا الوقت لأغسـله؟ نظرتُ في عينيه حتى أنه هو من أشـاح بوجهه. لم أتخيل أن أكون بمثل هذا الثبات. اكتشـفتُ في هذه اللحظة أن القتل لا يجعلك تخـاف المحاكمـة أو المـوت، بـل يمنحك سـكينةً مضاعفـة أمام أي سُـلطة. يمنحـك ثقة قابض أرواح ويضع في نظرتـك ثبات إله. تركني الجنـدي أعبـر، وبالنظرة نفسـها عبرتُ جميـع الكمائن سـالمة. قاتلة تعـود إلى بيتها في حماية البنـادق. لقد نجوتُ بفعلتي، أو ربما نجوتُ لأنني فعلتها.

فكـرتُ وأنـا أعبر سـينما أمير أن حفـلات منتصف الليـل قد تعود مـع رفـع الحظر في الغد. شـعرتُ فجأةً برغبـة قاتلة في اسـتعادة هذه الظلمـة. كنـت أتفرج على الأفـلام الأجنبية التـي لا تعجب زميلاتي،

وأردد عبارات الترجمة الفصيحة كأنني أقرأها من كتاب عثر على قارئه الأخير.

لم أتفرج مرة على فيلم بصحبة أحد، ولم ألحق أبدا بفيلم من بدايته. دائما كان هناك سبب ما يجعلني أصل لمقعدي بعد البدايات. أفكر الآن: لقد قضيتُ عمري على مقاعد السينمات أحاول تخمين المشهد الأول.

أفكر الآن أنني أحب نهايات الأفلام أكثر من الأفلام ذاتها: هذه اللحظة حيث يصلُ القطارُ في موعده حتى لو أقلع متأخرا.. جميعنا شاهدنا أفلاما بعد بدايتها بقليل ولم نعبأ، لم نغادر المقاعد، فاتتنا ولادة الضوء مرة على الأقل في العمر، لكن واحدا منا لا يمكن أن يتحدث عن فيلم لم يشارك في مشهده الأخير، فطالما النهاية لم تأت، تستحق الحياةُ أن نحتفظ بمقاعدنا.

في نهاية الفيلم، فقط، أعود بطلة نفسي. يتفرج الممثلون عليّ، ويصبح مقعد المتفرج شاشة العالم. أبكي، أو أضحك، كأن كل ما حدث في الشاشة كان اختياري، كأن أحدا لم يتخذ كل القرارات نيابةً عني، أو رغم أنفي.

محجبةٌ منكفئة خلف شباك التذاكر، مانيكان معروض لصمت المدينة. سألتها، قالت دون أن ترفع رأسها عن خريطة المقاعد التي تبدو لها أعقد من خريطة العالم «الله أعلم»، ثم نظرت للسقف، كأن الله يشاركها فاترينتها.

في الصباح التالي، وبخلاف ما خططت، ذهبتُ إلى المصنع، ليس أملا في التأكد من موته، بل لكي أراه، وقد صار بقاؤه حيًا هو الأمل

الوحيد لأتخلص من حياته بداخلي. لم أُخرج حتى مسدسه من حقيبة يدي. تركته ليُخرجه في فقرته الصباحية، مستردا ضحكة الساحر التي كانت تُبقي المكان كله بعد مغادرته في قبضة الصدى.

لكنه هو من انتقم مني مجددا. لم يأت. وكانت الشرطة تنتشر داخل المكان، لفتح محضرٍ أو لتقفيله.

كنت مهزومة حتى أنني لم أنتبه إلى أن من تجلس بجانبي كانت واحدة من الفتيات المختفيات، منكفئةً على ماكينتها بسكينة من لم يتغيب أكثر من دقائق. ظلت تحدق فيّ دون أن تتحدث، وعندما تجرأتُ على النظر في عينيها، رأيت حدقتين لا ترمشان، قادمتين من ثلج عالم آخر، ربما عادت منه بجسدها لتجلس على مقعدها، غير أن روحها ظَلت عالقةً هناك للأبد.

سألنا الضباط، بطريقةٍ روتينية، بيقين أن الإجابة لا يمكن أن تكون هنا، ثم غادروا تاركين إيّانا لفوضى التخمينات المتضاربة التي تتبادلها الفتيات في الصالة الشاسعة عن طريقة موته. لقد مات غرقا، وبالرصاص، وبطعنة مميتة، واحترق داخل منزله، وفتك السم بأحشائه، وانقلبت به السيارة، وأنهاه قطار انحرف عن مساره، وسقطت به طائرة في محيط، ومات في سريره موتة ربنا. لغط ميتات كانت ترجمة لأمنيات هؤلاء الفقيرات بنهايته اللائقة أكثر منها أخبارا يدعمها الواقع.

حُسِمت الميتة في اليوم التالي، بخبر صحفي في إحدى صفحات الحوادث المحلية، انتهى للسبب الأكثر إحباطا، حيث «توجهت من

فورهـا قوة من القسـم الفلاني برئاسـة مأمـور القسـم ... الذي أصدر أوامـره بضـرورة العثور فورا علـى الجثة والقبض علـى الجناة، حيث ظهـرت الجثة فـي طريق «جمال عبد الناصر»، مصابـة بأعيرةٍ نارية في أكثـر من مـكان، دون أثر للطلقات في ملابسـها ما يـدل أنها تعرضت للقتل وهي عارية ثم قام أحدهم بإلباسـها. ويرجح أن القتل تم بسـبب السرقة وحدث في وقت حظر التجول، ما يعني أن القتيل نفسه خالف القوانيـن معرضا نفسـه للخطر فـي حالة الانفلات الأمنـي التي تعاني منها البلاد، ولـم يستدل بعد على الجناة».

اهترأت نسـخة الصحيفة التي تمزقت بين أيـدي البنات، حتى أنها عندما وصلت ليدي، لم يكن متبقيا من كلمات الخبر الممحوة سـوى اسم محرره: جبريل.

لم تتصل الست روزا طيلة الأيام التالية، كأنما تبخَّرت.

جازفتُ مرة منطلقةً بالدراجة نحو منزل النائمات، لكني وجدت البوابة الخارجية متشمعة بالشمع الأحمر وثمة عسكري ريفي يجلس أمامها غافيا ببندقيته المتقاطعة على صدره كأولئك الذين يحرسون الكنائس. نظر لي بارتياب، وشعرت أنه هو من يخشاني وليس العكس، فتجرأت لأسأله عما حدث للبيت دون أن أقدم سببا لسؤالي. قفزت نظرته الريفية إلى الدراجة، التي بدت له مثيرة للاستغراب أكثر من اقتحامي، ثم حدّق بعينيه الخضراوين في فمي، وقال باقتضاب إن البيت «اتشمع من كام يوم»، مكتفيا بشرح ما أراه بعيني دون أن يقدم إجابة. انتهزتُ فرصة طلبه «ولِعة» من عابر ليشعل سيجارته، وانطلقتُ فوق الدراجة التي تثير ارتيابه من فتيات مدينةٍ يحميها دون أن يعرف اسم شارعٍ واحدٍ فيها.

استعدتُ عنوان الجريدة، الذي حفظته منذ طالعته في كارته المهترئ. إنه على المعاش، لكنه قال إنه يتردد على الجريدة أحيانا. ماذا لو صعدتُ السلم، ثم أزحت الباب، لأعثر عليه، مرتديا ملابسه؟وماذا لو رآني؟

مدفوعةً بغيابه، فعلت. طالعتني اليافطة في مدخل العمارة الأشبه بقبو، تحمل اسم الجريدة المجهولة، والأكثر شيخوخة منه، على شكل سهم يشير لأعلى ذكرني بأسهم لعبة «السلم والثعبان».

في الطابق الرابع، حيث أشار السهم وحيث أكد البواب الصعيدي المتبطل المعلومة ليحافظ على صلاحياته، أزحتُ الباب الخشبي العتيق الموارب على حاجز زجاجي بدا مثل ندبة في جسد المبنى العتيق، تتحرك من خلفه ظلال الأشخاص الذين قد يكون واحدا منهم. تراجعتُ بسرعة، وقد اكتشفتُ أن الرجل الذي أريد العثور عليه ليس له وجود هنا، فأنا أريد ذلك الآخر، العاري كأنه ولد في سريري، والذي يقرأ من أجلي قصته وقصص الآخرين، لا لكي أنام مثلما يفعل العجائز مع أطفالهم، بل لكي أستيقظ.

هل أطرق باب بيته؟ كان يحدثني عن شقته، ووصف عنوانها بدقة، حتى صرتُ أشاركه فيها. تراجعتُ من جديد. ليس بهذه الطريقة نعثر على من غابوا.

اختفى البيت، والست روزا، اختفى جبريل، وأصبحت المدينة فجأة مسرحا تقف على خشبته كل الأدوار فيما عدا أبطاله. بقيت فقط الدراجة، ماذا لو كانت هذه الدراجة كلبا، قطا حتى كذلك الذي حدثني عن عبثه ببيته منذ تلقاه كإحدى الهدايا الكابوسية لعيد ميلاده؟ لقد منحني هذه الدراجة: شيء. محض شيء، كأنه أهداني صمته.

كنت أذهب للمصنع، وأعود للبيت، حيث لا شهرزاد لتمنحني حكاية. إنها، على وجه التقريب، تقطن بيوت الناس منذ تقاعدت، تحكي للعجائز كي لا يقتلوها. وفي الليل تختفي، كأنها تموت بغياب الشمس. كنت دائما وحيدة في هذه الشقة التي وُلِدتُ فيها حيث لم أنم أبدا في سريري منذ تعلمت المشي. وها أنا لم أعد أنام حرفيا،

ليس فقط لأن أسرة الإسكندرية انتهت، لكن لأنني لم أعد أستطيع النوم خارج سريره.

تذكّرتُ أحد الأسرّة التي نمت فيها. طرقت باب الشقة، فتح لي رجل شاحب. بدا كأنه كان ينتظرني، فلم يندهش وأنا أنسل في الفراغ من تحت ذراعه المتصل بحافة بابه. تركني أعبر بهدوء ثم أغلق الباب خلفي ودخل غرفته. توجهت مباشرة للغرفة الثانية، وكانت الشقة مكونة من غرفتين فقط. كانت ثمة امرأة نائمة، محتضنةً طفلة صغيرة. كانا يحتلان مكان شخص واحد، كأنهما جسد واحد، وقد تركتا مساحة معقولة من السرير تكفي لنوم مريح، لم يكن دائما يتوفر لي.

أغمضتُ عينيّ، لكن شيئا ما نبهني أن الجسدين المجاورين لي ساكنان تماما. لا حركة، ولا حتى أثر نفس. استدرت، تلمست ذراعي المرأة تحت قميص نومها الخفيف، كانا مثلجين. جسد البنت أيضا كان مثلجا. أدرتهما نحوي فاستدارا بثقل مستسلم. لقد كانتا ميتتين. حاولتُ أن أشد الفتاة خارج ذراعي أمها المطبقتين على خصرها لكن ذلك كان مستحيلا. كانت لهما النظرة نفسها، تلك النظرة التي لا توصف، لا لشخصين ماتا معا، لكن لشخصين ولدا معا. كانت الطفلة ترتدي مقاسًا أصغر من نفس رداء الأم، نفس اللون ونفس التفصيلة، ما عمّق شعوري بمصيرهما المشترك. كيف حدث ذلك؟ وهل يعرف الرجل الذي فتح لي باب الشقة ببرود أن في هذه الغرفة ترقد جثتان؟ فكّرتُ فيما ينبغي عليّ فعله، وفي هذه اللحظة تأملت باستغراب علاقتي بالموت، لأن الفضول هزم الخوف والرعب

وحتـى الدهشـة. كنـت أريد أن أعـرف كيف ماتتـا، لم أكـن حزينة أو مندهشـة لأنهمـا ماتتا. لم يكن السـبب أنني لا أعرفهمـا، لأنني عندما أفكـر الآن في أبي وشـقيقتي أتأكد أن ما يحزنني حقـا أن قصة موتهما ليسـت مكتملة، وأنني لو عرفت ما حدث، لن يعودا ميتين. الحزنُ ابن القصص الناقصة.

خرجـتُ للصالـة. كانت غرفـة الرجـل مغلقة كما هـي. لم أعرف كيـف أطـرق بابـه وماذا أقـول له لـو فتـح؟ عـدتُ للغرفة. بعـد قليل تعـودت موتهمـا، حتـى أن مـا كان يمكن أن يدهشـني حقـا بعد ذلك هـو اسـتيقاظهما، أو اكتشـافي أنهما علـى قيد الحياة. ظللـتُ مرعوبة مـن ذلـك الهاجس، كأن الموت أصبح أماني الكامل في هذا السـرير. استيقظتُ في الصباح التالي وهما على وضعهما. عبرتُ الصالة حيث كان الرجـل يتنـاول إفطاره وحيدا. لم أسـأله عن شـيء، فتحتُ الباب بهدوء وخرجت. لأيامٍ طويلة تالية صرت أرتعد كلما نمت على سريرٍ يشاركني فيه شخصٌ علي قيد الحياة.

لقـد تعاملتُ مع جبريل كميـت، وربما هذا ما جعلنـي آمنة. لكنه، وقـد فقد الآن ذلك الموت فجأة، مشـعلا انتظاري، تأكدتُ أن الرعب الحقيقـي كان فـي حقيقة بقائـه حيا.. وقد صـرتُ غير مسـتعدة لتقبل موته.

ذات يـوم لمحته فـي المصنع. هل حدث ذلـك؟ كان يتطلع بعينيه في قطيعنا واقفا عند عتبة العنبر. غير أنه التفت بسرعة لحظة أن التقت عينانا، مغادرا. ركضتُ. رأت الفتيات ركضي الفزع. ظل يركض، وأنا

خلفه، هذا جسـده، هذه بذلتـه العتيقة وقد عاد يرتديهـا حين انقطعت ليالينـا، كيف يركض بهذه السـرعة في سـنّه هـذه؟ تجعلنـا الرغبةُ في الهـرب نرتد لطفولتنا. ظل يركض. ظللت أركـض. قطعنا المدينة في الركض غير عابئين بالعيون المستغربة التي تتطلع لرجلٍ عجوز تلاحقه مراهقةٌ غير قادرةٍ على اللحاق به.

ظـل يركض. ظللتُ أركض. وفي لحظة وجدتني أمام بوابة منزل الســت روزا، وكان هو قد اختفى، بينما جندي ريفي يعيد التطلع إليّ، متشـككا إن كنتُ فتاة الدراجة نفسـها، لكنه أدار رأسـه بسـرعة، بينما يسأل أحد العابرين ببقية سيجارةٍ مطفأةٍ بين شفتيه: معاك ولعة؟

«خلصي شغلك وتعالي».

كان صوتُ الست روزا، لكنه بدا صدى صوتٍ قديم لم تعد تملكه.

بدا أن عبارتها خرجت من فمٍ لم يعد له وجود. واحدة من تلك العبارات التي تنطقها الذاكرة، أو يبعثها الماضي، وقد صارت بلا زمن، ودون أي دليلٍ على أنها تُنطق الآن.

الدراجة متربة. تأملتُها كمن يتأمل امتدادا غامضا لجسده. لقد كففتُ عن استخدامها بعد ليلة الجريمة. ليس لأنها دليل ينبغي إخفاؤه، لكن لأنها كانت وسيلتي للوصول إلى مكان واحد، مكان كان رجلًا.

تلمستُها فيما عبارة الست روزا لا تزال تتجوّل في أنحائي. كانت عبارة مبتسرة وبلا وجهة كأنها طفلها التائه. تبدو الدراجة الآن أصغر حجما مما كانت عليه عندما أهملتها واعدةً نفسي (وربما وعدتها أيضا) أنها ستعود للحياة غدا أو بعد غد. الغدُ دائما أبعد مما نظن. إنه يومٌ ما في المستقبل، هو وحده من يقرر متى يصل. كانت تفقد وزنها، كأن دما وهميا كان يكبر بها وتجمّد الآن وتركها مثل عجوز ينكمش أمام السنوات. إنها آخذة في أن تشبهه، وربما أنا أيضا، أنا التي صارت

تشـيخ بمجرد النظر. هل تقلصَت أم أننـي من كبرت؟ يجعلنا الغياب، على عكس ما يعتقد الكثيرون، أكثر اقترابا من أجسادنا. كنتُ أكبر، منذ رأيتـه لآخر مرة، منـذ ودّعني بالقبلة الأخيرة علـى جبيني مرددا كلمته الأخيـرة الثابتـة «حنتقابـل»، بينما يخـرج لهواء المدينـة الذي ضاعفه الحظر وقد بات بلا أنوف تمنحه معناه. كنت أكبر. أرى جسدي يتغير، هـل هي بداية النضج أم أول الشـيخوخة؟ لا أعـرف. لم أعد للنوم في البيـوت الغريبـة، لكني أيضـا لم أنم في سـريري. احتبسـتُ في بيتي، يحملنـي التـرام مثل مقعـدٍ زائد للمصنـع ويعود بي. كأنما اسـتيقظتُ للأبد عندما اختفى الرجل الذي لم ير عينيّ مرة.

كيـف قضـى حياته خلال تلـك الأيام؟ وكيف أصبح جسـده؟ هل أصبح جسـد رجلٍ آخر مثلما أصبح جسدي جسد واحدةٍ أخرى؟ هل قطع خطوات جديدة باتجاه شـيخوخته أم ارتـد عائدا باتجاه طفولته؟ وفكـرتُ للحظـة: ماذا لـو وقعت المقابلـة القادمة وأنا بجسـد عجوز شائخة بينما هو الشاب الفتي الذي كانه ذات يوم؟ هل سيظل يحبني؟ أم ستذوب روحي في عينيه مع جلدي الذائب؟

إنني أكبر، ولا يزال جسـدي يتنكر لي كأنما يستأذنني في الذهاب. يلفـظ حتى الأشـياء التي كانت جـزءا منه حد أنني صدقـت أنه يتغذى عليها، كأنه يغير هويته، دون أن أملك سلطة عليه، وقد صرت المتفرج الوحيد في صالة خالية.

نبهتنـي زميلاتـي فـي المصنـع لتوقفـي عن عـادة مضـغ الأزرار. ضحكـت، لكـن عندمـا قالـت إحداهـن سـاخرة «تلاقيهـا بتحـب»،

استغربت، ربما ارتعبت، ما الذي يجعل الآخرين يكتشفون الحب في الغياب؟

هل ثمة علاقة ما بين الحب والتوقف عن ابتلاع الأزرار؟ لأتحدى نفسي قبلهن، التقطت زرا، رفعت به يدي لأعلى، ليراه الجميع، في تحدٍ، كأنما في رهان، ثم وضعته في فمي. لأول مرة أجد صعوبة في ابتلاع زر. استجمعت كل لعابي لأزيحه للوراء، لكني فور أن نجحت وجدت نفسي أقاوم رغبةً مميتة في التقيؤ. ركضت نحو الحمام، حيث تقيأت جميع الأزرار التي ابتلعتها منذ بدأت عملي بهذا المصنع. رأيتها تتدحرج أمامي في غابةٍ من الألوان المتنافرة، ولم أكن بحاجة لعدها، فقد كنت أعرف أنني حتى هذه اللحظة كنت قد ابتلعت خمسائة وثلاثة وسبعين زرا.

عدتُ شاحبة، كأنني تقيأت طعام عمري، وصوبت لهن نظرة صارمة وعدوانية، ولم أتحدث قط حتى نهاية اليوم، ولا لأيامٍ متتالية. ألهذه الدرجة جعل مني امرأة؟ لماذا شعرت إذن أنه ظهر في حياتي ليعيدني طفلة؟

هل هن صادقات؟ هل أحبه؟ أي خطأ اقترفته؟ إنه خطأ يتجاوز القتلِ، أن أقرر قتل رجل لأرتمي في حضنه. لكن إن لم يكن الحب خطأً فماذا يجب أن يكون؟ صوابا؟ ومتى صنع الصوابُ حاضرا؟ متى عَلِق الصواب بالذاكرة؟ لقد كانت ذاكرة جبريل التي سكبها إلى جواري بالضبط سيرة أخطائه. وذاكرتي، التي تفصلها بالكاد عن الطفولة أيام لا تعني شيئا لرجل مثله، ماذا كانت غير إخفاقاتي الصغيرة

وعجـزي عن اتخاذ القرار؟ ووجودي في ذلـك البيت، ونومي عارية، والمسدس النائم تحت الوسادة، ما كل ذلك إن لم تكن أخطاءً تمسك بيدنا لتقودنا للمسـتقبل وللنهاية معا؟ الصوابُ الوحيد الذي تسـمح به الدنيا هو ألا نكرر الخطأ، وفي هذا اعترافٌ، من الصواب نفسـه، أن مهمتنا الحقيقية، مهمتنا الوحيدة الممكنة، هي البحث الدائم عن خطأٍ نقترفه لأول مرة.

جـاء مدير جديـد للمصنـع، واتخذ القتيـل مكانه في صـورةٍ على الحائط. نسـخة جديدة من نسـل الرجال المتطابقين، باللكنة نفسـها، بمسـدسٍ جديـد يسـرح فـي أول فخذه. إنـه سـاحرٌ أيضا. قـدّم فقرته الأولى بعد دقائق من ظهوره، أخرج أشـياء كثيرة، لم يكن بينها نسخته المخبأة بداخلي.

ذات يوم بعيد قادم، عندما يشيخ صاحب المصنع الجديد، سيذهب لنفس البيت، ربما أكون أنا وقتها الست روزا، صورةً من القوادة مثلما هـو صورة مـن القواد، في نفس عمرها، وبزي الحـداد، ومثلها، وجها لصمت العالم. ثمة بيوت لا تموت، وُجدت منذ بدء الخليقة وسـتظل للأبـد. علب أصـداءٍ تختزن جميع الأصـوات التي عبـرت العالم، لا يجب أن يعريها الضوء، لأن ذلك إن حدث، لن تكون نهايتها، بل نهاية العالم. ربما لذلك لم يُذكر منزل السـت روزا في اسـتمارات التعداد، فـي دليـل التليفون، في الوثائق الرسـمية، في الخرائـط، وربما لذلك، عندمـا تجرأوا أخيرا وحاولـوا إغلاقه، تراجعوا بسـرعة، قبل أن يحل العقاب بمدينة اليقظة.

مدينة العجائز

(الليلة السابعة)

فور أن قتلت القواد، شعرت روزا الصغيرة فجأة بوجودٍ ثقيل يسكن أعماقها، كأن ذلك الرجل بدأ حياةً جديدة بداخلها ولا سبيل من الآن فصاعدا لإنهائها. لكنها انتزعت نفسها بسرعة متذكّرةً أن ثمة مهمة أخرى تنتظرها. غادرت الغرفة عارية إلى غرفة روزا الكبيرة، دفعت الباب الأملس بفوهة المسدس، حيثُ رأت، لأول وآخر مرة في حياتها، سيدتها عاريةً تماما، تتأوّه بألم عمرها كله، تحت رجل.

***

قبل أن تُكمل شهرزاد ما حدث من روزا الصغيرة بعد أن قتلت القواد، تتجه من جديد نحو حقيبة يدها، تعيد المسدس لجوف الحقيبة لتُخرِج صفحة جريدة من قَطع التابلويد، ظنها العجوز في البداية جريدة «أخبار الأدب» التي توقف عن متابعتها منذ سنوات.

- كان «الرملي» يزوِّدني بأية قصاصة تتناول روايتي «الجميلات النائمات» و«ذاكرة عاهراتي الحزينات»، وأغلبها بالطبع كان في المجلات والصحف الأدبية، ومن بين تلك المواد هذا الموضوع.

تفرد صفحة الجريدة فوق ساقيه كأنها تبسط خريطة. كانت صورة كاتب ثلاثيني تؤطر الصفحة التي توزّعت كلماتُها على أربعة أعمدة، تحتها اسمه وفي ذيلها إيميله.

- نُشر هذا الموضوع ضمن ملف بعنوان «بيوت المخيّلة» بتاريخ الثامن من أغسطس 2010، وفيه اختار «طارق إمام» أن يكتب عن منزل الجميلات النائمات. منح موضوعه عنوانا متسائلا «منزل نائمات أم مدينة عجائز؟» كان يبدو أنها شهادة انزلقت للنقد، فأصبحت شهادة بروح المقال، أو مقالا استعار طابع شهادة، المهم أن الموضوع كان يتوفر على هذا القدر من الانتهازية.

ما استوقفني هو الجزء المعنون فرعيا بـ«ماذا لو كتبتُ الجميلات النائمات لمرة ثالثة؟» وهو بالتحديد الجزء الذي انزلق أكثر من غيره للتنظير. العنوان المتسائل أبرز قدرا من التواضع والحيرة، فيما بدا أن الروائي جاء ليمارس تعاليا ما على الروايتين القصيرتين.

«هل يمكن، وفق قراءةٍ ما، اعتبار «الجميلات النائمات» لكاواباتا و«ذاكرة عاهراتي الحزينات» لماركيز روايةً واحدة في عشرة فصول مروية بصوتين، يسرد كل منهما، بالعدل، خمسة فصول في المساحة نفسها تقريبا؟ أم أننا ببساطة أمام روايتين كل واحدة منهما مؤلفة من خمسة فصول، كُتبت إحداهما لإشباع رغبة طفوليةٍ لدى كاتب في سرقة رواية تمنى أن يكون هو كاتبها وجعل منها روايته الأخيرة؟»

يقول إمام: بشكلٍ شخصي تعاملتُ دائما مع هذين النصين باعتبارهما وجهي ورقة واحدة، كما لو أن أحد الكاتبين كتب روايته على

أظهر الورقات التي تركها سابقُه. لذلك لا أذكر أنني في مرة أَعدتُ قراءة إحداهما منفردة. أفعل ذلك دون التزام بأسبقية إحداهما الزمنية على الأخرى. كنتُ فور انتهائي من إحداهما أكملها على الفور بالثانية، بعد إغماضةٍ سريعة كستارة هشة تقطع غرفةً واحدة إلى نصفين متساويين.

ويستطرد إمام: «بمنح الفرصة لهذه الفرضية، سنكتشف أننا أمام معارضة أدبية جوهرها التحوّل من التعدد إلى الواحدية، فبطل كاواباتا يخوض الرواية موزّعا جسده على ست «فتيات» فيما يكتفي بطل ماركيز بفتاة واحدة».

«ما الذي تغيّر بتحوّل إيجوشي العجوز بطل كاواباتا إلى «أنا» غير المسمَّى عند ماركيز؟»، يتساءل إمام، «إذا ما استثنينا بالطبع الرغبة البديهية لكاتبٍ محترف لا يريد لروايته أن تكون نسخة طبق الأصل من رواية سابِقِه على مستوى طبيعة السارد».

يقول إمام: «لنلاحظ أن كاواباتا لم يشر أبدا لمنزل الجميلات النائمات بوصفه بيت دعارة، واكتفى، محتشما، بمنحه سمت نُزل أو بنسيون صغير ليُبعد أي أثرٍ للشبهة الأخلاقية، وإمعانا في الاحتشام منح صاحبته تعريفا بورجوازيا آمنا بوصفها «مديرة المنزل». بالمقابل اختار جابرييل جارثيا ماركيز أن ينعته، صراحةً، بالبيت المشبوه، أو الماخور، الذي تديره، بلا مواربة، قوادة». وإذا كان كاواباتا، المتحفظ، قد أخفى اسم صاحبة المكان بينما منح بطله اسما مفردا بلا لقبٍ عائلي، فإن ماركيز فعل العكس بالضبط، كشف الستار عن اسم المرأة الغائب في الفصول الخمسة الأولى، اسمها الثنائي «روسا

كابـاركاس» وليس فقط اسـمها الأول، لكنه بالمقابل جـرّد بطله وهو نفسه سارده من الاسم.

«ثمة تناقـض صارخ هنا عند الاثنين»، يُكمل إمام، «فالأول يبحث عـن الحسـية المفتقدة فـي منزل «غير مشـبوه» فيما يبحـث الثاني عن الحـب العذري في بيت دعارة». ويرى إمـام أن كلا الروايتين انزلقت بطريقتها في الفخ الأخلاقي نفسه من حيث قصدت أن تنجو منه.

هنـا يُبدي إمام انزعاجه من هذه الثنائيـة الأولى، التي يراها «طرف خيـط لـن يلبث أن يجر خيوطـا لا نهائية مـن ثنائيات لن تكـف بَكَرة الروايتيـن عـن إفلاتهـا حتـى أن الروايتيـن تصبحـان فـي لحظـة، في جوهرهما، تمجيدا لفكرة الثنائية».

«يأتـي العجائز مـن المدينة بينما تنـام البنات في البيـوت. المدينة الشـائخة «تلـج» البيـت الشـاب، وبالقـوة نفسـها المدينة المسـتيقظة تضاجـع البيت النائم: إنها ثنائية تأسيسـية وسَـمَت الروايتين. وضمن هـذا «الإطـار» لـن تكـف الثنائيـات عـن التوالد آليـا: رجـل/ امرأة، عجـوز/ شـابة، مجـرب/ عـذراء، يقظة/ نـوم، ذاكرة/ حاضـر، أم/ عاهرة، جنس/ حب.. بل إن رواية ماركيز نفسها جاءت تتويجا كارثيا إذ جعلت من رواية كاواباتا، رغم أنفها، طرفا في ثنائية أدبية».

تتوقـف مدام شـهرزاد عند مقطـع وُضِعت تحت سـطوره خطوطٌ بقلم برتقالي فوسفوري، عرفت أنه قلم القراءة الخاص بابنتها. تنزعج لأنهـا فعلت ذلك، رغـم أنها نبهتها أكثر من مرة ألا تخطط في كتبها أو قصاصاتها. كان هذا يفسد على شهرزاد مفاجأة نفسها عندما تعيد قراءة

كتـاب ويبدو لهـا مصادرة تُحـوّل صاحب الكتاب نفسـه، وليس فقط الآخرين، إلى سـلطة على نفسـه عندما يُعيد القـراءة، ولذلك لم تفعل ذلـك أبدا. على جانبٍ آخر كان يرعبهـا خاطر أن يقع أي من كتبها في يد شـخص، لذا حرصت مدام شـهرزاد ألّا تخلّف وراءها كتابا يحمل أثـر خطهـا أو أفكارهـا أو قناعاتهـا أو تفضيلها الشـخصي لعبارة دون أخرى أو لفكرة على حسـاب فكرة. كانت تلك الآثار تبدو لها كبصمة الإصبـع التي يتركها المجرم في مكان الجريمة، ليقدم بنفسـه، طوعا، دليل إدانته. ووصل وسـواس شهرزاد حد أنها توقفت منذ سنوات عن تصفـح كتاب بيدين عاريتين. كانت تلبس «جوانتي» بلاسـتيكيا خفيفا يُبقيها آمنةً دون أن يُفقدها الإحساس بملمس الكتاب، وها هي ترتديه الآن.

تمـر بأصابعهـا علـى المقطع الـذي مارسـت ابنتُها سـلطتها عليه، وقد قوّضت الخطوط الفوسـفورية المهتزة سكينة الكلمات المتراصة كجيـش غير مهدد من النمل، تتمنى لو تسـتيقظ الفتـاة ولو للحظة كي تعاقبها، لكنها تواصل القراءة:

«وفـق هذه القراءة سـنصبح أمام سـارد مزدوج، يراقب نفسـه عبر الضميـر الثالـث «هـو» قبـل أن يعـرض، أو يكشـف، نفسـه بالضمير الأول «أنـا»، (ودعنـا من كافة التفاصيـل المتغيرة الأخـرى من طبيعة المدينـة لوصف البيـت من الداخل، يقول إمام، فلسـتُ بحاجةٍ لأخبر المتبجحين أن كل هذه السـنوات التي فصلت بين القصتين لا شـيء، والمـدن المتباعدة، كلها المدينة نفسـها، وهي تعيد تسـمية نفسـها في كل مرة لتُخفي حقيقتها، حيث البحر هويتها الوحيدة).

يُكمل: بالتالي فمعارضتي الروائية «إذا تسنت لي كتابة ثالثة، ستكون معارضة للروايتين معا بنفس منطق وجهي الورقة، معارضة تقوم على رواية من صوتين أيضا، بعددٍ متساوٍ من الفصول لكل صوت، هي أيضا روايتان تسيران بالتوازي عبر امرأتين هذه المرة وليس رجلين. إحداهما تسرد بالضمير الأول (أنا) حيث تتحدث الفتاة عن نفسها في موقفٍ محدد هو علاقتها بالعجوز داخل منزل الجميلات النائمات (معارضة مباشرة لموضوع الروايتين السابقتين)، والثانية بالضمير الثالث حيث يتولى راوٍ سرد حكاية المرأة الثانية بوصفها «هي»، وهي المرأة التي يمكن أن تكون الأم أو القوادة أو كلتيهما.

«.. أعتقد أن المثلث هذه المرة وليس الثنائية قد يكون التكوين الأساسي لحركة الشخصيات في الرواية، مع تبديل الضلع الثالث ليقسم بين الأم والقوادة، الغائبتين أو المهمشتين في النصين السابقين، ليصبح (فتاة، أم/ قوّادة، رجل)، مع منح أسماء للجميع.

تقفز مدام شهرزاد بعينيها، ما يؤكد أنها تنتقي مقاطع دون أخرى، قبل أن تسقط بإصبعها على بداية العبارة الجديدة التي تبحث عنها.

«ماذا يفعل عجوز ثالث لو ذهب إلى منزل الجميلات النائمات؟ أي قصة عليه أن يجدها؟» يكمل إمام: «لنلحظ: كلاهما، إيجوشي بطل كاواباتا وبطل ماركيز غير المسمّى، لم يفقد بعد القدرة على الانتصاب، وكلاهما لم يمارس الجنس في المنزل رغم أنه لا تعوز أيا منهما اللامبالاة أو العدمية. هل كانت معلومة أنهما ليسا عاجزين بعد محض معلومة فائضة؟ وكيف لمعلومة على هذا القدر من الخطورة

أن تبقى مضمرة وبلا وظيفة؟ كلاهما فضّل أن يمدّ بطله بفكرة «القدرة» وأن يجعله يتنازل عنها «طوعا». أليست هذه هي الذكورة في قمة غرورها؟

يتساءل إمام: لماذا لم يُقدم أي من العجوزين على اقتراف «المحظور»، أو «ما ينافي الذوق» أو «ما يجلب المتاعب»، وهي التعبيرات التي استخدمتها مديرة المنزل (أو القوّادة) كنايةً عن المضاجعة؟ وهي، أيضا، وعدُ الروايتين للقارئ بأن ذلك، في لحظةٍ ما، سيحدث؟ لماذا تسابق المؤلفان على إخماد القنبلة التي، ربما، بإخمادها، أخمدت السرد نفسه؟

يقول إمام إن هذا ما منح الروايتين، أو الرواية المكتوبة «وش وضهر» ذكوريّتها الفادحة، أكثر من البعد الأوّلي لفتيات عاجزات أمام عجائز يشترون بالمال ذاكرتهم، من حيث يفترض أننا أمام محكية ظاهرها العجز الذكوري.

هنا يسأل إمام: «أما آن الأوان ليقترف أحد العجائز، لمرة، المحظور؟» تقرأها شهرزاد بصوتٍ أعلى للعجوز، مراقبة الخط البرتقالي الأثقل من الخطوط السابقة تحت هذه العبارة، تخمّن أن ابنتها عادت لهذه العبارة بالتحديد أكثر من مرة وفي كل مرة كانت تؤكد على نفس الخط غير مكتفية بوجوده.

يقود هذا «إمام»، ككاتب محتمل للرواية، لاقتراح: الرواية الثالثة يجب أن يكتبها الرجل على لسان الفتاة.

تتوقف شهرزاد للحظة أمام ملحوظة كتبها القلم البرتقالي المضيء نفسه خارجا بسهم من عبارة الكاتب الأخيرة بعد أن أحاطها بإطارٍ بيضاويٍ مرتجل: لا.. الرواية الثالثة يجب أن تكتبها الفتاة دون وسيط.

تُكمل شهرزاد فكرة الكاتب التي قطعتها ملحوظة الشخصية: «أما آن للفتاة أن تتحدث؟ لا مانع حتى أن تسرد وهي نائمة، بل، إنها يجب أن تحكي حكايتها وهي نائمة بالذات، ودون أن تكون في حلم، بل في واقعٍ موازٍ، واقع لا يختلف عن الاستيقاظ في شيء سوى العينين المغمضتين هنا والمفتوحتين هناك، لكنه بالقوة نفسها واقعٌ لا يُصدق. ليست الفتاة في حلم، فهي نفسها حلم شخصٍ آخر».

لكن إمام يرى أن الصيغة الأمثل لكتابة الرواية لمرة جديدة هو قدر من الاقتراب من حيرة الكتابة نفسها، بحيث تكون الرواية تفكيرا في رواية، وليست إيهاما بأن ما يقرأه القارئ حدث بالفعل: اختار الروائيان «الإخفاء» (إخفاء الأم نهائيا بعدم إظهارها وإخفاء مديرة المنزل بجعلها محض وسيط، سمسار، بين الشيخوخة والصبا، إخفاء القتل كمحض تفصيلةٍ في الخلفية، وفي الأخير إخفاء الصنعة الفنية نفسها باعتبار أن الفن هو إخفاء الفن.. حتى لو حاول ماركيز على استحياء التلويح برواية تراقب نفسها لحظة تشكّلها، قبل أن يُجهض تلويحته على عجل دون أن يستثمر إمكاناتها المتاحة). يوضح إمام: (ربما تحتاج كتابةٌ ثالثة لقدرٍ من تعرية الصنعة بدلًا من الإصرار اليائس على إخفائها.. بحيث تكون المحصلة رواية واعية بذاتها، أو: ميتا رواية).

وحسب إمام، فإن الأمومة تفتقد الصورة فيما تفتقد القِوادة للصوت. بالتالي يجب أن يتجسد هذان العنصران المضمران في قراءة جديدة، داخل صراع. بينما يتطلب فعل القتل، الذي سيقفز للصدارة، الظهور، حيث يرى أن القتل هو «الجسد في قمة الإعلان عن نفسه»، وبهذا يتشكّل مثلث جديد.

-لاحظ.. إنه يغيّر صياغته بسرعة ليتحوّل إلى «الأمومة» و«القِوادة» و«القتل» بدلا من «الأم» و«القَوَّادة» و«القاتل». ذلك يعني، حسب قراءتي الخاصة للشهادة أن طارق إمام يرى أن الأهم ليس الشخصيات بل تمثيلاتها.. وهذا يعني أنه غير مهتم بأن تقنع الشخصيات بحقيقيتها أو بمعقوليتها.

بعد أن تسمح مدام شهرزاد لنفسها بإبداء الملحوظة، ترفع عينيها عن صفحة الجريدة للحظة لتراقب درجة تفاعل العجوز، فتقابلها حيرةُ عينيه. هل يمنحها نظرة اهتمام الكاتب بمقالٍ يعنيه، أم نظرة شغف المستمع الذي يريد القفز فوق الرواية والمقال وكل هذا «الهري» لمعرفة حكاية طارق إمام نفسه الذي يريد أن يكتب للمرة الثالثة الرواية من وجهة نظر الفتاة النائمة؟

تقفز مدام شهرزاد بعينيها. من الواضح أنها تتجاوز مجددا بعض المقاطع لمقاطع أخرى، لكي لا يصيب الملل العجوز، وقارئ هذه الرواية معا.

يتحدث إمام عن «إلهام الحكايات الصغيرة الغائبة التي تُنثر كجزء غير فاعل في حكاية كبرى، والتي يمكن بنفس القوة استعادتها

واجتزاؤهـا، حيـث لا تبدو فقط على درجةٍ مُعتبـرة من القوة، بل أكثر قـوة من الإطـار الذي يضمهـا. فالحكايـات الصغيرة تملـك قدرةً لا نهائيـة علـى اختبار نفسـها داخـل حكايات كبيـرة متجـددة ومختلفة ظاهريا». يقول إمام بيقين يشـوبه التعالي: «تلـك الحكايات الصغيرة أشـبه ما تكـون بفئران السـفن الغارقة، هـي أول ما يقفز مـن الحكاية الكبيرة لتبحث عن أقرب شـط تواصل فيـه حياتها. حتى هذه اللحظة لـم أعرف أبدا حكاية صغيرة فشـلت في النجاة بنفسـها، بينما أستطيع أن أحصـي عـددًا لا نهائيًـا من الحكايـات الكُبرى التـي ماتت بموت أصحابها أو أزمنتها أو أمكنتها».

تبتسـم وهي تقرأ سـطرا دفاعيا: «ولكـي لا يُفهم مـن تعليقي على الحكايـات الغائبـة أنه إدانة مجانية، فسـأترك في روايتـي حكاية غائبة علـى الأقـل، بل ربما أكتفـي بعنوان لحكاية لا وجود لهـا. ليكتبها من أراد من بعدي».

- تُذكِّرنـي هـذه الملحوظـة، وربمـا تذكـرك أيضـا، بشـيء ما في «حكايـة المـرأة التي تلـد العجائز»، والتي هـي، ربما، أكثـر حكاياتي اكتمالا.. أليس كذلك؟

مثل ناقدٍ في ندوة وقد نبّهه مديرُها لنفاد الوقت، تقرأ مدام شهرزاد: «هناك نقطتان في الرواية المحتملة، إحداهما تخص المدينة والأخرى صاحبة المكان».

تُكمـل: «تخلق المدن بيوتها، غيـر أن «منزل الجميلات النائمات» علـى وجه التحديد، نجـح في أن يصنع العكس: أتـى البيت بالمدينة،

والمدهش أنه لم يأت بها خارجه، بل داخله. أربعون عاما تفصل بين روايتين. إنهما مدينتان داخليتان بالمعنى الجمالي، إذ لا تطلان على شيء، رغم أنهما مدينتان ساحليتان بالمعنى الجغرافي. هذا تناقض أولي. ثمة بحر (نسمع صوته داخل البيت لكن لا نراه مرة).. بيت «خاص»، بل خاص جدا، أمام مدينة معممة، بل شديدة التعميم (بحيث يمكن أن تكون أي مدينة) إنها حتى بلا اسم في الروايتين، ولا نلمح بحرها إلا كصوت داخل المنزلين، كأنه دُفن هنا. هل هي رواية الهروب من المدينة؟ وبأية طريقة يمكن لرواية كهذه، في كتابة جديدة، أن تكون رواية مواجهة المدينة، ليس فقط باضفاء الاسم (حيث أعلن إمام كأنه يلقي بيانا: مدينة هذه الرواية بالنسبة لي هي الإسكندرية) لكن بالتجول في هويتها بوجدان راكب دراجة؟

من جديد تلمح خطا برتقاليا تحت السطر الأخير، قبل أن تقفز لمقطع آخر.

يستدرك إمام (يسأل نفسه فيما يبدو قبل قرائه) «وصاحبة المكان؟ إنها ليست أُما لأحد، ولا يبدو أنها، وهذا هو الأغرب، ابنة لأحد. إنها فردية فادحة، فردية لا يتمتع بها سوى الإله. أين يجب أن يكون مكانها في رواية جديدة؟ إنها الصمت، الذي يجب، لمرة، أن ينطق، حتى لو كان هذا النطق يساوي موته».

من جديد تقفز مدام شهرزاد بعينيها، إلى أن تسقط بسبابتها على سطر جديد كأنها تحول بينه وبين الهرب: «حاولت الرواية التي تعارِضُ رواية، أو الرواية المكتوبة بصوتين، الهروب باستماتة من الميلودراما

والمصادقات القدرية فإذا بها تحتفي بهما، وأعتقد أن من الملائم أن تجد الميلودراما مكانًا لنفسها في نصٍ جديد، وأن تعلن عن قدرٍ من هشاشتها دون تأفف من قدرية الفن الرخيص وهي تغزو نصًا مُحكم البنية يطمح في العين غير المتسامحة لقراء "الأدب الرفيع"».

في نهاية شهادته أو مقاله، تقول شهرزاد مُعلّقة، ينزلق الكاتب في فخ العاطفة، وهنا يتطرف باتجاه روح الشهادة بعد أن تطرّف باتجاه روح التنظير، حتى أنه يبدو كما لو كان يتوسل، ليقول بوضوح: «إن هذا النص هو حلمي الشخصي ككاتب، حتى أنني على استعداد لأن أمنح لغتي كاملة لفتاة مغمضة». المرعب أن إمام قرر أن يبدأ روايته المتخيلة بالعبارة التي قررت أن أبدأ بها حكايتي عن ابنتي، التي حكيت لك منها إلى الآن ستة فصول، حيث أكد مختتما شهادته: هل تريدون العبارة الأولى في روايتي؟ حسنا: «أنا حلم شخصٍ آخر».

– عندما قرأت روزا الصغيرة، وقد أصبحت الست روزا، شهادة طارق إمام أو مقاله، تذكّرت فجأة الرواية التي بدأها حبيبها، تلك الرواية التي لم تكتمل. وفكّرت فجأة أنها بشكلٍ ما روايته الأخيرة كماركيز. أخرجَت المخطوط المُترب، بدأت من جديد في تصفّحه في ضوء اقتراحات إمام، وقد وجدت في هذه الاقتراحات ترجيع صدًى ما لما كتبه ذلك الرجل البعيد، ذلك العجوز المتنكّر، الذي لم يعد له وجود الآن، والذي أودعها أوراقه مثل تركة ثقيلة وناقصة، تاركًا كتابًا ناقصًا لن يقرأه أحد. هل حكيت لك حكاية الكتاب الذي راحت كلماته عندما لم يقرأه أحد حتى اختفت تماما؟ كان ياما كان.

كان هنـاك كتـاب لم يقرأه أحـد. كان الكتاب الوحيد فـي العالم الذي لـم يفتحه شـخص على الإطلاق، ولـو لمرة، بدافع الفضـول حتى أو التقليـب الروتيني في الصفحـات. كان كتابًا يتيمًا، بـلا امتداد، فمثلما تنجب المرأة طفلها ينجب الكتاب قارئه. مع انعدام الاستعمال، بدأت الكلمات تضمر. لن تصدق، كانت تتسـاقط منه على الأرض كذبابات صغيرة ولا ينتبه الناس وهم يدوسونها بجزمهم. ظلت الكلمات تنزلق من الكتاب مثلما ينزلق الشعر من رأس آخذٍ بالصلع، حتى تبقّت كلمةٌ واحدة، تشبث بها الكتاب بجنون، فقد كانت الدليل الأخير على كونه كتابًا، كانت المعنى الوحيد المتبقي لوجوده.

قـرر الكتاب، الـذي فقد جميع كلماته بلا مقاومـة، أن هذه الكلمة الأخيـرة لن تضيع، كأنها جميـع الكلمات. تمنّى أن يعثـر عليه قارئ، وحبذا لو كان هذا القارئ كاتبا فأخذها وأنشأ عليها كتابا ودارى يتمها بعائلـةٍ مـن الكلمـات. لكن نضـال الكتاب لم يصمد طويلا، سـقطت الكلمـة فـي النهايـة مثـل حصن مغـدور. لكن هـذه الكلمـة الأخيرة، للمفاجأة، كانت هي من انتقمت. وخلافا لبقية الكلمات التي سـبقتها لمغـادرة الكتاب دون أن تفقد وجودهـا في كتبٍ أخرى، اختفت هذه الكلمة من المعجم أي من الوجود. كل الكتب التي احتوتها قبل ذلك خلـت منها في لحظة وكان على القـراء أن يخمنوها دون جدوى. لقد حقق هذا الكتاب اليتيم انتقامه الأخير في اللحظة التي صار فيها أعزل تمامـا، جعـل جميع كتـب العالم الأخـرى ناقصة، ومسـتحيلة القراءة بسـبب الكلمـة الغائبـة. ومـن يومهـا، نكتب ونقـرأ، نحـبّ ونحارب ونقتتل، بحثا عن كلمةٍ لا وجود لها.

تتجه شهرزاد من جديد نحو حقيبة يدها، تحت العينين الذابلتين للعجوز الذي يتبعها كأنها تقود عينيه.

- «إن أقصى طموحنا، نحن الروائيين، هو أن نعيد كتابة قصة»، يقول إمام في رسالة إليكترونية لروزا نفسها، ردا على رسالتها الإليكترونية الوحيدة له بعد أن قرأت شهادته.

تُدخل صفحة الجريدة بعد أن تعيد طيّها لتلائم تجويف الحقيبة. هل ستُخرج شيئًا جديدًا من صندوق باندورا الذي فُتح إلى جوار سريره ولن يُغلَق؟ لا تُفسد مدام شهرزاد توقعه. تُخرج يدها هذه المرة بورقة عادية من قطع A4.

- هذه صورة زنكوغرافية من الإيميل الوحيد الذي أرسلته الست روزا لطارق إمام.. اِسمع.

جمال بيت لا يسكنه أحد

عزيزي الأستاذ/ طارق إمام

المحترم

قرأتُ بكل الود مقالك أو شهادتك المعنونة بـ «منزل نائمات أم مدينة عجائز»، وانزعجت.

لماذا يجب أن أكون «صوتا» حسب تعبيرك؟ إن الصمت ينجب أبناءه مثلما ينجب الصوتُ أبناءه، لكن الناس يستكثرون أن يكون للصمت ابن. الصمتُ أيضا لغة، هناك من يجيد التحدث بها، ليهمس ويصرخ ويكتب إن أراد، لكن الكُتّاب يميلون لكل ماهو ظاهر، للمكتوب والمسموع، هل جربت أن تنصت للصمت؟ هل قرأت في يومٍ كتابا جميع صفحاته بيضاء؟ الأصعب: هل جربت أن تكتب كتابا تبقى جميع صفحاته بيضاء؟ صدقني، هناك من فعلوا.

رأيتُ في كلماتك دعوة جائرة لأكون بطلا، وكأن البطولة مزية يحرم منها أناسٌ ويحصل عليها بالمقابل أناس آخرون، رغم أن العكس هو الصحيح. أن تكون بطلا ما، لحياتك أو لقصة: ذلك هو

العقـاب، وهـو الاختفاء النهائـي، لأن الظهور الكامل لشـخص هو ما يجعله، للأبد، غير مرئي.

إن اقتراحـك لن يجعل حتى القصـة أجمل، صدقني. أنا مع جمال بيتٍ لا يسكنه أحد.

فـي جميـع القصص الناجحـة يوجد دائما شـبح. إننـا نكمل قصةً مـا بحثا عن ذلك الشـبح، دعني أبالغ: إننا نكمل قصـة ما لكي لا نعثر عليه.

لكـن، اسـمح لـي، كلامك كلـه نابعٌ مـن نقص جوهـري: أنك لم تجرب الشـيخوخة. لا تقتل الشـيخوخة الأمل مثلما قلت أنت ومثلما يظن جميع من لم يشيخوا، بل تتعامل مع حقيقته الوحيدة: إنه كلمة لا وجود لها، ذلك أنها متصلة بالمسـتقبل، والمستقبل، كما لابد تعرف، زمـن لا وجـود له. الأمل كلمة تشـير لنفسـها فقط، ذلـك أنه لا وجود لواقعٍ تحيل إليه خارج اللغة.

أنت تتحدث عن الأمل بمنطق ظهور الشبح، وهذا لن يحدث، لأن الشـبح إذا ظهـر لك، لك أنت شـخصيا، ينبغي ألا تعـود أنت أنت، أن تكون عجوزا، فهل تسـتطيع أنت أن تخـون زمنك لأخون أنا صمتي؟ في زمني تحوّلت الإسكندرية ذات مرة لمدينة عجائز، استيقظ الجميعُ في يومٍ ما متساوين في العمر، دعني أقول متساوين في الشيخوخة. قد يتكرر ذلك ذات يوم، لتصبح أحد عجائزه.

هل تقبل هذه الصفقة.. صوتي أمام زمنك؟

يحـب الكُتَّاب أن يحلموا نيابةً عن الآخرين، لكن ذلك يعني شـيئا واحـدا: أنهم لا يملكـون ما يحلمون به. لكنها فرصة أيضا لأسـتدعي حكايـة. ربمـا تفسـر لكَ شـيئا مـن مقصـدي، ولا مانع عنـدي من أن تسـتلهمها وتنسبها لنفسـك، فبعمل «سيرش» على اسمك عرفت أنك تكتـب الحكايـات أحيانا، وبقراءة شـهادتك أو مقالـك عرفتُ أنك لا تمانع في تسخين وجبة طهاها الآخرون.

سأرفق الحكاية في «الأتاتشـمنت»، إنها حكاية يعرفها جيلنا جيدا وتحكيها كثير من النسـاء لأبنائهن، عنوانها «المرأة التي تلد العجائز»، ربمـا لا تكـون مـرت علـى ثلاثينـي مثلـك أو ربمـا حكتها لـك أمك نقـلا عن جدتـك، لا أعرف، لكني أجـزم أنك لو قرأت هـذه الحكاية جيدًا، فسـتجد إجابات لجميع أسـئلتك: إنها حكايـة مكتملة، مكتملة كالموت.

مع وافر التحية والاحترام

روزا

تلتفت مدام شهرزاد للعجوز فيما تعيد نسخة الرسالة إلى ظلام حقيبة يدها، لتُكمل ما كان من روزا الصغيرة مع القواد في غرفتها:

ركضَت روزا الصغيرة، عابرةً فوق جثة القوّاد، وممسكةً، لا تزال، بمسدسه، وقد منحتها حقيقة أنها قاتلة في تلك اللحظة اللامبالاة اللازمة لتقتل الجميع. فتحت الباب لتنسلّ من بين لحم الفتيات المتجمعات لصقه، واللائي لم يجرؤن رغم ذلك على إزاحته، ظللن يتنصتن كأن الموت حكاية.

ظلت تتقدمُ مثبتةً المسدس في وضع التصويب كأنها ستقتل هواء البيت، قبل أن تفتح باب غرفة صاحبة البيت. كادت أن تطرق الباب، لكن المسدّس ذكّرها أن الموت لا يحصل على إذن بالدخول. رأت الساقين المرفوعتين كعلامة نصر تحت ابتسامة الزعيم، الذي هيّئ لها أنه يتحدث عبر صورته، قبل أن تنتبه أن فمه كان يتحدث عبر الراديو غير المطفأ ليعلن، كأنما للفتاة الممسكة بالمسدس بالذات، أن كل شيء قد انتهى.

رأت الفخذين المحمولتين على ساعدين قويين، لا يمكن أن يكونا لعجوز، يغوص بينهما الجسد الذي لا يمكن إلّا أن يكون شابا، غائرا في الجسد المتألم الذي يصرخ باسم الغائب، حتى هيئ لها، للحظة، أن القوادة تضاجع ابنها. سمعت تأوهاتها ولم تعرف، هل هي تأوهات التألم أم الهزيمة، لكن لحظة الشك لم تستغرق أكثر من غمضة عين.

كان حبيبهـا، الرجـل الـذي كان حتى فتحت البـاب رجلها، داخل المـرأة التـي كانت حتـى فتحت البـاب أمهـا، ألا يعني هـذا أيضا أنها تضاجـع ابنها بمعنى مـن المعاني؟ هو الذي لم يلمـس روزا الصغيرة حتى الآن ولـم يتعرّ أمامها مرة، كان عاريا، يلهث فوق المرأة وداخلها، يلعـق ثدييهـا، اللذين تهتـز بينهما صورة ابنهـا، مانحةً ابتسـامة أخرى للجسدين المكشوفين.

عندما التفتا، بصخب فتح الباب، بعد هذه اللحظة التي بدت دهرا، انتبهت روزا الصغيرة في ذات اللحظة أن الغرفة تضم ثلاثة عراة وليس اثنين.

رأت في عينيه خجل العالم، نظر للمسـدس في يدها. روزا الكبيرة أيضا نظرت، لكن لم يبدُ أن تهديد الموت في تلك اللحظة بات يساوي شـيئا. نهضت، أنزلت الصورة عن الحائط، تأبطتها، ثم حملت الراديو باليد الثانيـة، وغادرت الغرفة بهدوء، قاطعةً الصالة، وهي توجّه أمرها الأخير لروزا الصغيرة: ورايا.

لـم تكن تعـرف لمـاذا تنفذ أمـرا أخيرا وهـي مقتولـة بالخيانة. لم تتلفـت خلفهـا. لم تـره وهو يغادر البيـت بعد أن ارتدى ملابسـه على عجل، تاركا أوراقه في غرفتها.

روزا الكبيرة أيضا لم تلتفت، ظلت تصعد السـلالم نحو السـطح، تبعتها، مصوبةً المسدس نحو ظهرها، مستمعة للصوت المتقطع الذي يقول إن كل شـيء قـد انتهى، الصـوت الذي كانت صـورة صاحبه لا تزال مرفوعة الرأس في غرفة القوّادة، التي ستصبح غرفتها بعد ذلك.

عند حافة السطح، طوّحت القوادةُ بالصورة، التي انضمت لسيل صورٍ يحملها قطيعُ نمل انشق عنهم الشارع فجأة. ثم قذفت بالراديو، مراقبةً سقوطه حتى ارتطم بالأسفلت، الارتطام الذي خلف صوتا أعلى بكثير مما يجب، ليموت صوت الزعيم في هذا البيت للأبد، كأنه، بتهشمه على الأرض، انتهت الحرب.

ثم استدارت نحو روزا الصغيرة. عاريتان سقفهما السماء. كانت الفتاة قابضةً، لا تزال، على مسدسها بكلتا يديها، وقد شعرت أن المسدس، لفرط التصاقه بيديها، هو من يمسك بها. لكن روزا الصغيرة لم تر في تلك المواجهة سوى وداعة وحش فقد آخر مخالبه. كانت لروزا الكبيرة العينان المتجمدتان نفسهما اللتان غادر بهما القواد الحياة. خلعت سلسلتها، وقطعت الخطوات اللازمة لتصبح في أقرب نقطة من الفتاة، حتى تلامس العُريان.

ألبستها إياها، وبدأت بحرص تُعدّل القلادة حتى اطمأنت أن صورة ابنها توسطت ثديي الفتاة. وعندما صارت عاريةً تماما من آخر ما كان يستر جسدها، استدارت بسلام نحو حافة السطح، لتعبرها بسكينة، بادئةً سقوطها الأخير.

منزل النائمات

(الفصل الثامن)

حيـن أزاح بـاب الحجـرة ودخـل، بألـم حرمـان الأيـام الطويلـة المنقضية، رأيتُ شتاء العالم.

كان غارقـا، أكثر غرقـا من المدينة التـي تودّع عامها بأشـد الأنواء قسـوة. كأن ليس مطر المدينة الكاسح هو ما أغرقه، كأنه هو نفسه كان المطـر، وكان الدمع، كأنه السـيل، والغرق، والدم، وكل ماءٍ قادرٍ على أن يشعل الحرائق.

كان هو نفسه، الآن، سيل هذه المدينة التي ليست بحاجة لسببٍ كي تغرق، وسـيل كافة المدن، سيل جميع السموات وقد استجمع قبضته في الجسد الذاوي للخرقة التي دفعت الباب بجوع جميع الأزمنة التي عبرها متشككا إن كان عاشها حقا، دافعا الباب بقوة سقوطه من سماءٍ أخرى، سماء جائعة، أوجدت لنفسها مكانا في غرفة صغيرة، في مدينة منسية، لتمنح معجزةً أخيرة للعالم الذي بات بلا معجزات.

كان قـادرا، وحـده في تلك اللحظة، على الطفو فـوق بقايا المدينة المتهشـمة، وعبور الشوارع التي لا تقل تصدعا، لكي يصبح في لحظةٍ

هنا، ليس على حافة الفراش هذه المرة، ليس إلى جواري، بل في جسدي، بين أحضاني.

بكل ظمأ الأيام المنقضية، انهمر فوقي، كان يبكي، ينشج، حتى أنني تيقنت أن أحدنا لن ينهي الليلة حيا.

تأوهتُ. أي شيء أصعب على عاشق من أن يكون أول ما يسمعه من صوت امرأة نائمةٍ آهة؟ وضع نفسه بداخلي، وشعرت بلزوجة الدماء تغادرني لتتمدد على الملاءة. وشملني ألم، ألم يتجاوز بالتأكيد ألم الإيلاج، كنت أصرخ كأنني ألده.

أخيرا، صار لديّ الآن ما يمكنني أن أتذكره معه، لقد صرت على يديه عاشقة، وقاتلة، والآن أكونُ امرأة وأرتدُّ طفلة.

امتلكتُ بفضله سريرا لنومي بات هو نفسه سرير متعتي، سريرا واحدا لا أنامُ إلا فيه، أنا التي اندسَّت في أسرّة العالم ولم تنم. وشعرتُ فجأة أنني أكبُر، حتى أنني في كل صباح كنت أتمكن من رؤية الشعرات البيضاء الجديدة التي تغزو سواد روحي.

من جاء حقا هنا لكي يتذكر؟ هو أم أنا؟ هل أعارني شيئا من سنواته الماضية، سنواته الفائضة والتي كان بوسعه أن يستغني عنها ببساطة دون أن تُنقص شيئا من شيخوخته؟ وأي شيء منحته أنا، بالمقابل، له، أنا التي تملك بالكاد حفنة سنواتٍ لا تكفي شخصا لكي يولَد؟ لقد أدركتُ هنا، ولأول مرة، فوق هذا السرير وإلى جوار هذا الجسد الأقرب لحطام سفينة غارقة، أننا نملك حياةً واحدة، وأننا، وليس الحياة، من نموت.

في طفولتي كانت الحياةُ هي من تموت، تموتُ كلما فقدتُ شيئا، كلما ضاع مشبك شعر، كلما انمحى رقمٌ من الهاتف بعد غياب صاحبه، كلما دخل بيتٌ جديد نطاق الأمكنة التي لن أعود لطرق أبوابها، وكلما حَمَل الحبُّ أغراضَه.

الطفولة خطرة، لأننا فقط فيما نكونُ أطفالا، نكون خالدين. كل ليلة كانت نهاية الحياة وكل صباح كان بداية حياة جديدة لا تشبه سابقتها. حيواتٌ عديدة فقدناها، تذهب وتعود بيسر حد أننا لم نكن في يوم بحاجة لأن نحصيها، حتى أسماء الأيام، توجد في الطفولة فقط لكي ننساها.

كانت الأيامُ ابننا التائه، ونحن الأمهات اللاتي لا يمُتن قبل أطفالهن. نصفعها بسهولة من يطيح زهرا في ألعاب التبطل، ونُداوي جرحها في اليوم التالي بوردةٍ متربةٍ من حدائق الصُدفة.

فقط عندما كبرتُ، إلى جوار هذا الجسد العجوز الذي قرّبني من شيخوختي حد أنني صرت أراها خلف ظهري، أدركتُ، كمن اكتشف اسمه لأول مرة لحظة نطق الآخرين به، أننا فقط من يموت، أن لا أحد يطرد حياته من بيته أو يعيدها لغرفتها، أننا لسنا آباء أيامنا، وأن الحياة ليست كرتنا الضائعة، بل هي أمٌّ تغذي حنانها بألا تموت قبل أن تواري جميع أطفالها.

الآن، تحت شهيقه وزفيره فيما يغور في رحمي، أفقدُ دم البكارة، لا لأودِّع عذريتي، بل ربما لأعود طفلة.

أتذكـرُ الآن، نزهة أمي الوحيدة فـي طفولتي: كنا نزور المقبرة التي يُفترض أنها مقبرة أبي.

عندمـا كبـرتُ قليلا وتمكنتُ من النطق والسـؤال، صـار يجب أن يكـون لأبـي مكان ما فـي العالم الآخر حيـث أسـتطيع أن أزوره. بعد إلحـاح وافقـت أمي أخيـرا أن تريني ذلـك البيت الأخيـر الذي يعيش فيه. دفنَتْ يدي الصغيرة في كفها الناشفة ذات صباح، عبرت بي مدينة يوم الجمعة الوداعية والخالية، وعبرنا حوشـا واسعا باتجاه تراب أبي. يومهـا رأيتُ لأول مرة تلك البيوت الصغيرة المتطابقة التي ينام الناسُ وُدعاء فيها للأبد. كانت السماء صافية، أشد زرقة واتساعا هنا، وكأنها أقرب ما تكون لقاطنيها.

عند الباب الحديدي للمقبرة سـأطلب، متشبثةً بملابسها، بينما أمد يـديّ عبـر فرجاته، أن ندخـل، متخيلـةً أن أي مكان له بـاب هو مكانٌ صنـع لكي ندخله. كنـتُ أعتقد أنني يمكن أن أدخـل وأجلس مع أبي قليلا ثم أخرج. لكن أمي أخبرتني أن هذه البيوت لا يمكن لسكانها أن يستقبلوا الضيوف لأنهم نائمون على الدوام.

كان هناك طفل، موجود دائما، في المكان نفسه، بالملابس نفسها، يُطيِّر طائرةً ورقية مرتجلة مصنوعة من ورقة كراسة مسطّرة على شكل رأس سـهم. كل مـرة، كانت طائرتـه تطير بتحليـق منخفض للحظات وما تلبث أن تسـقط في التراب. كان ينحني وينفض عنها التراب كأنها

لقمـة، وكان بالفعل يقربها من فمه، ويمنحها قبلة، كأنها كسـرة خبزه، ثم ينظرُ إليّ.

هذا الصبي كان أول شخصٍ أحببته، حتى أنه بات السبب الحقيقي لتحمسـي لمصاحبـة أمـي لمقبرة أبي التـي لـم تعد تثير شـغفي بعد أن اكتشفتُ أن ليس بإمكاني رؤيته.

هـذه القبلات، كانــت أول ما تلقيته من قبـلات، وكل قبلةٍ أودعتها كسرة خبز بعد ذلك، كانت قبلتي له.

أتذكرُ الآن، بعد المقابر كانت أمي تذهب بي لحديقة «أنطونيادس» الواسعة. تقريبا هدتها فطرتها لضرورة أن تعقب نزهةَ الموت نزهةٌ في الحياة، كنوعٍ من تطهر، كتكفير.

كنتُ أرى طائراتٍ ورقيةٍ أخرى، طائرات لا تشبه طائرة المقابر، الواحدة منها كبيرة مثل فطيرة طائرة، مسدسة الأضلاع، وكل مثلث في محيطها بلون مزجج مختلف. كانت تطير بعيدا وعاليا، ولم تكن تسقط أبدا. خلف هذه الطائرات كان يركض أطفال، كنتُ أعرف أنهم سعداء حتى من دموعهم.

كان لهؤلاء الأطفال آباء. جميعهم كان لهم آباء، بعضهم عجائز كأبي، بعضهم أكثر منه عجزا حتى، لكنهم لم يموتوا.

كان هذا المكان يثير شجني أكثر من المقابر. كان هو ما يذكرني بموت أبي وليس تلك العلب المتطابقة التي تقول لطفلة إن الجميع يصبحون الشخص نفسه عندما يموتون.

أتذكَرُ الآن. ذات يوم سقطت واحدة من الطائرات الكبيرة بين قدميّ بينما أكتفي بالفرجة كالعادة، متقاطعة الساقين، على عُشب الحديقة.

تلقفتها مندهشة، واستغرقتني مقارنتها بطائرة صبي المقابر التي هي لا شيء على الإطلاق. لم يأت أحدٌ للسؤال عنها، فلم يكن في هذه السماء أكثر من الطائرات التي يمكن تعويضها.

حملتهـا معي للبيت. في الزيارة التالية للمقابر استجمعتُ جرأتي لأقتـرب من الصبي وأقـدم له الطائرة. نظر لي مهانا، حتى شـعرت أنه شـاخ بداخلـي وأن جسـدي مقبرة. ذلـك الطفـلُ كان أول عجوز أراه فـي حياتي، فقد كان جميع العجائز الذين يجب أن أراهم موتى عندما وُلِدت.

أسـتطيع أن أؤكـد الآن أنه كان عجوزا في تلـك اللحظة بينما ينظر لطفلـةٍ يفتـرض أنهـا في مثل عمـره، بهزيمـة جميع السـنوات التي لم يعشـها. ثمة أشـخاصٌ يختبئ العجـز في ملامح طفولتهـم ولا ينقصه سوى الزمن لكي يصبح مرئيا.

التفتَ من جديـد لطائرته كأنه لم يرني. طردني، دون كلمة، خارج مملكته التي لا سـلطة له فيها على شـيء إلا على قصاصةٍ تعصاه. نظر بكبرياءٍ للسـماء التي يترك فيها طائرةً تجبـره على الانحناء. هذه المرة لـم تسـقط طائرته. لم يخلصها من التراب ليمنحهـا قبلة. ولـم أعثر في طريق عودتي على كسرة خبزٍ واحدة تبقت من الآخرين.

أتذكرُ الآن، يومَ عرفتُ أن أبي ليس مدفونا هنا.

ذات يـوم، ظهرت امرأةٌ ترتدي الذهـب أمام باب المقبرة الصدئ. تشاجرت مع أمي لأن ذلك الذي تأتي من أجله وتقرأ له الفاتحة زوجها هي. لم تكن أمي ترد عليها، كانت تنظر إليّ أنا بينما تعريها المرأة أمام طفلتها اليتيمة وتجردها من حقها في أن تحصل، ولو بكذبة، على أبٍ ميت.

أمسـكت أمـي بيدي وقادتني نحـو مقبرة أخرى. قالـت إن المقابر متشـابهة وأنها أخطأت الطريق هذه المرة. لم تكن تعرف أنني كشفتُ كذبتها، لا لأنني حفظت الطريق، لكن لأن الطفل صاحب الطائرة كان، دائما، هنا.. إلا لو كان قادرا على أن يوجد إلى جوار جميع المقابر.

فـي ذلك اليـوم ظللتُ ألتفت خلفي حتى ماتـت المقبرة في عينيّ. ظنـت أمي أننـي أتلفت لأبي. في ذلك اليوم لم أفقـد أبي الميت، لكن فقدت الطفل، كان هو من مات عندما بدّلِ أبي، بقرار منا، قبره.

أتذكّرُ الآن، صار أبي ترابا في جميع المقابر.

تكــرر الأمــر مــع أمي مــرةً ثانيــة، وثالثة، كأنها تســرق فــي كل مرةٍ جثمانــا. ذات مــرة تجــرأتُ لأتدخــل، نظرتُ لهــا فوق وقلــتُ لعينيها العاليتين: «مش مشكلة يا ماما.. نشوف تربة جديدة».

حدجتنــي بنظرة لن أنســاها، وكانت المرة الأولى التــي رأيتُ فيها دموعها، والمرة الأخيرة التي احتضنتني فيها.

هذه المقبرة التي لم توجد أبدا، كانت كل ما يفترض أن أرثه.

أتذكـرُ الآن. ذات صبـاح، وقـد كبرتُ بمـا يكفي لأسـير وحدي، قررتُ أن أزور المقبرة الوهمية لأبي.

لـم أعرف سـببا لذلـك القرار المفاجـئ، لكنني وجدتنـي مدفوعةً بتحقيقـه، وكأننـي بالعثور على مقبرته الأولى سـأعثر هـذه المرة على جسده.

لقد اعتبرتُها مثواه، حتى وأنا أعرف أنه لا يقطنها، فهو مدفونٌ أيضًا في ذاكرتي، والذاكرة بدورها كذبة.

مهتديـةً بذاكرتـي المشوشـة، قطعـتُ طُرقات الطفولـة، والأحواش الذائبة تحت شـمس الشـتاء الهيّنة، حتى وصلتُ لمـا افترضتُ أنه مقبرة أبي. إلى جوارها، كان ثمة رجل، تمنحه لحيته الكثة وشـعره المنسحب بزحف الصلع سـنا أكبر من سنه. كان يضع سيجارة مطفأة في ركن فمه، منهمـكا، فـي محاولـة تطيير طائـرة ورقية لا تـزال ترفض بعـد كل هذه السـنوات أن تحقق أمنيته الوحيدة. في لحظة نظر إليّ. هل عرفني مثلما عرفته؟ سـقطت الطائرة بين قدميّ. انحنيتُ والتقطتها قبله. نفضتُ عنها التراب، ثم قبّلتها، في الموضع نفسه الذي طالما قبّلها فيه، وتركتها ليديه. لم ينطق. عاد لمحاولته. في هذه اللحظة فقط حلقت الطائرة وابتعدت.

تأملتُ اسـم العائلة المكتوب على الشاهد الرخامي. لم أكن أجيد القراءة عندما كانت أمي تصحبني هنا، وبالتأكيد كانت سـتضطر لتغيير

خطتها ذات يوم إن لم تتدخل تلك المرأة الغيور على عظام رجلها في ترابه. هل يكون أحد الراقدين بداخلها، بشكلٍ ما، أبي؟ ألا تكفي تلك العاطفة ليكون النائم خلف ذلك الباب أبا حقيقيا لي؟ ما الفارق بين رجلٍ للدم ورجلٍ للفراش سوى أن تسمي امرأةٌ أحدهما أبا وتدعو الآخر عاشقا؟

أيقظتني جلبةٌ مقتربة. كان سربُ سيارات سوداء فارهة يتوقف، ويقترب نعشٌ مني، حتى أنني شعرت به تهديدا شخصيا لي. إنه قادم لنفس المقبرة. سيُفتح بابها الآن. بإمكاني أن أنسلّ بحثا عن أب. ويمكن، بالمقابل، أن يصير ذلك الجثمان الطازج أبا لطفلةٍ تبحث عن رجل تحمل اسمه، حتى لو كان ترابا. لا أحد يعرف شعور طفلة، عندما تنطق اسمها مقترنا باسم رجل لا تعرفه.

لكنني انسحبتُ، لكي لا يهزمني مجددا تهديد شخصٍ يملك سلطة الدم التي لم أملكها أبدا، غادرتُ، مقررة أنني لن أستعير أبا جديدا في مقبرةٍ مجاورة، ومتأكدةً أنني لن أفقد أبي ثانيةً.

في ذلك اليوم، مات بداخلي أبي.

أتذكرُ الآن، بين الكتب الكثيرة التي كانت أمي تشتريها من الرملي، كان ثمة كتاب لا يُقرأ سوى في الظلام. كانت دائما تعنفني لأنني أقرأ في ضوءٍ شحيح، مانحةً إياي نبوءتها السوداء: «في يوم من الأيام عينيكي حتروح».

في ذلك اليوم بدت أمي سعيدة لأنها أخيرا عثرت على كتاب يلائم المزاج المريض لطفلتها. قدمته لي، وقالت: «ابقي اطفي النور عشان تعرفي تقريه». استغربتُ، ظننتها توجه لي ذلك التأنيب المبطن بالسخرية. لكنني عندما أغلقتُ باب الغرفة وبدأتُ أقرأ، اكتشفت أن صفحات الكتاب سوداء وبلا أي كلمة. فكرت في كلام أمي، أطفأتُ النور دون أمل، ظلت الصفحاتُ سوداء، لكن المفاجأة أن الكلمات أضاءتها مثل نجومٍ متراصة على صفحة الليل. مرتعبة، فكرتُ أن أشعل النور وأفتح بابَ الغرفة، لكن السطر الأول من الحكاية كان قد خطفني وانتهى الأمر.

أنهيتُ الكتاب، كان أمتع كتابٍ قرأته في حياتي، كان عنوان الحكاية «المرأة التي تلد العجائز»، في نسخةٍ مبسطةٍ للأطفال، وهي الحكاية التي لن أصادف بعد ذلك واحدةً أمتع منها أو أكثر اكتمالا. طلبتُ من أمي كتابا آخر على غراره. كانت أمي دائما تحفزني إن أكملت كتابا بأن تشتري غيره. وجميع كتبها كانت تشتري معها بالتوازي نسخا مبسطة لي، وما لا يتاح منها، كانت تبسّطه لي بنفسها في كراسات بخط يدها،

مثـل «الجميلات النائمات» لكاواباتـا و«عاهراتي الحزينات» لماركيز و«إله المتاهة»(*) لهربرت كوين وغيرها.

لكن أمي عجزت هـذه المرة عن الوفاء بوعدها، ورغم أن الكتاب كان يحمـل الرقم «0» في سلسـلة «المكتبة السـوداء للناشـئة» إلا أنها لـم تنجح في الحصول على أي واحدٍ آخر من نفس السلسـلة، حدّ أن علاقتهـا بالرملي نفسـه اهتزت لفترة، لأنها كانت قـد تلقت الوعد منه بتوفير السلسـلة أثناء شـكواها مـن طريقتي الغلط في القـراءة، قبل أن تتبنى الوعد وتنقله لي.

ظلّـت أمـي ترجـئ تنفيـذ وعدها بتوفيـر بقيـة الكتب التـي لا تُقرأ سـوى في الظلام، كل مرة بحجة جديدة، حتى جاء يوم اسـتبدلت فيه عبارات من قبيل «لما تخلصي الكتاب اللي معاكي»، و«لما تنجحي»، «لمّا تسـمعي الكلام»، و«لما تاخدي الأجازة» وكل تلك الإرجاءات، بأغرب إرجاء سمعته في حياتي، حيث قالت: «لما تكبري».

يائسـةً مـن انعـدام الفرصة، عـدتُ أحاول قـراءة الكتـب العادية، التـي لا تضـيء كلماتهـا إلا بانعـكاس ضـوء الشـموس أو المصابيح علـى صفحاتها البيضـاء. ظللتُ أكبـر، وظلّت أمي تـرى أنني لم أكبر بعـد لأحصل علـى كتاب ظلام جديد، وفقط، عندمـا كبرتُ بما يكفي ليشـاركني عجـوزٌ فراشـي، مغَمضةً بالضـرورة، حصلتُ علـى روايةٍ أخيرة يضيء الظلامُ كلماتها.

(*) «إله المتاهة» رواية لا وجود لها، نسبها الكاتب الأرجنتيني خورخي لويس بورخيس لكاتب أيرلندي هو هربرت كوين.

أتذكـرُ الآن. ذات مرة، فـي طفولتي، أصابتني حُمّى. لم تفلح معها مسـكنات أمي المجربـة ولا حقنها، وانتهى الأمر بـي محمولةً كخرقة إلى مستشـفى الحميّـات، حيث خصصت لي أمي سـريرا نظيفا تحت إشرافها.

هنـاك عرفـتُ، لأول مـرة، أية سـلطة تملكها تلك المـرأةُ في ذلك المستشـفى، طافيـةً فوق مهنتهـا البسـيطة كممرضة. رأيـتُ العجائز، ورأيـت مدام شـهرزاد وهي تتحـرك بينهم كأنها فـي عالمها الحقيقي. لا تكـف عـن الكلام. لا تنقل وقائع أو أخبـارا، بل قصصا وحكايات، متحدثةً وحيدةً وسط حشد من المنصتين. كانت هذه هي اللحظة التي تعرفـت فيها على أمي بشـكلٍ حقيقي، وفهمتُ أن غيابها شـبه الكامل عـن البيـت لم يكن ضـرورةً مهنية كما تدعي، بل دفاعـا عن وجودها. وحتى حين ستُحال للتقاعد، حين تستبدل المستشفى بالبيوت الغريبة، سأفهم أنها كانت تُكمل حربها الأخيرة لكي لا يبتلعها النسيان.

ذات يـوم، بينما أخرج محمومة مـن العالم وأعود إليه في موجات متقطعة من ضوء وظلمة تشـبه سـماء الإسكندرية، حكت لي عن بيت غريـب لا تفتـح فيه البنات عيونهن وتديره امـرأة ميتة. قالت إن عينيها كانتـا مفتوحتين بسـبب الموت لا الحياة، وإن أحـدا فقط لو تجرأ مرة ليسدلهما، لم تكن لتفتحهما ثانيةً أبدا.

سألتها «ميتة ازاي»، قالت «زي ما كل الناس بتموت.. كده»، فتحت عينيها على اتساعهما وأسقطت رأسها وأخرجت لسانها من جانب فمها وظلت لدقائق لا ترمش. ضحِكتُ مقهقهة، ثم خفتت الضحكة، تحولت لابتسامةٍ شاحبة ما لبثت أن اختفت بدورها ولم تعد أمي للحياة. هززتُها لننهي اللعبة، لكن وجهها ظل متيبسا، وبدأ لعابٌ مستسلم يغادر فمها. ارتعبتُ، وبدأتُ، باكيةً، أرج جسدها بالطاقة الذاهبة ليديّ المحمومتين، هنا ضحكت هي، لقد أرادت أن تطيل عمر اللعبة.

ضحكت هي، وتركتني أبكي إلى الآن.

كانت المرةُ الأولى التي أرى فيها أمي ميتة، وفَشَلت كلُّ محاولاتي بعد ذلك كي أُعيدها للحياة.

ظلّ يدخلني أكثر كلما تذكرت، أو ربما كنت أتذكر كلما دخلني أكثر.

كأنما كان يوسع لجسده ثقبا يعبر منه ليعيش بداخلي. ظللتُ مغمضة. هل يجب أن أفتح عينيّ الآن؟ هل يجب أن أخبره أنني أراه؟

سيمضي، لاهثا، تاركا أوراقه خلفه، دون أن أعرف إن كان نسيها أم تركها، سيكون قد كتب هذا المشهد، باعتباره مشهد النهاية، وقد جاء الآن، فقط، ليحوّله إلى واقع.

ألن يأتي مرةً أخرى؟ ما الذي يمكن أن أقدمه له كهدية أو كوداع؟

قلتُ سيعود، لأنه حتما سيعود، على الأقل ليتأمل حطامه، أو ليودِّعني عندما ينتهي نومي ويبدأ الموت.

وفقط عندما أغلق الباب خلفه، بدأت وردةُ الدم تتفتح على الملاءة.

في الصباح التالي، بينما أتأهب للذهاب إلى المصنع، سأواجه صاحبة المنزل بقرار عمري.

كان ثمة عجوز جديد سأستقبله في المساء. قلتُ لها وأنا أقفز فوق الدراجة: «ده آخر راجل». نظرت لي الست روزا ومنحتني إيماءة غامضة، بينما تخفضُ عينيها.

نظرت بين فخذي المستورين بفستان واسع. وتحت وردة الفستان الكبيرة التي جئتُ بها لأول مرة، ثبتت عينيها. لم ينتبني الشك أنها في تلك اللحظة عبرت قماش الفستان الرقيق، حيث رأت بقعة الدم التي سالت أمس.

مدينة العجائز

(الليلة الثامنة)

«ذات يـوم، وقع شـيءٌ عجيـب. فوجئَت شـهرزاد بانتفاخ غير عـادي لبطن ابنتها. ظنتـه في البداية انتفـاخ الموت.. لكن بطن الفتـاة النائمـة ظل يكبـر ويكبـر دون أن تتحلل الفتـاة ودون أن تتألـم.. وهنا اعترفت شـهرزاد لنفسـها، غيـر مصدّقة، بما ظلت تنكره. كانت الفتاة النائمة حُبلى».

***

تقول شـهرزاد: أحب أن أسمي الحكاية التي سأبدأ بها هذه الليلة: «حكاية الفتاة الحُبلى النائمة والأسئلة الخمسة الغائمة».

- كيف نامت ابنتي ولم تستيقظ؟

لا أسـتطيع التحديـد. ثمة أسـئلة بديهية تتحوّل بمـرور الوقت إلى أسـئلة بـلا إجابـات، غير أننـي أملك ردا واحـدا، يصعـب أن أترجمه لكلمات، ذلك أنه ردٌّ على المرء حين يقوله ألا ينطقه: إنني أقتل.

يُحـدِّق فيها العجوز المحتضر وقد أثارت كلمـة قتل لمعة عينيه. لا تلتفت للعينين المرتعدتين، تُخمِد البريق بدموعها، كأنها تخمد حريقا.

- إنهـا، ربمـا، إجابـة لسـؤالي وليس لسـؤالها، لكن الأشـخاص المقتربيـن مـن المـوت، مثلـي، يعرفون بعـد فـوات الأوان أن اليد لـم تُخلق لتكتب، بل لتُواري شخصا آخر التراب.

هـا هي تخبره أنها جاءت لتقتله. لكنهـا أيضا لا تعرف متى، وأين. هنـا؟ علـى الأرجح لا. فهناك مهمـة أخيرة عليه أن يقـوم هو بها، ولـم تكن مدام شـهرزاد على اسـتعداد للتضحية بهذه المهمة. إنها، ولأول مرة، تحكي لرجلٍ دون أن تكون قررت التفاصيل الصغيرة لمصيره.

- تحولتُ إلى قاتلة في اليوم التالي مباشرةً لنوم ابنتي.

فتحت لها يدُ روزا باب الغرفة، حيث وجدت شهرزاد ابنتها نائمة، في السـرير الواسع، محاصرةً بالستائر الداكنة، ومحتضنةً دراجتها وقد صارتا أخيرا شـيئا واحـدا. كانت منكفئةً مثل شـبحٍ متجمد وقد مدّت يدا ضائعة، يدا يائسـةً بدت في مشـهدها الأخير مثلَ تلويحةٍ تفتش عن أصابعها.

لـم تكن الفتاةُ ميتة، كانت نائمةً فحسب. عرفت مدام شهرزاد ذلك علـى الفـور قبل أن تجس النبض، فقد جعلتهـا مهنتُها قادرةً على رؤية الموت في وجه صاحبه قبل أن يصل.

- ولأول مرة أشعر كم أن النوم مخيفٌ أكثر من المـوت..

سـألت نفسـها: أين يمكن لشـخصٍ نائم أن يُدفَن؟ فقد أحسّت أن هذه الفتاة الحية إن لـم تستيقظ، فستتعفن في أحلامها. بعدها احتضنت كفهـا، بـدا نبضها المنتظم في مقدم رسـغها مثل دقات سـاعة خفية أو

إيقاعا جديدا لحياة شهرزاد القادمة نفسها. وهُيّئ لها أن تلك اليد الطفلة، في مشهدها الأخير، لا ينقصها سوى فمٍ لتصرخ.

- ردّدتُ اسمها في تلك اللحظة وأخذتُ أكرره كأنني أمليه على موظف المواليد الآن فقط ليثبت أن ثمة رضيعةً جديدة قد وُلِدت. كنتُ أفعل ذلك لأثبتَ لنفسي أنها موجودة، متذكرةً ذلك اليوم البعيد حين حملتها لأمنحها اسمها. يومها رأيتُ أسماءً عديدة تنتظر، بعضها يُحلّق في الهواء أمام أعين الأهالي الحائرة، بعضها تحت أقدامهم المتعثرة، بعضها يدور مع مروحة السقف الكبيرة التي كانت تطرد الهواء ولا تطرد ذباب مكتب الصحة الثقيل، وبعضها كان يتشبثُ دون خجلٍ بالملابس منتظرا مكانه في خانة الاسم الخالية. أسماءٌ كثيرة، كل الأسماء الممكنة كانت هناك، في تلك الغرفة، تتزاحم كي تحصل على فرصة. يومها كان ثمة اسم لم يحمله شخص من قبل. واحد من تلك الأسماء التي تحمل امتياز صلاحيتها لذكر وأنثى في نفس الوقت. تشبّث بملابسي، أنا فقط، كأنني أمه هو. توسّل أن أمنحه للوليدة، لكني هششته، يومها نظر للرضيعة، تلك النظرة التي لن أنساها أبدا. كانت فرصته الأخيرة، وكان يعجبني، لكنني لسببٍ ما، وبالطريقة التي يركل بها البشر عادةً فرصتهم الأخيرة، أرسلته للنسيان.

اقتربت مدام شهرزاد أكثر من سرير ابنتها حيث رأت عناق الفتاة مع دراجتها، محدسةً أنها لو ماتت، سيستحيل فصل الجسدين. كانت تذهب بها للعمل صباحا وتعود بها منتصف اليوم قبل أن تبحث في المساء عن سرير جديد. في يوم الجمعة كانت تذهب بها للمعمورة،

كأنهـا تنزّههـا هي. ظلّت تفعل ذلـك إلى أن عثرت علـى ذلك المنزل المشـئوم، أو عثر عليها، وجذبها مثل مغناطيسٍ هائل، جاعلا منها في لمح البصر شخصا آخر، قبل أن يودعها، بذراعٍ خرسانية، سريرا أخيرا ستُوارى ترابه.

- تعـوّدت أن تربطها بجنزير صغير فـي إحدى فرجات باب البيت الحديدي الـذي بات متعذرا تخمين لونه الأصلـي، كأن دراجتها هذه كانـت حيوانهـا المعدنـي، كلبها الذي يصـدأ لكنه لا يمـوت، والذي رأيته، في هذه المرة الأخيرة، يحرس أحلامها.

كانـت تقطع المدينة فوق دراجتها، وبمرور الوقت أصبح بوسـعها أن تفعل ذلك وهي مغمضة. المدينةُ كلها رأت الفتاة التي تقود دراجتها نائمة، مرة بعد مرة أسماها الناس البت النايمة، بينما يرون عبور الجسد الغافي، متجاوزا أي خطر.

توسـع لها السـيارات طريقا، والمشـاة الفزعون، رغم أنها لـم تكن بحاجـة إلى ذلك. كانت قـادرة أن تعبر بينهم بسلاسـة. كانت الأعوام التي عاشـتها في الدنيا حتى الآن كافيةً لتحفظ الإسـكندرية كلها، وقد باتت قادرةً على تلمّسـها في أشـد الليالي حلكة مثلما يمشـي شخصٌ في بيته غير المضاء.

ليسـت الإسـكندرية بالمدينـة الضخمـة لكي تعجز عـن الوصول لمـكانٍ مـا فـور تحديـده، لكنها أيضـا ليسـت بالمدينة الصغيـرة التي تكفـي فيها علامة لترتدي ملابسـك وتتجه صوب الوجهـة المطلوبة. الإسكندرية شارع طويل وضيق بين بحر ومقابر، ينتهي كل منهما عند

مـدن أخرى، علـى الأرض أو في السـماء، الفارق ليـس كبيرا. لذلك نشـعر، نحن أبناء هذه المدينة، أننا لا ننتمي إليها إلّا بقدر ما نشـخص خلف حدودها.

- رأيـتُ فـي تلـك الدراجة يومهـا شـاهدا وحيدا، لكنـه، كجميع الشـهود الذين يرون الحقيقة، كان صامتا. كانـت الدراجة نائمة أيضا، ربما أكثر من صاحبتها، حتى أنني رأيتُ عينيها المغلقتين.

بينمـا تحاول مـدام شـهرزاد تقليب ابنتها، بدا جسـد الفتـاة ثقيلا، جثمان غريقة ابتلعت بحرا كاملا قبل أن تصعد من جديد للسطح. هل تجعل الأحلامُ الأجساد أكثر ثقلا؟ سألت شهرزاد نفسها.

- لا أسـتطيع الجزم، غير أنها في تلـك اللحظة، وهي مُكوَّمة على نفسها كقطٍ ربيعي، كانت تحلم، ربما لأول مرة وهي مغمضة العينين، وهو شيء ليس سهلا عندما يتعلق الأمر بشخص تعوّد أن يرى أحلامه أثناء استيقاظه.

لقد كانت ابنةً بارة لصمت جميع الأشياء، حد أن تنفسها نفسه كان في تلك اللحظة يزعج سـلام سـباتها. وكانت هذه هـي المرة الوحيدة التي شـعرت فيها شـهرزاد أن ابنتها تتحد بأرض ذلـك البيت الذي لم يكن يوما بيتها. وربما لذلك أدركت في أعماقها أنها ستموت هنا.

تأملَتْ ملابسـها المتروكة في الدولاب، متسـائلةً للحظة عن السر فـي بقائها عارية. فكّرَتْ للحظة أن تسـترها، لكنها لسـببٍ ما شـعرت أن ذلـك قرارهـا هي. تتذكّر الآن وقد اسـتعادت ذاكرتها، أنها فتشـت جيوبها بحثا عن شـيء أو كلمة، حيث سـتواجه قطيـع الأزرار الدقيقة

الملوَّنـة التي كانت تتركها في جيوبها كتـذكارات موجهة إلى لا أحد. لمـاذا كانت تفعل ذلك؟ هل كانـت ابنتها واحدة من أولئك اللصوص الذيـن يدمنون سـرقة أشـياء تافهة وغيـر نافعة؟ لكـن لا، فمن يفعلون ذلك يكونون في الأغلب أثرياء، السـرقة بالنسـبة لهم مغامرة وليسـت احتياجـا. لو أن هذه الفتـاة (التي تبدو في تلك اللحظة أفقر فتاة ممكنة وكأن النوم جعل منها، فوق فقرها، شحاذة) لصة، لسرقت شيئا تحتاجه أمعاؤها.

في ذلك اليوم، وبعد أن تحصل شـهرزاد على اسم العجوز الأول، الـذي سـتقتله في الغـد، والـذي للمفارقة وُضِعَـت بذرة ابنتهـا عنده، سـتتجرأ، لأول مرة منذ سنواتٍ طويلة، على دخول الغرفة التي وُلِدت فيها ابنتها، في البيت البعيد، الذي لم تعتبره إحداهما يوما ما بيتها.

- أزحـتُ بـاب غرفتهـا كأننـي أفتح باب مقبـرة، ونظرتُ مباشـرةً لسـريرها، سـرير طفلة، لم يُسـتبدل أبدا، لم يكبر معهـا، لأنها رفضت منذ وعت على الدنيا أن تنام فيه.

فـور أن أصبحَـت في غرفـة ابنتهـا، هاجمتهـا الرائحـة المحايدة، الرائحة التي سـتحرص الفتاة بعد ذلك أن تصبح رائحة كلّ شيء فيها: فمها وعرَقها وملابسها.

يحتل الغرفة قطيع حيوانات خرسـاء مستحمة بالتراب، كانت ذات يـوم غابة مصغرة تلائم الأطفال، بوحوشٍ ضئيلة في حجم حشـرات، سـتكبر الطفلـة معهـم يوما بيـوم. لُعَـبٌ مرعبـة، جحيم دُمـى لا تزال تتعـرف على شراسـتها من خلف خَرَس المـواد المصمتة التي جعلت

منها محض محاكاة لنسخ حقيقية توجد في العالم المفتوح، حيوانات الطفولـة المنقرضة التي تتبقى منها نسـخ أخيرة في حجرات مسـوّرة، كأنهـا وحوش غيـر مروّضة، وحـوش الذاكرة غير المروضـة، والتي، بمنحهـا فرصـة ضئيلـة للخـروج، سـتنفض الغبـار في لحظـة وتلتهم الجميع.

- طفولتنـا، فقط، هي القادرة على التمثيل بنـا إن فتحنا لها بابا كي تنتقم.

كانـت ابنتها تحب تلك الحيوانات: أسـد، نمر، دب، وغابة كاملة من مادة رخيصة تشـمل أيضا شـجيراتٍ مرتجلة وزروعا من بلاستيك مجعـد. لا وجـود للزرافات والغزلان، بالتأكيد وُجِـدت يوما ما لكنها اختفـت الآن. حتى في لعبة خرسـاء ينهض كائـنٌ ما ليلتهم الأضعف، كأن الغريزة لا تحتاج روحا حقيقية كي تعرف ما يتوجب عليها فعله.

كانـت تعيش في خطر طفولتها، فكّرت شـهرزاد، مهـدَّدة في تلك الغرفة التي لم تترك فيها ابنتُها على وجه التقريب أي أثر يمكن تلمُّسـه حين تدخل مكانا عاش فيه شخص ما، ألصقَ صورةً على حائط، تعرّق، أفلتَ رائحة، أو استيقظ حتى ذات ليلة مؤرقا بمنام يشبه الواقع. ظلت غرفة ابنتها تنتظر نفسـا إنسـانيا يغيِّر رائحة الهـواء المحايد للجمادات التـي لا وجود لسـواها فيها، ورفضت الفتاة، مسـتميتةً، أن تكون ذلك الشـخص، فقد كانت تدخلهـا كل ليلة فقط لتودّعهـا، مضطرةً ومقيدةً في أغلب الأوقات عندما بدأت تنام في البيوت الغريبة، وعندما كانت

شـهرزاد لا تزال تلهث خلفها لتُعيدها قبل أن تتأكد أن سرير هذه الفتاة هو المدينة.

المدينة، التي يعرفها سـاكنوها واحدا واحدا لأنها نامت في بيوتهم جميعا، وحيث سـيكون عليهـا بعد ذلك أن تشـيح بوجهها كلما رأت عجوزا في شـارع، لأن ذلك العجوز ربما يكون شـاركها سـريرها مرة فـي منزل الفتيات النائمات، أو في طريقه ليفعل ذلك ذات يوم سـيأتي حتما إن لم يسـبقه المـوت لعتبة الباب. كل أولئـك الرجال الواهنين، العجـزة، الذين يرتـدون عظامهم، والذين يحتاجون مـن يعبر بهم بين رصيفيـن، صاروا المعنى الوحيـد لطفولتها هي، لحقيقة أنها طفلة حد أنهـا لـن تصبح امـرأة أبدا، حتـى أن جسـدها كان يفاجئهـا كل صباح وكأنها تطالع عورةَ شخصٍ آخر.

هنـا، في غرفة طفولتها، في السـرير الـذي كان دائما مقبرتها. هنا، حيث تتجول طفولتها في أركان حجرة كانت دائما اسـمها المستعار، وحيـث لا تزال أشـياء طفولتها تحيـا زمنها الخاص: تلـك الجوارب الدقيقـة الملونـة، الأحذية التي تبـدو غير حقيقية، التي تشـبه اللعب، التـي كلمـا اتسـعت لقدمي الطفلـة كانت شـهرزاد تشـهق للمعجزة. وأصابعهـا، تلـك المقتطفـات، التـي لم تصـدق أبدا أنهـا لكي تصل ينبغـي أن تمشـي. كل هـذه الخطـوات هنا، فـي هذا البيـت، في هذه الغرفة، وهي هناك، تكبر في نومها، تشـيخُ في طفولةٍ أخرى. كل هذه الخطوات المفرغة من صوت لقائها الأول بالأرض، صارت الماضي الوحيد الذي يمكن أن تعرفه طفلة، إرثها الوحيد المتروك لامرأة. كل

هذا تركته أقدامها خلفها، ميلادا متربا تحت السرير، كأنها كانت جنينا فقط في أحذيتها.

تريد شهرزاد أن تلتفت للعجوز لكنها تخشى دموعها، التي كانت قادرةً في هذه اللحظة على أن تقتل. كانت تريد أن تقول له إنها ابنة لجميع الكلمات، مثلما كانت ابنتها طفلةً لجميع العجائز، وقد أصبح جميع الموتى آباءً لها.

تتذكر: كانت الطفلة قد بدأت تلح في زيارة مقبرة أبيها الذي لم تره أبدا. في هذه اللحظات فقط كانت شهرزاد تتعرف على نفسها كأم، وقد تركت أثرا إجباريا من طفولتها في طفولة شخص آخر: تلك التعاسة التي لا تحتاج عينا مدربةً كي تُرى. كانت الطفلة بحاجةٍ لرجل، أي رجل تسميه أبًا، لكنه لم يكن موجودا، ولم تكن شهرزاد تملك إجابة عندما تسألها الطفلة عن شكل أبيها أو عندما تطلب صورة له. ربما لو رأته الطفلة ما صدقت. كان عجوزا جدا بالنسبة لها حتى أنه، بافتراض وجوده، لم يكن ليصلح أبا. لا أحد يعرف اليتم أكثر من شخصٍ وُلِد لأبٍ يحتضر. لا مجال حتى لتخبر طفلتها عن مهنة أبيها، يكفي أنه كان عجوزا، ففي لحظةٍ ما، تصبح الشيخوخة هي المهنة الوحيدة لأصحابها.

بعد تهرُّبٍ متكرر بحجج واهية، انصاعت مدام شهرزاد أخيرا. ذهبت بها ذات صباح، ببساطة، لمقبرةٍ ما، أي مقبرة، وأخبرتها أن خلف بابها ذاك، تحت ترابها ذاك، يرقد أبوها.

ذات يوم، انقطعت الطفلة عن طلبها بزيارة أبيها، بادرت الأم، التي أراحها نسيان طفلتها لكنه أشعل فضولها، بسؤالها عن السبب. نظرت

لهـا الطفلة، تلـك النظرة التي لن تنسـاها أبدا، حتى أنهـا اعتقدت أنها سـتواجهها بكشـف كذبتها، لكـن الطفلة قالت لها: «علشـان خلاص مـات». لـم تفهم ما تقصده، هل كان حيا فـي المرات الفائتة؟ في ذلك اليوم كان شـيءٌ قد انطفأ في عينيها، شـيءٌ رأت شـهرزاد في انعكاسه شـخصا مات بداخلها، خمنت أنه ذلك الأب الذي دفنته الطفلة الآن، في مقبرةٍ بعيدة لا وجود لها إلا في نقطة عميقة منها، مقبرة تملك على الأقل ميزة أنها ثابتة ولا يمكن لأحد أن يغير مكانها.

من بعدها، لـم تعد الطفلةُ أبدًا للسـؤال عـن ذلك الرجل المجهول الـذي كانت تناديه باسـمه فـي المقابر لأنها لم تعـرف أبدا كيف يجب علـى طفلٍ أن ينادي أباه، كأنه كان وجبتهـا الوحيدة التي زهدتها فجأة لفرط ما ظلت تتناولها.

- كان أكثـر ما أرادت نسـيانه بعد ذلك هو مـن تكون، لكن أكثر ما أرادت استرداده، وبنفس القوة، هو أبٌ زائف.

الشيء الوحيدُ الذي تستطيع شهرزاد تأكيده الآن، هو أنه كان ينتمي لنوعية الرجال الذين ستترك ابنتها جسدها لهم بعد ذلك. أيكون فعل؟ هـل يمكن أن يكونا التقيا كرجل وامرأة في ذلك البيت الغريب والذي يقولون إن صوت البحر كان يُسـمع داخله بوضوح؟ ربما ذهبت الفتاة إلى ذلك المنزل بحثا عنه، وربما عثرت عليه.

ظلـت شـهرزاد تطل علـى ابنتها النائمة فـي منزل السـت روزا، ظلت تأمل في بادرة يقظة كلما قتلت واحدا، ولـم تكن تعثر سوى على اليد التي يتسـارع إيقاعها بينما تكتب، شـعرت شـهرزاد، يوما بعد يـوم، أنها كانت

تقتلهم لإحياء تلك اليد بالذات، والتي شعرت أنها بحاجةٍ إليها أكثر من أي وقتٍ مضى.

تلتفتُ شهرزاد نحو العجوز. يشيح بوجهه، هل هو متأثر؟ هل يُخفي دموعا؟ لكنها تكمل: حتى جاء يوم دخلت فيه شهرزاد غرفة ابنتها في منزل النائمات فرأت، للمرة الأولى، انتفاخ بطن ابنتها، والذي لم يبادرها الشكُّ في أنه انتفاخ الموت. ظنت شهرزاد دائما أنها ستموت قبل ابنتها، وربما بدا لها أن ذلك دورها الحقيقي كأم.

ستنفجر هذه البطن في لحظة، ستعود شهرزاد في أي مرة من بيت أحد العجائز لتجد الديدان تسرح في فتوق جثمان ابنتها. لا يجب أن تموت هذه الفتاة الآن، وليس هذا بفعل العاطفة فقط، لكن لأن مدام شهرزاد أرادت لحكايتها الأخيرة أن تُروى على شرف جسدٍ لا جثمان. لكن ذلك التحوّل المفاجئ جاء ليضعها أمام تعقيد جديد للحكاية.

- هل ستموت طفلتها قبل أن تقتل جميع من خذلوها؟

لم يكن ذلك مقبولا، إنها تروي هذه الحكاية من أجلها، ويجب أن تموت، هي أيضا، مع الكلمة الأخيرة التي تخصها، ليس من المسموح أن يقع هذا قبل ذلك.

لدهشتها، فكّرت في تلك اللحظة لأول مرة، أنها لا تملك مقبرة.

- ألهذه الدرجة كنتُ واثقة أنها هي من ستواريني التراب؟ ومن أين نبع ذلك التأكد؟

غير أن الحياة منحت الفتاة يوما آخر، وآخر، ظلت تكتب وتكتب.. مانحةً شهرزاد، فرصة بعد فرصة ويوما بعد يوم لكي تُنهي حكايتها. أليس من حقها هي أيضا أن تروي حكايتها مثلما فعل رجلٌ والثاني، ومثلما تفعل ابنتها نفسها؟ حتى لو لم تتحول حكايتها لأوراق مكتوبة كتلك التي لا تكف ابنتها عن تسويدها، حتى لو كان أقصى حلم لها أن تروي حكايةً تموت سطورها فور النطق بها.

هكذا ظلت شهرزاد تفتح باب الغرفة لترى انهماك اليد الناجية من مقبرة، كان بطنها الذي لا يتوقف عن العلو علامة فادحة، وحين فهمت شهرزاد أنه انتفاخ الميلاد لا الموت، فكّرت أن حياة الفتاة سؤال آخر لا يقل صعوبةً عن سؤال موتها.

- هل سأرث هذه الأوراق أم ستدفن معها؟ كل كتابةٍ وصية ما. هذا هو السؤال الرابع..عِد معايا.

- كنتُ سعيدةً رغم كل شيء لأنني أخيرا سأكون بطلةً حقيقية في قصة، فكّرتُ أنني عثرتُ أخيرا على حكايتي الخاصة، الحكاية التي ستجبرني على استعادة ذاكرتي المفقودة طوعا، لأحكي قصتي أنا بالإلهام غير المرئي لدمية.

- وجدتُ نفسي أجترّ، مُحبَطة، جميع محاولاتي الفاشلة في أن أكون بطلةً للقصص التي قرأتها، رغم أن هذه الفتاة نجحت في ذلك ذات مرة، لتحصل للأبد على أخت حقيقية من بين سطور قصة.

- عندما فضفضت بهذا الكلام ذات صباح للرملي، لم يرد. مد يده بكتاب وقال: «اقري الرواية دي.. حتلاقي نفسك فيها».

إننا نصبح، بشكلٍ رمزي، أبطال القصص التي نقرأها. هذا ما يطلقون عليه التوحد مع الشخصية. لكن ذلك الكتاب كان بعد قليل من القراءة يضعك مكان الشخصية التي تتوحد معها، بالمعنى الحرفي. إنه شيء يشبه ما يحدث لي عندما أتذكر، فما إن وجدتُ نفسي في إحدى شخصيات الرواية، حتى تحوّل اسم هذه الشخصية إلى مدام شهرزاد، ثم إنها لم تكتف بتغيير اسمها، بل بدأت بالتدريج تصبح أنا، وقد وُضِعت في قصةٍ هي حياتي، كأن الأدوار انعكست فأصبحت هي من تقرأني وتتخيل نفسها مكاني وليس العكس. كان هذا هو الكتاب الوحيد في العالم، في حدود معلوماتي وحسب تأكيد الرملي، الذي تحوّلت فيه الشخصيةُ لقارئ والقارئ لشخصية.

انتشر الموضوع انتشار النار في الهشيم، وبات الكتاب يوزع يوميا ملايين النسخ وأصبح مكانه السوق السوداء، إلى أن وقعت نسخة منه في يد محامٍ شهير، تحوّل بدوره إلى شخصية بينما يقرأ الرواية مفتشا عن شيء يخدش الحياء ويصلح كدعوى قضائية، فوجد نفسه. رأى بذاءاته كلها موظفة فنيا دون لفظ خارج سوى ألفاظه الواقعية التي لو طالب المحامي القانون بمحاسبتها فسيُسجن هو. على الفور رفع قضية يطالب فيها بمصادرة الكتاب باعتباره ينشر الدجل والشعوذة، ويتجسس على خصوصيات الناس دون تصريحٍ قانوني، ملمّحا لماضي الناشر المخجل والموجود في درج مكتبه على هيئة سيديهات.

على الفور نشر الناشرُ توضيحا في الصحف القومية الثلاث، أكد فيه أن الكتاب ينتمي لجندر جديد هو الكتاب التفاعلي الذي يكون

القارئ شريكا أصيلا في إنتاجه وليس مجرد مستهلك سلبي، ومثل هذا الكلام الذي يقولونه في ندوات قصر التذوق ومركز الإبداع ومكتبة الإسكندرية. لكن توضيح الناشر لم يشفع له، حُكم عليه بالسجن، وفور انقضاء المدة اختفى.

- ما علينا، المهم.. لم تكف بطن ابنتي عن التضخم.. حتى بدأت شهرها التاسع.. وهنا طرأ السؤال الأصعب.. (بتعِد ورايا؟).

هل تقتل شهرزاد الأب أم تبقيه؟ كانت تفكر في ذلك بينما ترتدي ملابسها، متجهةً نحو العجوز الأخير.

- بصيغةٍ أخرى.. هل يجب أن تموت أم تبقى حيا؟ هذا هو السؤال النهائي.

***

تتثاءب شهرزاد، لكنها مضطرة لإكمال «حكاية روزا الصغيرة وروزا الكبيرة مع القواد العاجز والعجوز المتنكر»، فهي الحكاية الوحيدة الثابتة في كل الليالي، وهي الحكاية الوحيدة التي كان عنوانها يكبر معها.

تُكمل ما كان من روزا الصغيرة بعد أن قتلت القواد واكتشفت خيانة العجوز المتنكر ورأت انتحار روزا الكبيرة: المهم أنه بعد انتحار صاحبة البيت، اكتشفت روزا الصغيرة أن القوادة كانت وفيةً لعهدها، فقد آل البيت لها بأوراق بيع وشراء رسمية. لم توجَّه لها أي تهمة، فقد اختفت جثة القواد ومُحي كل أثرٍ لدمائه في الغرفة دون أن تعرف أبدا كيف حدث ذلك.

امتلكت روزا الصغيرة البيت، وأصبحت، بين ليلةٍ وضحاها، «الست روزا»، وكان قرارها الأول أن هذا البيت لن يكون مكانا لممارسة الفحولة، بل لممارسة العجز. سرّحت المومسات وبدأت على مهل تلتقط عذراوات فقيرات بدت لهن صفقة التعرّي دون أن يفقدن بكارتهن مقابل مبلغ مُشبِع من المال صفقة رابحة. ربما كانت تخلّد ذكراها هي، ذكرى الحبيب الذي لم يمسسها، ربما أرادت لفتيات أخريات أن يجربن هذا النوع من الحب، أو ربما اعتقدت أن هذا هو الحب.. وستظل تفعل ذلك طيلة سنوات عمرها المقبلة، حتى ذلك اليوم الذي سترفع فيه سماعة الهاتف، بعد ست وأربعين سنة، لتسمع صوت حبيبها الأول، العجوز المتنكر، وقد أصبح عجوزا حقيقيا، يقول: النهارده يا روزا.

منزل النائمات

(الفصل التاسع والأخير)

يوم أراه لآخر مرة، ستستقبلني الست روزا عند البوابة، بالضبط مثلما فعلت في المرة الأولى.

ستبدو كممثلٍ شائخ يحاول عبثا تكرار مشهده الأول، بينما تنظر في عينيّ، حيث سترى نفسها مجددا، منعكسةً مرتين، وهي تتأكد أن عدوها الوحيد كان هي.

لكنها لم تشخ وحسب، بل بدت في تلك المرة الأخيرة ضيفةً على عالمها، حتى أنها ستتعثر أكثر من مرة أثناء عبورنا الفناء موشكةً أن تسقط، مثل جندي مهزوم في أرضٍ معادية.

هذه المرة لن تسمح لي بأن أغلق البوابة من خلفها كأوّل مرة. ستتركني أدخل، متأخرةً عني بخطوة لتغلقها هي. وبعكس المرة الأولى، سأتقدمها أنا، وستظل هي خلفي، تماما مثل المشهد الأخير في حكاية «روزا الكبيرة وروزا الصغيرة مع العجوز المتنكر» التي حكتها لي أمي ذات يوم لتسع ليالٍ متواصلة، فاردةً كفيها أمام عينيها كأنها تقرأ من كتابٍ وهمي.

سنعبر قطيع الغرف المتطابقة. مثل المرة الأولى سأحاولُ عدّ الغرف، ومثل المرة الأولى ستقول وهي توقفني أمام باب الغرفة التي اختارتها: «ما تعديش.. حتضيعي ومش حتوصلي لحاجة». عند باب غرفتي ستأمرني: هنا. لقد قرَّرَت أن تكون خيانتي الأخيرة له في فراشه. ستنظرُ في نهر ثديي، وسأفهم الإشارة، لأُخرج مفتاح الغرفة، وأديرُ الباب الصامت.

عجوز جديد، عجوز أخير. كيف يستقيم التعبيران، كيف يتعانقان؟

في «البروفة» ستأمرني، كالمرة الأولى، أن أخلع ملابسي. هل عادت «للسيطرة على فنها» بتعبير جبريل في مخطوطه؟ أم أنها تدافع عن عرينها لمرةٍ أخيرة، وقد أدركت اقتراب النهاية؟ تمعنَت في جسدي بعين التاجرة، وسألتني «انتي نمتي معاه؟» نظرتُ في عينيها مباشرة، لكن لم أعثر على صورتي. لم تكن تنتظر اعترافا، كانت تعرف الإجابة، وربما الوضعية التي فقدتُ عليها بكارتي. أطرقَت، أمسكت ثديّ، «ما كانوش كده»، وخبطت مؤخرتي «ودي ما كانتش كده». إنها تتحدث لعاهرة الآن. قلّبَت حقيبتي. أخرجت المسدس، لكنها هذه المرة لم تعده إلى يدي. لقد عدتُ عزلاء.

رأيتُ كل أشياء الغرفة وقد انتقلت للبروفة، مُتحوّلةً بقرارٍ منها إلى خردة. ألا تخشى غضب جبريل؟ أم أنه فقدَ سلطته عندما أصبح شريكا في جريمة، في إخفاء جثة؟

رأيتُ المزهرية، الزهور الطبيعية المُحتضرة، الراديو، الجرامافون العتيق، الاسطوانات، حليّ أمه، اللوحات والكتب. كانت تخبرني دون أن تنطق أنني عدتُ ضيفة. وكانت نظارة الكفيف قد نُزعت من فوق عيني المانيكان لتلُقى بإهمال في ركن. نظرتُ في عينيه. شعرتُ أنه يبادلني النظر بعينين إنسانيتين. كنتُ أسأل نفسي إن كانت نظرة حقيقية، عندما رَمَش.

تجردتُ من ملابسي. بثبات هذه المرة. عبثا يحاول الممثلُ تكرار مشهدٍ أنهاه.

انتزعَت باروكة. وضعتها أولا فوق الحجاب لتقيسها على محيط رأسي، ثم ثانية، فثالثة، حتى استقرت على شعري المستعار. وضعت قناع ألوان على وجهي كأنها تسكب قناعها. طلت أظافر يديّ وقدميّ. لم يكن من حقي أن أعترض. لقد هُزمَت، ولم يعد أمامها إلا أن تنتصر عليّ في معركةٍ حتى لو كانت رمزية. ومثل المرة الأولى، دسّت فوهة إصبعها في ظهري حتى دخلت الغرفة.

كالمرة الأولى، توارت الحوائط، عادت مبطنة بالكامل بالستارة القرمزية الثقيلة، اختفت النافذة، وعاد البحرُ الخفي يلطم الغرفة.

كان جسدي قناعا مكتملا، بالرموش الصناعية، بالمساحيق التي تُنكر ملامحي، بالعطر الثقيل الذي تختاره هي وتسكبه على جميع أجسادها بالتساوي، وبكل ما يجعل مني شخصا آخر.

مكوّمةً في السرير، تمنيتُ، كالمرة الأولى أن تنيّمني حقنة صرتُ أعرف الآن أنها لن تفعل، وناظرةً للباب، الذي سيُفتح في لحظة،

ليعبره العجوز الأخير، العجوز الذي بلا رائحة، مكملا الابتسامة التي بدأها فور موته، وقد استرد سلاحه.

كان صاحبُ المصنع، لمرةٍ جديدة، داخل غرفتي.

هذه المرة، دخل مرتديا ملابس شخصٍ آخر.

كانت بيجامة جبريل تسدرُ على جسده. كيف أدخل جسد العملاق الذي له في هذا الرداء؟ إنه ساحر، يستطيعُ أن يوسع لنفسه حيزًا في جميع الأمكنة التي لا تتسع له.

هذه المرة، لم يستدر ليريني مؤخرته. أنزل البنطلون فيما يقترب. تمنيتُ أن يخلع السترة لكنه لم يفعل. كان يعرف كيف يؤلمني. بين فخذيه، عاد مسدسه، منتصبا دون حاجةٍ لاستثارة، ودون واقٍ يحتجز الرصاصة.

أي شيء جاء ليخرجه من داخلي هذه المرة؟ جاء ليخرج رجلا، وكان مصرا أن ينجح.

هذه المرة، كان قد تعلم الدرس، أوسع ساقيّ، جثم فوقي، مباشرةً، وأولج سلاحه.

غشيني تماما، حاجبا رؤيتي، حتى أن الغرفة بكاملها أظلمت في عينيّ المفتوحتين على اتساعهما، وبدأ يهتز، داخلا وخارجا، بينما يُتلِف كلَّ ما بداخلي.

في هذه اللحظة، سمعتُ صوت القوّادة، متحدثا لشخصٍ فقد صوته: «الزبون معاها جوا».

سمعتُ تحطيم كل شيء، سمعت تهشم الفازة واحتضار الورد تحت حذاء، سمعت تحطم الراديو وجلبة أدوات الماكياج، سمعتُ

صرخة الفونوجراف وفتوق اللوحات وتمزيق صفحات الكتب. سمعتُ انهيار كل شيء بنته يدُ الماضي بالأمل الزائف في الغد، كانت جميعُ الأزمنة تحتضر في العويل الطويل الذي شقّ قطيع الحجرات ليتجاوزها صارخا في مدينةٍ كاملة، قبل أن يدفع جبريل الباب كأنه يقتلع نبت شيطان، مهتزا في الإطار المفتوح لباب الغرفة، كمن يجدف مؤكدا غرقه، وذائبا في الضوء. لم يكن بحاجةٍ ليقطع حصار الستائر الذي عاد يخبئ الجدران، ليجرد الحوائط من تذكاراته، الحوائط التي ظن للحظة أنها انتقلت من بيته لتصير هنا، لم يكن بحاجةٍ ليسأل، أين ذهبت النافذة، وكيف ترحل النوافذ، ولا من أين ينبع البحر وقد حلَّ الغرق. لقد أنهت روزا الحكاية.

كان يعبرُ جسد الرجل الذي يحجبني متطلعا لعينيّ المفتوحتين، بمسدسٍ بين قبضتيه.

كنت أستطيع، في هذه اللحظة، أن أرى دون أرى، بينما يرفع المسدس، يهزه هزتين يمينا ويسارا، كبندولٍ لا يعرف عند أي زمنٍ ينبغي أن يقف. كان يهزه كمن يحفظ توازنه، أو كمن لم يقرر بعد من يجب أن يقتل، مدركا أن الضحية الوحيدة في العالم صارت هو. يتأمله للحظة، كأنه رآه ذات يوم بعيد مصوّبا باتجاهه، متسائلا إن كان هو، أم خانته الذاكرة، أم أن جميع المسدسات تتشابه في لحظة القتل؟

يفعل ذلك فيما المسدس الآخر يلامس رحمي ويخرج، دون أن يلتفت صاحبه، دون أن يستدير، وقد أدرك أن ثمة طلقةً ستغادر فوهتها باتجاهه، ولا يعبأ، لأنه يعرف أنه لن يموت. ظل يعلو ويهبط، يدخل ويخرج، كأنه أنفاس هذه الغرفة.

ثم، وفي لحظة، دوّت الطلقة، لأن ذلك كان لابد وأن يحدث، لأن لا وجود ليدٍ أمسكت مسدسا دون أن تجرب زناده. ومثلما يحدث في كل مرةٍ يموت فيها، تكوّم صاحبُ المصنع، نظر نحوي، وابتسم.

في هذه اللحظة تواجهت أعين الغرفة الأربع المفتوحة. كأن جبريل أخرج طلقته فقط ليزيح ظلاما عن عيني، ليحيي نظرةً لا ليواري جثمانا. وحيث صوّب باتجاهي النظرة التي أذابتني، نظرته النهائية حيث وجد نفسه وجها لوجه، أمام خيانة العالم التي ظل حياته كلها، هو الذي خان كلّ شيء، يتفنن للنجاة منها بحرص الماشي فوق حبل ومن تحته الهاوية، نظرة الخذلان التي لا سبيل للنجاة منها، والتي ستزج بي لحلمٍ طويل لا نجاة منه.

كنت أعرف، فيما أتهاوى، فيما ينسحب الضوء، أن كل الصباحات لن تنجح، وكل الشموس، في إزاحة القمر الذي توسط ليل عالمي، فقط ليضيء لي عندما أكتب.

وفقط عندما صار كلانا مفتوح العينين لأول مرة، فقط عندما رأيتُ اهتزاز وجهي في ارتعاش دمع عينيه المفتوحتين، أدركتُ أنني لن أستيقظ ثانيةً.

مدينة العجائز

(الليلة التاسعة والأخيرة)

مرت سنواتٌ طويلة، ظلت خلالها الست روزا تدير منزل الجميلات النائمات، مُبقيةً على الذكرى الوحيدة التي تبقّت لها من ماضيها البعيد: ذلك المخطوط غير المكتمل لرواية حبيبها الوحيد.

كانت أحيانا تفكر، كيف يمكن أن يكون شكل ذلك العجوز المتنكر الآن، وقد صار عجوزا حقيقيا؟ كانت تتخيل التجاعيد الحقيقية وقد غمرت وجهه، الانحناءة الحقيقية لظهره، والبياض الحقيقي لشعره المنسحب. أحيانا كانت تصادفها مقالاته عديمة الفائدة في الجريدة المحلية، بصورته الشابة التي لا تكبر، الصورة التي عندما كانت صورته، كان يُنكرها بشيخوخةٍ زائفة.

ظلت الأيام تمر وظلت روزا تسأل نفسها: ماذا سأفعل بهذا الإرث الناقص؟ ظلت روزا تتساءل في نفسها: ألم يفكر مرة، مرة واحدة، في إكمال روايته؟

تكمل شهرزاد: وعندما يئستُ تماما.. عندما كنتُ أتأهب للنهاية حتى أنني قررتُ أخيرا أن أورِّث البيت لابنتي الوحيدة.. جاءني صوتُك، من حيث يجب أن تكون ميتا، تأمرني: النهارده يا روزا.. النهارده.

***

يوم عيد ميلاده السبعين، فكر العجوز جبريل في هديةٍ نهائية يقدمها لنفسه قبل الموت، وفي هذه اللحظة قرر أن الوقت قد حان ليُكمل روايته الوحيدة التي بدأها قبل ستة وأربعين عاما، ولم يُكملها أبدا.

برق في ذهنه الاسم القديم الذي لم يمُت يوما بداخله: روزا، القوّادة الشائخة الآن والتي كانت ذات يوم حبّ حياته الأول، وستظل حبه الأخير حتى صباح ذلك الأربعاء، الثالث عشر من أغسطس 2013.. وكان الرجل الوحيد الذي عرف اسمها الحقيقي في البيت السري الذي قابلها فيه كعاهرة لم تفقد بعد بكارتها: شهرزاد.

لقد كبر كثيرا منذ رآها آخر مرة، قبل ست وأربعين سنة. لقد كبر منذ تلك اللحظة. ظل يكبر، وظلت أخبارها تكبر معه، تصله من عجائز يترددون على بيتها، ويعرضون عليه تقديمه لها، حيث لا تقبل سوى عجائز موثوقين ومأموني الجانب. كان يسخر من التعبير الأخير، محاججا، دون أن يكذب، أنه لم يفقد بعد ما يجعل منه رجلا. كانوا ينظرون إليه بإحباط وحسد، دون أن يتخيلوا أن هذا المنزل كله شيّدته فكرة كتبها هو.

لقد حوّلت روزا فكرته لواقع، بإلهام الطبيعة الغريبة لعلاقتها به، أو ربما كان واقعُها هو ما ألهمه فكرة روايته. يستحيل الفصل، كأنهما حكايتان كتبتا على وجهي ورقة واحدة، غير أن الحقيقة الوحيدة هي أنهما عقدا صفقة غير مقصودة، كان يقنع نفسه أنها عادلة كلما وخزه ضميره: تركت لديه قلبها وبالمقابل أودعها كلماته.

كلما طرأ اسمها من عجوز بات ليلته في أحد أسرّتها، وهو يُسِرُّ لجبريل بما يعتقده سرَّه الوحيد، كانت غُصَّة تعبر حلقه، غصة لا يمكن تحديد هويتها: أهي غصة الحب الضائع أم العمر المفقود أم الرواية المبتسرة التي لم يسترد حتى مخطوطها، ولا تزال قابعةً هناك، في أحد أركان ذلك البيت، أو في أحد أركان ذاكرة المرأة التي لم تسامحه أبدا. لقد خانها ذات يوم، ورأت خيانته بعينيها، بالضبط في اللحظة التي تحوّلت فيها لقاتلة لكي ينجو هو.

ظل، كلما أتى يومُ عيد ميلاده، يفكر في إجراء تلك المكالمة، محدسا أن هذا عيد ميلاده الأخير، يهم برفع السماعة، ثم يرجئها، قبل أن ينسى كل شيء، إلى أن يُذكّره اليوم نفسه في العام التالي. لم ينس أبدا تلك الرواية التي تمنى أن تكون روايته الأولى، ليعرف، كلما مرت السنوات، أنها بالكاد لو اكتملت فستصبح روايته الأخيرة. وكان حرجٌ من نوع غريب هو ما يمنعه في آخر لحظة من أن يرفع السماعة، حيث يشعر أنه على وشك المطالبة بشيءٍ لم يعد من حقه.

عندما قرر أخيرا، رافضا وساطة أحد العجائز الذي أكد له أن «الست روزا» لا ترد على أرقام لا تعرفها، ردت شهرزاد من الرنين

الأول. وصلته تنهيدتها قبل أن يصله صوتها وقبل أن ينطق بكلمة، كأنها ميزت صمته.

قال: «النهارده يا روزا». لفحته تنهيدة أطول من سابقتها، وهي تتأوه بألم مضاجعة: «آآآآآه.. ساكت كل السنين دي وجاي دلوقت عايز تاخد المخطوط؟».

كان صوتها نفسه، كأنه سمعه لآخر مرة أمس، وكأن ذلك الصوت ترك جسدها يشيخ وحده، مستبقيًا لنفسه الشباب والمرارة معا. لكنه تماسك ليصحح لها:

- لأ.. عايز أكمِّله.

كان طلبه يعني، دون حاجةٍ لتوضيح، توفير فتاة نائمة، وعذراء، فهمت روزا، أو شهرزاد، على الفور أنها يجب أن تكون هي، لكنها لم تعد هي، وقد أمعنت طيلة تلك السنوات في خيانة نفسها حتى لم تعد تملك ما تشير نحوه لتقول أنا، وأقصى ما كانت تستطيع العثور عليه الآن، صورة زائفة لماضيها.

بالمقابل، رأت في صوته ذلك التشبث الطفولي لا بأن يستعيد الزمن، بل أن يعيده، حين كانت أوراقه فكرة رواية أولى مثلما كان هو نفسه فكرةً غامضة عن مستقبلها، وفي تلك اللحظة التي انتفض فيها لمرةٍ أخيرة كي يطلب المستحيل، عرفت أنه سيموت.

متأكدةً أنه لن يقبل، عرضت عليه دستة بنات من المتاح تحت يديها، كمناورة رفضها على الفور، وقال: «ما تكونش اتكشفت على راجل».

هنا قالت: «خلاص سيبني يومين تلاته كده أجس النبض وارجع لك»، لكنه قفز فوق كلماتها: «بالنسبة لراجل زيي وفي سني.. الساعة سنة». ثم أكمل: «الليلادي يا شهرزاد.. عايزها الليلادي».

صمتت، لكنها ما لبثت أن عادت تسيطر على فنها، فقالت: «خلاص اديني ساعة كده وحارجع اكلمك».

لماذا عاد، لماذا قرر الآن أن يبحث عن روايته، ليس فقط ليستردها، بل ليكملها، ولماذا قررَت هي مجددا، مثلما قررت قبل ستة وأربعين عاما، أنه يجب أن يفعل؟ كلاهما سأل نفسه ذات السؤال فور إغلاق الخط، وكلاهما فشل في العثور على إجابةٍ حاسمة.

لقد بدأ هذه الرواية على شرفها ذات مساءٍ بعيد، كحلم، وحيث عثر فور أن التقطت أذناه حكايتها على الإلهام الذي دفعه دون إنذار ليطرق الباب، مفتشا عنها، واقفًا كل ما تبقى من إرث أمه على هذه المقامرة، المقامرة التي سينسحب منها مجبرا وقد خسر كل شيء، وحيث سيعيش بعدها مفلسا للأبد.

كان محررا صغيرا في تلك الجريدة المحلية، ينقل الأخبار الكاذبة عن الجبهة من صحف القاهرة وإذاعاتها، بعد أن يُغيّر صياغتها مستخدما بلاغةً بدائية ومتحذلقة تركها فيه إدمانه لكتب التراث. وللمرة الأولى منذ وُلد، وجد نفسه ممتنا لأن أبويه قررا ألا يمنحاه أخا، كأنما عرفا مبكرا أن لا أحد ينجو في هذا البلد إذا ما أرادت له الحياة أن يكبر، فقررا له أن ينجو من الحروب التي لن يحيا بعدها أحد.

محاطًا بعجائز الجريدة، وعجائز المدينة في الخارج، بدا «جبريل» الشاب دائما مثل نتوء في مدينة العجائز تلك، وقد غادر أغلب من يشبهونه المدينة لكي يموتوا. ومثلما تصله أخبار الجبهة من مذياع مشوش، كانت تصله أخبار المدينة بالتشوش ذاته، وبتحريفٍ يجعلها لا تقل زيفا، من أفواه عجائز تخونهم الذاكرة وشجاعة النطق بالحقيقة معًا.

كان يستقبل النمائم، متكسرةً ومتناقضة لحظة مغادرتها أفواه العجائز، الذين كانوا جميعا رؤساء له على تدرج مناصبهم، وآباءً يبحثون عن ابن أخيرٍ يبثونه وصاياهم. بعد أن يُنصت لأكاذيبهم، كان يبدأ بترميمها، بوجدان الروائي المقموع بداخله، حتى يصيغها لنفسه في صورةِ قصةٍ قابلةٍ للتصديق.

في ذلك الوقت كان يهيِّئ نفسه لمستقبلٍ تخيّله واعدا، صحفيا معروفا في القاهرة، يقضي فترة تجنيدٍ إجباريةٍ هنا لكي يتعلم، وهو ما لن يتحقق، حيث لن يغادر تلك المدينة أبدا، ولا سينشر حرفا خارج هذه الجريدة النكرة. بالتوازي، كان يحلم بروايته الأولى، هو الذي نشر في هذه الجريدة نفسها، فور أن خط شاربٌ خفيفٌ وجهه وهو مراهقٌ بعد، قصصه الأولى، قبل أن يعرف بعد ذلك أن أمه دفعت مقابل نشرها.

كان في ذلك الوقت أيضا قد قطع شوطا يحسده عليه ليس فقط من يجب أن يكونوا أقرانه، بل من هم في أضعاف عمره، فيما يخص حياته السرية، أو حياته الحقيقية في الواقع، كمرتادٍ دائم للمواخير وشقق الداعرات وكل بابٍ خلفه ظلام، رغم عدم وسامته (وهو

التعبيـر المهذب الذي كان يصف به نفسـه لنفسـه، مخففا وقع الكلمة الصائبـة: قبحـه) مدعومـا بشـبابه النـادر والمشـتعل في مدينـةٍ مطفأةٍ رحلت طفولتُها.

فـي الرابعة والعشـرين، كان الشـاب جبريل قـد أدرك نهائيا أنه لن تكـون له يوما امرأة، وكان يجد في هذه البيوت الخطرة وفوق أجسـاد أولئـك النسـاء المتبلـدات العزاء الوحيـد لحياةٍ خاويـة، غادرتها الأم والأب مبكرا، وعلى التوالي، كأنما نكايةً فيه.

ظـلّ يبحث عن جسـده في الأجسـاد المتشـابهة لنسـاءٍ لـن يعرف أسـماءهن، تذوب وجوههن سريعا، ليس فقط تحت أقنعة المساحيق التـي تجعل منهـن متنكرات لحظة التعـري، لكن في مـاء ذاكرته التي كانـت الوجـوه تغـوص فيها على الفـور، حتى اتحـدت جميع ملامح النسـاء اللائـي عرفهن في وجهٍ غائـمٍ لامرأةٍ هائلـةٍ ضاعت ملامحها، كان هو نفسه وجه المدينة المتنكر والحزين.

كان يعثـر على هذه البيـوت بمحض مصادفات، بوشـاياتٍ عفوية أو بنمائـم مقصـودة، بتتبـع امـرأة بعد تواطؤ سـريع في عربة تـرام، أو بالتقاطهـا فـور سـقوطها من فـم أحـد عجائـز الجريدة وقـد ظهر في الصباح بوجهٍ مختلف قفزت فيه الدماء، وهي الطريقة التي سـيعثر بها علـى شـهرزاد، بالضبـط في اليوم الذي ظـن فيه أنه لم يعـد هناك بيتٌ مشبوه في الإسكندرية لم ينم فيه.

ذات يوم تلقى، ممتنا، هديةً غير متوقعة من رئيس التحرير المتباهي بمعرفتـه الدقيقة بكل مواخير الإسـكندرية، «اللـي تحت الأرض قبل

اللي فوق الأرض»، حسب تعبيره. كان يتحدّثُ مبهورا عن بيت دعارة «محدوف في آخر الدنيا»: «فيه بِت أول ما راجل بيدخل عليها الأوضة بتنام ومستحيل حد يصحّيها».

كان رئيس التحرير مستثارا بالفكرة، كصحفي هذه المرة وليس كرجل، وقد جرّب أن يدخل عليها، مضحّيا بثروة، لا لكي يضاجعها بل ليتأكد من صحة القصة. كان يحكي لجبريل وقد قرر أن يكتب الواقعة كموضوعٍ صحفي، ظاهره الاضطراري بلاغ أخلاقي عن مدينةٍ فاق عدد بيوت دعارتها بيوت سكانها بينما البلد في حرب، وباطنه تمرير مغامرة صحفية مثيرة عرف بغريزة الصحفي القديم، أنه لن يستطيع مقاومة إغرائها مهما كان الثمن.

كان نابغا، ولو لم يعتبر نفسه إحدى سمكات ذلك البحر، مستغنيا بركود الإسكندرية عن مغامرة مستقبله، لكان له شأن آخر. لكنه كان أيضا نبيها في قراءة ما يدور داخل أدمغة الناس دون أن ينطقوا، ما منحه موهبته الإضافية كمخبر.

كان يُسرّ للصحفي الشاب بأسراره، في غرفته المغلقة، والتي كانت الغرفة الوحيدة في تلك الشقة ذات الصالة الوحيدة الفسيحة الممزقة بين مكاتب إيديال متطابقة وكئيبة تشع رماديتها المعدنية على الفور بما تنطوي عليه من رتابة. جمعته بالصحفي الشاب رابطة غريبة كتلك التي ربطت روزا الكبيرة بروزا الصغيرة، وربما رأى فيه صورةً من ماضيه وشعر تجاهه، فوق كل شيء، بالأمان، هو الذي لا يأمن لأحد، وأراد له، مخلصا، ألا ينتهي إلى مصيره.

كلما همّ بالتفوه بسر، كان يتطلع لصورة عبد الناصر التي تتوسط الحائط الذي يستند إليه مقعده، ويدور دورة داخل الغرفة مفتشا أرفف المكتبة ومنحنيا تحت الطاولات والمقاعد، كأن جاسوسا غير مرئي يختبئ هنا، وهذا ما فعله في تلك المرة أيضا قبل أن يحكي للشاب المستثار مغامرته الأخيرة.

على الفور لمح الصحفي الخبير تلك اللمعة في عيني جبريل الشاب، وقرأ ما فيها من خطر، لذا فسَّرها جيدا: كانت لمعة عيني رجلٍ وفنان معا. كان يعرف أن الشاب العشريني يشاركه داء النساء نفسه، ويحمل مثله روح مقامر عدمي يبحث عن الخسارة بأكثر مما يفتش عن الربح. لذا أخمد حماسه على الفور مُستبِقا، كأنه يجيبه عن سؤالٍ لم يطرحه: «صاحبته مش بتدخّل غير عواجيز.. أصل عندها ابن في سينا وبتستحرم». قالها وأطلق قهقهة سخرية عالية.. قبل أن يكمل، بهمسٍ تحذيري: «ولو حد حاول يلعب معاها بتخفيه من على وش الأرض كإنها ربنا».

ما الفارق بينه وبين هذا العجوز؟ سأل جبريل نفسه يومها هذا السؤال لأول مرة. ما الفرق بينه وبين كل هؤلاء العجائز؟ كان العجائزُ كلّ عالمه، وكان يعرف في أعماقه أنه أكثر عجزا من الجميع، وفكّر يومها أنه إن كان ثمة مكان في المدينة مخصصا للعجائز، فإنه يجب أن يكون وطنه هو.

عندما لاحظ العجوز الحقيقي سرحان الشاب، هُيّئ له لأول مرة أنه يرى عجوزا متنكرا، ينكره زمنه الحقيقي الذي لا تنقصه سوى

التجاعيد، فيما كان المحررُ الصغير يفكر أنه عثر على صفقةٍ يدخل بها البيت.

هنا قال له العجوز غير عابئ بتوضيح مغزى عبارته: ما أقسى الحب حين ينتهي بوشاية.

عندما تفتح له القوادة الباب، وقبل أن تهشه كذبابة، سيلوّح لها جبريل بالمعلومة التي جاء ليبيعها. ستسمعه ناقلةً عينيها بين الكتب التي يتأبطها وعضوه المختبئ في البنطلون، مثمّنةً تحذيره، الذي أجاد صياغته كحكّاء وتعميق أثره كمخبر. كانت المرة الأولى التي يخون فيها، وكان يعرف، بينما يبيع أباه الروحي حتى آخر كلمة ونقطة دم، أنه بدءا من اليوم لن يتوقف عن خيانة جميع من أحبوه.

بين الكتب التي يتأبطها، خطف عين روزا الكبيرة على كعب أحدها عنوان «إله المتاهة» متوسطا اسمي المؤلف، هربرت كوين، والناشر، «وزارة الإرشاد القومي»، بينما لا يوجد اسم المترجم، ربما لإن الكعب ما كفّاش.

سألته غير قادرة على مقاومة فضولها: «هيا الرواية دي موجودة فعلا؟ الرملي أكد لي إن مالهاش وجود رغم ان عنده كل الكتب اللي مش موجودة»، رد عليها مازحا: أعتقد انها مش موجودة.. كل اللي ترجموها قالوا كده.

كثمن للمعلومة التي تساوي حياتها، ستوافق القوادة على التغاضي عن شعره الأسود، على أن يدفع الثمن الذي تحدده هي مقابلا لفض الفتاة. وكمناورة، ستمصمص شفاهها بينما تقول وقد أخفضت عينيها

نحو بنطلونه مخمنةً شكل ذَكَره: «طب ما انت جورنالجي زيّه»، وسيرد مخفضا نظره إلى حيث تنظر: «أنا بكتب بده».

في الحقيقة كانت القوادة هي من عثرت على صفقةٍ معتبرة. وجدت أمامها فرصةً مزدوجة للخروج بمكسب مضاعف من شاب يبدو أنه يتوفر على إرث محترم، وفوق ذلك تسمح له بنيته المتينة أن يمتطيها هي كبغل، بغض النظر عن الدمامة التي كانت، مع اللامبالاة، تقتسمان وجهه بالعدل، فلم تعرف القوادة، الخبيرة في قراءة وجوه البشر، أيهما أنجب الآخر.

أعطته المرأة موعدا في الغد، واتفقا على المبلغ المطلوب، والذي لم يكن جبريل يملك منه مليما. في ذلك اليوم سيبدأ جبريل خيانته لأمه، التي وعد نفسه قبل أن يعدها على فراش احتضارها أنه سيموت بين أشيائها. باع أولى تحفها التي تركتها كذكرى أخيرة لذوقها الرفيع، وسيظل يفعل ذلك مرةً بعد مرة لينفق على المهمة، إلى أن يأتي على آخرها مبقيا فقط على صندوق صيغتها.

في الصباح التالي توجه إلى الجريدة مرتديا أفضل ملابسه، وجيوب بنطاله منتفخة بالأموال التي سيقذف بها بعد قليل في حجر القوادة. استقبلته جلبة، فقد وُجِدت جثة رئيس التحرير، مقتولا في شقته في المساء برصاصةٍ واحدة في قلبه.

غادر جبريل الجريدة ولم يكن اللغط قد انتهى بعد، متحولا من الرثاء وتخمين هوية القاتل لتخمين اسم رئيس التحرير القادم. في ذلك اليوم أدرك جبريل أنه تحوّل إلى قاتل، وفي تلك اللحظة عرف أنه لا وجود لخيانة لا يعقبها قتل.

قبل أن تُدخله القوادة غرفة الفتاة، فتحت له بابا خلفيا ينفتح مباشرةً علـى غرفتها ويبـدو للوهلة الأولى جـزءا من الجدار. تعـرّت دون أن تسـأله عـن رغبته هو، حتى أنه شـعر أنـه هو العاهر. لكنه نزع ملابسـه دون كلمـة، فلم تكن مضاجعة امرأة تمثل له أبدا شـيئا يسـتحق التردد أو التفكيـر مرتيـن. وجّه لها ملحوظةً أخيرة عندما اسـتبقت السلسـلة التي تتدلى منها صورة رجل آخر، مشيرا للوجه دون أن يطلب معلومة متطفلة، فقالت: الصورة دي هيا اللي ساتراني.

رَكبهـا، محتملا أظافرها فـي لحمه وهي تصرخ باسـم ابنها، كأنها تضاجعه، بينمـا تهتز صورة الجندي، الذي بدا في مثل عمره بالضبط، تحت عينيه، متدلية من السلسلة الذهبية، بنظرةٍ تتجاوز التأنيب، كانت نظرةً متألمة كأنه كان بدوره يضاجعه.

كان يرفع عينيه عن صورة الجندي الصغير هاربا من تلك المواجهة ليصطـدم بصورة قائده الكبير المبتسـم على الحائط الـذي بدا له عنق امرأةٍ خرسانية. وشعر جبريل في هذه اللحظة، مكتئبا، أن لا أحد ينجو من الحرب.

عندما انتهيا، ومربتةً بكفٍ مستحسـنة على كتفه، اكتشـف بابا أخر، داخليا هذه المرة. فتحته القوادة ليجد نفسـه في غرفة غريبة، يمكن أن تكـون أضيـق غرفةٍ في العالـم، رأى فيها رغم ذلك أقنعـة ومانيكانات جبسية، سريرا مرتبا وأسـلحةً متنوعة، أدوات طبية وعلب زينة، مكتبة تفوق مكتبته حجما، وخليط أشياء يستحيل أن تجتمع في مكان واحد، جعلت تلك الغرفة تبدو كأنها مخزن العالـم.

نظر لها متسائلا، فقالت دون تأثر: «ده المكان اللي حتتحوّل فيه لعجوز».

ترك نفسه لسرير مستشفى تفوح منه رائحة التعقيم، واستسلم لحقنة البنج الناعمة من اليد الخبيرة، حيث سيسبح في ظلامٍ كامل قبل أن يستيقظ ليجد نفسه شخصا آخر، ينتمي لزمنٍ لا يعرفه.

فور أن زال أثر المخدر، أنزلته وأجلسته قبالة جدار مغطى بستارةٍ سوداء، نزعتها بخفة يد ساحر، ليكتشف أنه أمام مرآة جدارية. في تلك اللحظة رأى نفسه عجوزا لدرجة أنه أحس أن الزمن قفز به، مصدقا، دون ذرة شك، أن هذا وجهه البعيد القادم، بل إنه استشعر وهنا حقيقيا، وألما في مفاصله، وتلمّس انحناءةً في ظهره، كأن تغيّر ملامحه انتقل على الفور إلى أعماقه.

«مش قلت لك مش حتعرف نفسك؟»، قالتها بفخرٍ مكتوم بينما تنزع يديها من الجوانتي الخفيف. أراد أن يقول لها إن العكس بالضبط هو الصحيح، أراد أن يخبرها أنه الآن فقط استطاع لأول مرة التعرف على نفسه، وأن هذا الوجه المتغضن هو وجهه الوحيد، وقد أعادته الآن من ظلام المستقبل.

قالت له، ممسكةً بكفه المجعّدة الموشومة والمردومة بالنمش، بينما يتعكّز عليها ليغادرا الغرفة: يلّا أوريك البت النايمة.

سألها بصوتٍ متهدل بينما تفتح الباب: اسمها ايه؟

أجابت دون تفكير: روزا.. روزا الصغيّرة.

***

فـور أن يراها لأول مرة، مغمضةً في سـلام نوم يسـتحيلُ أن يقطعه أحد، سيعرف جبريل أخيرا أن هذا هو الحب الذي ينبغي أن يعثر عليه، الحب الذي لا يحتمل أربع عيون مفتوحة في الغرفة ذاتها.

لكنه، منكِرا على نفسه الهاجس الذي قد يُطيح بالسيناريو الذي رسمه لحياته، سيُذكِّر نفسه أنه جاء ليكتب. لقد قتل وخان وباع لكي يكتب، وصار من المستحيل، وقد قطع بنفسه الخيط الأخير الذي كان يصله بضعفه، أن يعود. لقد رأى من فوهة المسدس التي كان يقبّلها قواد ذلك المنزل، دخان الرصاصة التي قتل بها صديقه، وظل يحدس أن نهايته لن تختلف، بل ربما رأى فيها نهايته العادلة.

لكن ما لن يعرفه أبدا، أن الفتاة الميتة بُعِثَت بمجيئه، ولم تعد تنام أبدا. لن يعرف أنها، ودون أن تقصد، خدعته، وأن كل ما سيكتبه بعد ذلك، كل ما سيهمس به متخيلا أن لا أحد يختزنه سوى الحوائط، سيصل إلى وجدان الفتاة التي تصغره بأربع سنوات وتُقاسمه نفس السرير ونفس الحرب، وسيصبحان بعد أيام ابنين للهزيمة ذاتها.

على قصاصات مخبأة داخل الكتب بدأ يدوّن منفعلا سطوره الأولى. متمنيا، بصوتٍ محبط، لو استطاع تهريب أوراقه وهو ما كان مستحيلا، ومخفقا في أن يكتب حرفا في بيته، كأن يده ترفض أن تكتب الحكاية إلا حيث يعيشها. في المرة التالية ستبرز الأوراقُ الخالية من تحت طرف السرير، كأنما أتت بها صدفة وخبأتها تحته، ليكتب ويكتب، مخبئا ما كتب، مرةً بعد مرة، في المكان الذي لا يجرؤ أحد على تفتيشه، في كوةٍ خلف صورة الزعيم التي تُكرر نفسها في حوائط جميع الغرف.

مـرةً بعـد مـرة، ومع تقدمـه فـي الكتابة، سـيتعمق شـعوره بالعجز بينمـا تُحكِـم القـوادة مـن تنكّره مـع كل زيـارة. كانـت تضاجعه أولا بهيئتـه الحقيقيـة، كأنما تدرك أن تنكّرها يغير شـيئا حقيقيا في جوهره، قبـل أن تضيف فـي كل مرة، حفنة سـنواتٍ جديدة تجعله يشـيخ فوق شـيخوخته السابقة. بعد كل مضاجعةٍ وهمية للفتاة. كان يُمثّل مغادرته المنـزل، مـن البـاب الـذي يخـرج منـه الجميـع، ثـم يعود مـن الباب الذي لا يعرفه أحد، لتدخله القوادة غرفة البروفة من جديد، معيدةً إليه شبابه.

مرةً بعد مرة، سـيتأكد جبريل أنه اختُطف في زمن آخر يكاد يبتلعه. كان يتلمس المفارقة الغريبة، أن هذا العجز هو مستقبله، بينما يتقنع به ليبـدو صـورةً من الماضي، وبدأ يشـعر أنه ضائع بيـن الأزمنة، وأنه قد يظل في مرة حبيس زمن لا يستطيع مغادرته.

سـتحصل القـوادة فـي كل مـرة علـى مقابل فـض العذرية نفسـه، والمضاجعة الحزينة نفسـها، ووشـايةٍ جديدة، وقد قـرر أن يُبقي الفتاة النائمة امرأته لأطول وقت ممكن بينما تخلو شـقته، يوما بعد آخر، من كل مـا كان يُذكّـره بأمه. في كل مرة سـتتلاعب المـرأةُ بأزمنته لتُدخله شـيخوخته وتخرجه منها باليدين المحايدتين لإلـه، حتى يجيء اليوم الذي سـتعرف فيـه أنه جاء ليفعل بالضبط ما فعله سـابقه: ليكتب سـر هذا البيت.

لقد كشـفتهما معًا: هو والفتاة، التي كذبـت لكي تحميه. وقد فات ذلك الشـاب، المخدوع رغم كل شـيء، أن في كل مـكانٍ من المدينة ثمة عجوز ينام هنا، ويملك ما يقدمه فوق المال كوشاية.

لقد عثرت على مسدس القواد، مخبّأً خلف صورة غرفتها، ووافقت ضمنا على ذلك، كآخر شيءٍ ستخفيه الفتاة. في أعماقها تواطأت معها، وتركتـه لها، متمنيةً أن تنجح هي في قتله. لكن الحب، وما يعقبه، كان آخر شيء يمكن للمرأة أن تسمح به في بيتٍ شيّدته يدا الكراهية.

ما سيدهشـها ويغضبها، أكثر حتى من خداعه لها، معرفتها أن ذلك القاتـل، ذلك الخائن، ذلـك المخبر القواد بطريقته، يمكن له أن يعرف الحب، حتى لو أنكره هو، ومع فتاةٍ نائمة لم يعرّها حتى.

سـتقررُ روزا الكبيرة الطريقة الأمثل لقتله، فمثل هذا الشـاب، اللا مبالـي في أعماقه، والعدمي، والذي كانت قادرةً أن تسـرد له مسـتقبله مـن الآن، لـم يكن يخشـى المـوت، ولا يمكـن لرصاصـةٍ أن تمثل له عقابـا. كان يفكـر في خلودٍ ما، لا يهزمه الموت كمـا يعتقد الناس، بل الشـيخوخة. وعندما تُلمِّح للفتاة، الخائنة مثله، أنها كشفتها، ستخبرها بالخطـة الزائفـة لميتته، لتصبح روزا الصغيرة قاتلـةً فيما تنهيه هي، في نفس الوقت، دون تشويش.

يوم دخل البيت لآخر مرة، شـعر بشـيءٍ غريـب لا يمكن تحديده، شيء لا يدري كنهه في الهواء نفسه بينما يشعر أنه يستنشق زفيره.

أدخلته القوادة غرفة البروفة مباشـرةً. لم يستفسر، حدس أنها ربما لا تريد اليوم مضاجعة. ومثل كل مرة، حوّلته لعجوزٍ حقيقي، مستغرقةً في تلك المرة الأخيرة فترةً أطول، ومضيفةً عددا جديدا من السنوات، وكأن العمر كان بضاعتها الكاسدة. نهض في تلك المرة منتهيا، شاعرا أنه تجاوز حتى أبعد سنٍّ يمكن أن يموت فيها.

فوجئ بها رغم ذلك تسحبه نحو سريرها، مكتشفا أنه لا يقوى على شيء، بينما تفترسه، زاعقةً هذه المرة باسم ابنها كأنها تُسمع العالم. كانت تصرخ، ربما ليطفو صوتها، عبثا، فوق صوت الراديو، حيث مات الجميع، وكان الجميع ابنها، وحيث شعر في اللحظة ذاتها، هو الذي لم يخض حربا خارج هذا الجسد الذي يفقده الآن، أنه يسمع نعيه هو.

في هذه اللحظة، شعر أن الوجه مفتوح العينين بين ثدييها قد أغمض أخيرا، ومتفاجئا، أشعره ذلك براحةٍ لحظية، حتى أنه رفع رأسه ليرى الوجه المبتسم في الصورة، رآه مغمضا أيضا، كأنهما ماتا معا، تاركين إياه أسيرًا لها في الغرفة، أعزل في مواجهة امرأة لم تعد تخشى أحدا، وبالذات الموت، حتى لو كان صوتُ صاحب الصورة يتحدث الآن، بصوتٍ متكسرٍ في مذياع، مستأذنا بقية الموتى في التنحي.

في تلك اللحظة انفتح الباب، وظهرت الفتاة العارية، ملطخةً بدم قتيلها، وقد أنقذته من الرصاصة التي يفترض أنه سيتلقاها ليلا، بينما دخلت لتنقذ نفسها من الرصاصة التي ستتلقاها هي جراء ما فعلت. رأى العينين المخذولتين، وقد صار كلاهما قاتلا الآن، على شرف الحكاية نفسها، ومن أجل أن تنجو الحكاية.

في ذلك اليوم خرج من البيت السري، وواجه المدينة المهزومة، قبل أن يبتلعه طوفان البشر الذي غادر البيوت في لحظة بعددٍ لا نهائي من صورة الزعيم، الصورة نفسها التي كانت قبل لحظاتٍ فقط، تبتسمُ لخيانته في غرفة القوّادة.

يومها، شعر أنه عارٍ تماما رغم أنه ارتدى ملابسه على عجل فيما تبعت الفتاة النائمة سيدتها نحو مكان مجهول. أدرك أكثر من أي وقت مضى أن حياته لن تتسع سوى لنساء الصدفة، وأنه سيظل أعزب أبديا أوقف ذاكرته على حزن العاهرات. خرج، تاركا مخطوطه الذي لم يكتمل، ومتسائلا، كيف سيعود ليسترد زمنه المتروك بالداخل؟

لكن الكارثة قدمت له الإجابة النهائية قبل حتى أن يغادر الشارع، حين التفت للحظة، ليرى جسد القوادة العاري الغارق في دمه على الأسفلت، ليدرك أنه فُقد في زمنٍ آخر.. وصار عجوزا للأبد.

***

- في يومٍ واحد فقدت زمنك وحكايتك معا.. مُسلّما باستحالة استرداد أحدهما.. لكنك عدت، رغم ذلك عدت، تبحث عنهما معا.. وهذا بالضبط ما قصدته حين سألتك بمرارة سنواتي وسنواتك معا: جاي دلوقت تطلب المستحيل؟

تُكمل مدام شهرزاد، أو الست روزا، متذكرةً له ذلك اليوم، قبل عامٍ بالضبط من الآن، بدقةٍ تفوق قدرته على التذكر: كنتَ قد استيقظتَ صباح ذلك الأربعاء، الرابع عشر من أغسطس، محاصرا بأنباء فض اعتصامين وفرض حظر التجول، والذي شعرت به موجها ضدك بالذات يوم عيد ميلادك الأخير على الأرض كما كنت تحدس كل عام، غير مصدق أنك ستعود لتحيا اليوم نفسه بعد عامٍ كامل.

نهضتَ في الخامسة صباحا، كعادتك، لتكتب مقالك الأسبوعي الذي يُنشر كل جمعة في جريدةٍ لا يقرؤها أحد صارت مجرد دليل

محليّ لعقارات المدينة. هذه المرة كنتَ فارغ الرأس لا تعرف عمّ يمكنك أن تكتب، وكانت هذه هي المرة الأولى التي تواجه فيها هذه الحيرة حيث لم تغلب أبدا في تدبير «كلمتين» لتعبئة فراغ مقالك. كانت عظامُك تؤلمك، وثمة حرقة في شرجك، سألتني عَرَضًا عن وصفة لها في التليفون مداعبا «يا دكتورة»، فأجبتك، مستعيدةً مزاح القوادة المبتذل: «من قلة الاستعمال».

كنتَ تكتب هذا العمود منذ سنواتٍ طويلة، وواصلتَ كتابته حتى بعد أن طَلَعت معاش قبل عشر سنوات، بانتظام أجوف، دون أن تتعب مرة في الحصول على فكرة أو تشتبك على وجه التقريب مع أي حدث يخص البلد لملء الخمسمائة كلمة المطلوبة، مكتفيا بتلخيص مشاهداتك السينمائية في مهرجان المدينة السنوي الفقير أو مراجعة أغنياتك وموسيقاك التي لم يطرأ عليها أي تغيير منذ شبابك المبكر عندما كانت هي موضة العصر، أو عارضا انطباعاتك عن حفلات أوبرا الإسكندرية وندوات المكتبة. لقد قررتَ يوم الخامس من يونيو ذاك أن هذه ستكون هزيمتك الأخيرة، مختارا أن تدفن رأسك في أجساد النساء، واللائي كنت تدونهن كأرقام في كراسة، في لعبةٍ عدمية توقفت أنت فيها عن العد بعد المرأة الخمسمائة.

لكنك في ذلك اليوم، فكرتَ أن موضوع مقالك ينبغي أن يكون عيد ميلادك، وهنا اكتشفتَ أنك لم تكتب مرة حرفا عن حياتك خارج ذلك المخطوط. بدا لك نوعا من الانتقام الذي تفننتَ في توجيهه لنفسك، كأنك شخص لم يوجد. قررتَ أن تستلهم من عيد ميلادك

(الأخيـر) لحظة تسـتعيد فيها حياتـك، مُضمِّنا ما كتبته زمـان في كتابة جديـدة. بدت لـك فكرة براقة، فأنت لن تعود بالزمن فنيا بينما أنت في الحاضـر، بـل إن الماضي في الرواية كُتب لحظـة وقوعه.. وبدت لك رواية من هذا النوع جديدة تماما.. ولا مانع من أن تأخذك الجلالة بعد ذلك فتكـذب قائلا إن ذلك كان مقصودا بهـدف المصداقية التاريخية مع ملحوظة: «كُتبت الأحداث في زمن وقوعها الأصلي».

خرجتَ للبلكونة، ذائبا ببصرك في عمارات شارع فؤاد الكولونيالية، مفكـرا فجـأة في أمك التي كانـت أقرب لملكة تنتمـي للعاديين، أبيك الـذي أورثـك دمامته ورحل، وفـي وحدتك حيث اكتفيـا بك دون أن تعرف أبدا سـببا لعدم حصولك على أخ، وموعزا ذلك لسـبب وحيد، هـو ألا يحمـل شـخصٌ جديدٌ قبحـك.. ومتمنيـا أن تمـوت في ذلك السرير، الذي أجلس عليه الآن، ذات يومٍ تمنيتَه بعيدًا، ودون ألـم.

فكـرتَ أن المدينـة سـتخلو بعد سـاعات، وأنه، حتى لـو كنتَ في الأوقـات العاديـة لا تخـرج، فإنـك يجب اليـوم أن تقـول لا، محتميا ببطاقة صحفية تعرف أكثر من سـواك أنها لا تمثل شـيئا لشـخصٍ يرى العالـم من غيام زيه المموه.

وعدتُـكَ، متـرددة، بمحاولـة التصـرف، قلتُ «سـيبني سـاعة كده وحارجـع اكلّمـك». في ذلـك اليوم، الـذي تذكرت فيه حبـي الوحيد كالعـادة، نهضـتُ أبكـر من المعتـاد، وقبـل أن تتصل أنـت. أخرجتُ مخطوطـك، حفنـة ورقات فلوسـكاب مسـطرة، وكما أفعـل يوم عيد ميلادك من كل عام، أسـتيقظُ في الرابعة صباحا، قبل سـاعة من موعد

مغادرة العجائز غرف النائمـات، وأعودُ لزمني المفقود. قرأتُ، للمرة السادسـة والأربعين، الصفحات غير المكتملة، شاعرةً، كالعادة، أنني أقـرأ حكايةً لأول مـرة. وعندما رن التليفون، وقبل أن أرفع السـماعة، عرفتُ أنه أنت.

***

بعـد أن أنهـت السـت روزا أو مـدام شـهرزاد قـراءة صفحـات المخطوط، فتحت الدولاب، وبدأت تنتقي ثوبا خفيفا، أسـود كجميع ملابسها، بينما تردد لنفسها «صيف قاتل».

بـدأت رحلتهـا لمحطـة الرمـل كمـا تفعـل يوميـا، حيـث جولتها الصباحيـة التـي تنتهي بشـراء الجرائد وما يلزمها مـن كتب جديدة من الرملي، بينما تنظر لعسـاكر قسـم العطارين الغافين كالقطط وتسـتعيد مشـهد البحر من خلف ظهر تمثال سـعد زغلول الذي يعطي ظهره بلا مبالاة للشـارع الذي يحمل اسـمه. بـدت لها مواجهته للبحـر، دائما، حنينا للمنفى الذي عاد منه بطلا.

فكـرت، بينما يناولها الرملي حصتها اليوميـة من الجرائد والكتب الجديدة، في رواية تتمنى أن تكتبها، عن علاقة غامضة بين امرأة وبائع جرائد يزودها بجميع الكتب التي لم توجد، حد أنها تتشكك، تدريجيا، فـي وجوده هو، ولكي تتأكد، تقرر أن تقتله، فالدم فقط هو القادر على إثبـات أن شـخصا ما قـد وُجد. في اليوم الـذي تقرر فيـه المرأة ذلك، يغريهـا البائع، الـذي قررت أن يكون اسـمه الرملي فـي روايتها مثلما اسـمه الرملي في الواقع، بكتاب جديد. مُلحًّا في رغبته أن يتناقشـا فيه

بعد قراءته لأنه يملك له قراءة خاصة، ترجئ قتلها له لما بعد الاستماع لنظرتـه فـي الكتـاب وقـد أثـار فضولهـا لسـماع كلماته الأخيـرة مثل محكومٍ بالإعدام. تكتشـف بينما تتقدم في قراءة الرواية أن موضوعها علاقـة غامضة بيـن امرأة وبائع جرائـد يزوِّدها بجميـع الكتب التي لم توجد، حد أنها تتشـكك، تدريجيا، في وجوده هو، ولكي تتأكد، تقرر أن تقتله.. لكنه في ذلك اليوم يغريها بروايةٍ جديدة...

عقب عودتها، وبينما تخلع ملابسـها، مديرةً ظهرها لصورة الشهيد المكبـرة علـى الحائط، بملامحها التي غامت حتـى كادت تُمحى عند التكبير، وبالشـريط المائـل الذي يقطع حافتها، سـمعت رنين الهاتف الداخلي، وفور أن رفعت السماعة عرفت أنه هو.

لـم تكن بحاجةٍ حتى للسـاعة التي طلبتها منـه كمهلة وكأنها واقعة تحت التهديد. اتصلت برقمٍ آخر، وقالت للفتاة التي ردت على الناحية الأخرى: «النهارده».

*

ـى دون خوفٍ من وشـاية. ـ

بالغرابة، والتي لم تجعل منها امرأ ـس، لم تكـن الفتاة قـد خطت عتبة لا يخشون اقتراف الذنو ـرها فـي المصنع كمورِّدة للفتيات إلى منزل ـمات.

لقد كبرت في موعدها، فعندما وصلت للعمر الذي يؤهلها للعمل، كانت مدام شهرزاد، المتقاعدة للتو، تُفكِّر في طريقة لتجديد دماء البيت بفتيات جديدات، فقد كانت تقول دائما «البنات عمرها قصيّر».

على العكس، كانت دائرتها من الرجال العجائز صغيرة لكن متجددة، وكانوا أشد حرصا منها، بسبب مناصبهم السابقة أو وضعهم الاجتماعي أو عيون ذويهم المفتوحة. ومن يقترح منهم اسما جديدا للمجيء كان يفعل ذلك وهو يعرف أنهما يتقاسمان الخطر نفسه بالعدل، وفيما عدا الكذب بشأن رجولتهم، لم يكن هناك ما جعل شهرزاد تقتل عجوزا، بينما تملك قائمةً طويلة بالأسباب المتباينة التي دعتها لقتل عدد يصعب حصره من فتيات، أقدمن على الخيانة بكافة أطيافها، بدءا من فتش حلمٍ دارت وقائعه هنا، فحصلن على الرصاصة.

لم تلجأ يوما للمغامرة السهلة والكارثية بمحاولة استمالة ممرضة جديدة أو عاملة بالمستشفى، فقد كانت تعرف أن في ذلك نهايتها. وكانت، بالمقابل، تفتش في سيل العيون الطارئة يوميا عن عينين تبحثان عن نومٍ زائف. كانت تلك العيون موجودة دائما، وأحيانا كانت تعثر على شهرزاد قبل أن تعثر هي عليها.

بتقاعدها من المستشفى توقف النبع المتجدد من الزائرات، واللاتي كُنّ يخضعن لفرز سريع ودقيق ويكشفن أعماقهن مع فخ الحكي، إلى أن تقرر شهرزاد من تصلح منهن لحصتها اليومية من الجرائد والكتب تحكي حكاية المنزل باعتبارها حكاية علاقة غامضة بين امرأة وبائع الكاذبة، أو تلك التي لا يمكن أن تتحقق، يكشف الناس عن رغباتهم الحقيقية دون تحفظ. وبين أنماطٍ عديدة من المنصتين للحكايات، هناك دائما من يتحول فور سماعه حكاية إلى جزءٍ منها، وقد كانت شهرزاد قادرةً دائما على تمييز هؤلاء، سواء كانوا فتيات عذراوات أو رجالا عجائز.

فكرت شـهرزاد، التي أرادت لابنتها محيط عمل جديدا وأكثر أمنا من عالم المستشفى فضلا عن كراهيتها للتوريث، في المكان الأنسب كـ«بارافان» لتوريد البنات، وهنـا تذكرت على الفور مصنع الملابس الـذي يملكه ذلك الشـخص الذي قتلتـه ذات مرة، وظـل مدينا لذلك القتل ربما أكثر من امتنانه عندما أعادته هي نفسها للحياة.

لقـد عرفته فـي بيت روزا الكبيرة كقواد. يوم قتلته بمسدسـه، وبعد أن نزلت من السـطح، دخلت الغرفة المغلقة، كأي قاتلٍ يعود لمسـرح جريمتـه، لتكتشـف أن جثته اختفت ولا أثر لدمـه. لم يخرجه أحد من الغرفـة ولـم ينظف أحـد أثر نزفه، وكانت جميـع العاهرات ذائبات في جلبـة اليوم العجيـب الذي لا يصدق، والذي شـهد وحـده هزيمة في حـرب ومقتل قـواد وانتحار صاحبة المنزل وتحـوّل واحدة منهن، في واقعةٍ كانت الأولى، إلى قاتلة.

تناسـت شـهرزاد ما حـدث، وبـدأت رحلتهـا الجديدة مـع البيت بعـد أن مكّنها الاختفاء النظيف للقواد من تسـريح جميع المومسـات بالحُسـنى دون خوفٍ من وشـاية. بدأت حياةً جديدة مسـتبدلةً الدنس بالغرابة، والتي لم تجعل منها امرأةً حسنة السمعة بعد ذلك، لأن الناس لا يخشون اقتراف الذنوب قدر ما يخشون الخيال.

حافظت على عملها كممرضةٍ صغيرة، ومن الأرواح المحطمة قبل الأجسـاد حصلت على عـزاءٍ يومي مؤقت وسـريع التطاير كالكحول، كانت تعود في الصباح لتشبعه بين الأسرّة الوداعية، وحيث تمكنت من تكوين اللبنة الأولى لرأس مالها الجديد من الزبائن والنائمات، مشرعةً

بابا سريا بين غرفتين، تعبره مدام شهرزاد لتصبح الست روزا في المساء، وتعود عبره الست روزا لتتحوّل إلى مدام شهرزاد كل صباح.

كل هذا العمر، عاشته باسمين، ببيتين، بحكايتين، قبل أن تعود الآن، فيما تحكي لرجل واحد، حكاية واحدة، عن امرأة واحدة يُفترض أن تكون هي. هل التأمت أخيرا بحكايةٍ نهائية؟ وأي اسم عليها أن تختاره الآن: شهرزاد «الحكيمة» السابقة في مستشفى العجائز، أم روزا القوادة السابقة في بيت النائمات؟ لقد انتهت الاثنتان الآن، مثلما انتهى البيت والمنزل، ومثلما انتهى كلُّ شيء، وبقي لهذه المرأة التي بلا اسم أن تعرف الآن من هي.

مرةً بعد أخرى، بدأ الجيل الأول من الفتيات المنوَّمات يتحدثن عن شبحٍ في الغرفة التي قُتل فيها القواد. كانت شهرزاد تستخف بأضغاثهن، مشككةً في رواياتِ فتياتٍ يتحدثن عن الرؤية فيما هن نائمات. كانت قد صارت، مثل روزا الكبيرة، لا تخشى الأشباح ولا العفاريت، وتعرف أن البشر فقط هم من يجب أن يخشاهم العالم بموجوداته وكائناته، الظاهرة منها وغير المرئية.

لكن دقة أوصاف الشبح الذي يتراءى للنائمات، فضلا عن تطابقها المذهل على اختلاف الرائيات، أخبرتها أن المسألة تتجاوز خرف حالمات. وما دفع شهرزاد أكثر لاتخاذ خطوةٍ حقيقية داخل الغرفة، أن بعض الفتيات تقلبن في الأسرّة بفزعٍ لحظة ظهوره، وتوسّلن إليه أن يبتعد، ما جعل بعض العجائز يشكّون في حقيقة كونهن فتيات منوّمات.

كن يصفن ملامحه بدقة، نظرة عينيه، شبح المسدس الذي لا يفارق شبح جسده، والفجوة الواسعة بين فخذيه حيث يجب أن يوجد شبح قضيبه.

لم تكن شهرزاد تدخل الغرف، مكتفيةً بإطلالة على الفتاة النائمة قبل أن تمنح العجوز تصريح الدخول، وبنظرةٍ على صورة الشهيد المكررة في جميع الغرف منذ أطاحت بكل صور الزعيم فور انتحار روزا الكبيرة.

في ذلك اليوم دخلت الغرفة، لأول مرة منذ دوّت الطلقة، يكاد يغشى عليها ليس مخافة ظهوره، لكن تحت وطأة ذكرى كل الخذلان الذي اجتمع في يومٍ واحد ليُنهيها.

انتظرت ظهوره قبل أن يظهر، وقد تشممت رائحته الأليفة تعبق الغرفة، رائحة الملابس التي كان ينكفئ على الماكينة ليخيطها لأجسادٍ لا يملك ما يضاجعها به. كانت لا تزال تتنسمه عندما تجسَّد لها، وكانت المرة الأولى التي تعرف فيها أن الشبح أقرب ما يكون للجسد الإنساني وليس طيفا غامضا مثلما يعتقد جميع من يتحدثون عن الأشباح دون أن يروها.

كان أكثر تجسدا مما كان عليه حضوره الباهت قبل الموت، وكان الثقب في جبهته لا يزال غائرا، تسيل منه دماءٌ حقيقيةٌ وساخنة، لكنها ما إن تلامس الأرض حتى تختفي.

تذكّرت كلام روزا الكبيرة عن حقيقة أنه لا يموت، لكن وداعة ظهوره جعلته مدعاةً للشفقة وليس الخوف. متوسلا، طلب منها مسدسه، وبدا لها رجاؤه أغرب من ظهوره بعد الموت.

قررت شهرزاد أن ترده له، لا ليرحل عن الغرفة التي اعتبرتها مقبرتها الشخصية، أو ليترك البنات في سلام نومهن إلى جوار العجائز عديمي الثقة، لكن لأنها شعرت لأول مرة أنها تُصدِّقه.

أزاحت صورة الشهيد في حائط غرفتها، حيث يرقد المسدسُ في الكوة فوق المخطوط. لامستهما معا فيما تفكر، أيهما أكثر قدرةٍ على القتل. في هذه اللحظة أغمضت عينيها، شعرت أن لهما الملمس نفسه، حتى أنها فشلت في التفريق بينهما دون أن تفتح عينيها من جديد.

في تلك اللحظة سألت نفسها فجأة ماذا لو ظهر شبح جبريل بدوره مطالبا بمخطوطه؟ لقد مات، بل إنه الوحيد الذي مات في ذلك اليوم الذي مات فيه الجميع، ومن بينهم جميعا، كان الوحيد الذي أوجد لنفسه مقبرةً ثابتةً في ذاكرتها.

فكّرت شهرزاد أن هذه الكوة لو عادت خالية فسيعني ذلك خلوّ حياتها نفسها، والتي ستصبح محض صورةٍ لميتٍ لا تخفي شيئا في عمقها، وأنها في تلك اللحظة ستقتل الجميع.

سحبت المسدس، وعادت به لشبح القواد، متأكدةً، بحدسها فقط، أنه لن يقتلها، ولن يعود لإيذائها، وكانت صادقةً في حدسها. ما إن

التـأم السـلاح باليدين المرتعدتين، حتى تجسّـد الشـبح. عرفت ذلك عندما صارت هيئته أقل وضوحا وعندما خفتت رائحته.

انهمـرت دموعـه، وكانت هذه هي المرة الأولـى التي تعثر فيها في ذلك القواد، القاتل، المشوّه والعاجز، على إنسان.

مثلمـا توقّعت، خرج في سـلام. ظلت ترقبه بينمـا تتمدد حياته مع كل خطوة، وفي تلك اللحظة عرفت شهرزاد أن القوّاد لا يموت.

يبـدو أنه قرر أن يرد إليها الجميل، فبعد أيام عاد، طارقا باب البيت هذه المرة كأي بني آدم. عرض عليها حمايته بلا مقابل، ودون أن ينتظر موافقتها، صـار يخلّصها، دون أن تطلب، من أي خائن. وحتى بعد أن أنشأ مصنعه بعد ذلك، في سنوات النصر والسلام، مدبرا المال اللازم من هواء المدينة، ظل يحافظ على مسئوليته في إبقائها على قيد الحياة، وكانت شـهرزاد تعرف أن سبب ذلك ليس فقط رد الجميل، بل الحب الذي يجعلنا دائما نعرف كيف نطيل عمر من يقتلنا.

عندما فكّرت في المكان المثالي لعمل ابنتها، برق في ذهنها المصنع. فاتحته، دون أن تكون بحاجة لتشـرح أي شيء. فهم على الفور ما تفكّر فيه، وقال: «روزا الكبيرة كان عندها بنت.. كانت عايشة وسطكم عادي كمومـس لكـن ما حدش يعرف انها بنتها، ويمكن هيا نفسـها نسـيت أو نسّـت نفسـها علشـان ما تغلطش.. كانـت زيها زي أي واحـدة من أكل لشرب لنوم مع رجالة.. لدرجة اني ما استبعدش تكون اتقتلت».

أطـرق قبل أن يكمـل رافعا عينيه في عيني شـهرزاد، لأول مرة منذ عاد للحياة: عمري ما قدرت أعرف كانت أنهي واحدة فيكم.

قطعت هي سؤال عينيه المتشككتين بالتنبيه عليه ألا يتحرش بالبت. لم يكن رآها، وكانت تعرف أنه سيحتاج وقتا عندما يراها كي يخفض بصره، وأنه سيتألم، لأن الفتاة كانت نسخة منها، وكأنها ماضيها. بدوره رد عليها مبتسما: ما تقلقيش أنا مش حِمل اني اموت تاني.

بدأت ابنتها تورِّد لها الفتيات الملائمات، لم يكن من الصعب التقاطهن، خاصة وأنهن معدمات ويائسات. لقلة الخبرة أحيانا، ولأخطاء لا تغتفر في أحيان أخرى، ولعدم دقة اختيار ابنتها، اضطرت شهرزاد لمحو أكثر من فتاة من على وش الأرض، بيدي صاحب المصنع نفسه في بعض الأوقات. قالت لها ابنتها ذات مرة «من يوم ما اشتغلت في المصنع ده بقت البنات بتيجي لقضاها». وقد أصبح المقعد المجاور للفتاة لعنة، حتى أن الفتيات قلن إن من تجلس عليه تتبخر.

لكن الفتاة لن تلبث أن تكتسب المهارة اللازمة، والتي ستفوق تصور شهرزاد. أصبحت قادرةً بالتدريج على تمييز الفتاة التي يجب أن تكون في سرير أمّها، كأنما ورثت تلك الملكة وكانت فقط بحاجةٍ لتنشيطها، حتى أن القواد صاحب المصنع قال لشهرزاد غامزا في إحدى زياراته: «العرق يمد».

مثل أمها، سترى الفتاة التي لا تعرف شيئا عن الماضي نظرة الجوع في عيني صاحب المصنع، نظرة ظلت مقموعة دون أن تدري سببا، ودون أن يجرؤ هو على إعادة الخطأ. ومن بين جميع الفتيات، لم يعنفها يوما على خطأ أو يخصم جنيهًا من راتبها أو يُعلّق على الكتب

التي تدخل بها المصنع والتي كان يسميها «الممنوعات»، وكأنها عاملة وهمية وُجِدت هنا فقط لتغوي المعدمات بسرير نظيف لن يفقدن فيه شيئا سوى الوعي، لساعاتٍ معدودة كان مقابلها يتجاوز راتب شهر.

كان كأنه يخشاها، واستبعدت أن تكون لأمها علاقة به، فهي من أطلعتها على إعلان الوظيفة الخالية الصغير في تلك الجريدة المحلية التي تشتريها من الستينيات وتحتفظ بأعدادها دون سبب. طلبت منها أن تجرب حظها، داعمةً وجهة نظرها بأن «ده مكان كله بنات وحتعرفي تنقّي فيه».

- هكذا اقتسمنا العمل، أنا أؤمِّن العجائز وهي تتولى أمر النائمات. رجال خارجون من مستشفى وفتيات خارجات من مصنع، المرضى بماضيهم والمرضى بمستقبلهم، ليصبّوا في تلك النقطة المظلمة من ليل المدينة.. مُتّحدين على هدفٍ غامض هو النسيان، وضائعين، مثلك، في الأزمنة، دون حاجةٍ للتنكر.. كأن المدينة تنام كي تحلم بهم وقد التقوا أخيرا على شرف سريرٍ واحد.

كانت الفتاة تقترب، خطوةً فخطوة، من عتبة البيت، حيث يرقد مصيرها، حيث، كما أخبرتها أمها، يجب أن تصعد السلم من أوله، قبل أن تنام في أسرَّته، لأن ذلك ما سيجعلها بعد ذلك تعرف كيف تدير ضعف الرجال، وحيث تنامت فيها تلك الرغبة، ليس فقط في أن ترث أمها كمصير، لكن لتحقق انتقامها، وحلمها معا: أن تكتب روايتها الأولى.

وكلما تناقص عدد البيوت المتبقية لتجديد هواء نومها اليومي، كانت الفتاة ترى أسرّة أمها تقترب، بينما ترجئ وعدها، مثلما كانت تفعل

في طفولتها حين ترجئ شراء لعبة: «لما تخلّصي سراير الناس». كانت الفتاة تعرف، بحدسٍ ما، غامضٍ ولا سبيل للتشكيك فيه ككل حدس، أن السرير الوحيد الذي لن تضطر لتُغّيره، سيكون هنا.. هنا حيث يجب أن تموت، وليس هناك، في البيت الذي وُلِدت فيه، حيث لم يكن ينبغي أن تولد.

- ظلّت تقابلني في منتصف اليوم، تُملي عليّ تقريرها، ثم تذهب بحثا عن سريرٍ جديد لنومها، وكان ذلك هو عهرها الصامت، حيث نامت في جميع الأسرة دون أن يمسّها أحد، مارسَت تمرينا طويلا لا واعيا استغرق عمرها، دون أن أستغرب غرابتها، التي كانت ربما الشيء الوحيد المتسق مع عالمٍ عشته ولم أر فيه مرة ما يقبل التصديق. هل ثمة فارق بين ما كانت تفعله وما فعلته أنا ذات يوم، أو ما ستفعله هي بعد ذلك؟

ابنتها أيضا قالت، يوم استدعتها، «النهارده»، حتى أن شهرزاد سألت نفسها في لحظة، بينما تستقبلها أخيرا أمام بوابة المنزل الذي ظل مكانه سرا، أيهما في تلك الليلة عثرت على الأخرى.

لم تسألها، كانت تعرف أنها آتيةٌ للنهاية، وأنه جاء الوقت لتصبح هذه الفتاة روزا القادمة. لن تنيّمها، ستظل نائمة وهمية مثلما هي عاملة وهمية تُسلّي وقتها بابتلاع الأزرار هناك والمصائر هنا.

- حتى لو أخفت هدفها الحقيقي، أن تنتقم من الرجال الذين قتلوا أختها، ومني، ومن البيت، ومن المدينة نفسها، التي قتلتها يوم وُلِدَت ولم تكفّ بعد ذلك عن قتلها.. كنتُ أعرف.. متواطئة، لا

لأني أوافق، لكن لأني أدركتُ دائما أن لا سبيل لإيقاف شخصٍ قرر أن ينتقم.

فور أن فتحَت لها البوابة منحتها التحذير الأول: «حسك عينك تنطقي اسمي الحقيقي هنا.. ولا حتى بينك وبين نفسك». لم تكن بحاجة لتقول لأمها إن المرأة التي تواجهها الآن هي بالفعل شخص آخر لم تره من قبل. لقد تقابلتا كغريبتين عند البوابة، بتواطؤٍ لم تكن تعوزه الكلمات حتى وهما تدركان أن أحدا لا يراهما، فالتمثيلية لا تصبح تمثيلية إلا عندما يصدّق الممثلون كذباتهم.

كانت الفتاة، بدورها قد قررت، أنها يجب أن تكتب روايتها، هنا، دون أن تخبرها. وتمنت شهرزاد في ذلك اليوم، قبل عامٍ بالضبط من الآن، ألا تخسر مرتين.

عندما رأت شهرزاد المسدس في حقيبة ابنتها، تذكرت مساء قديما، وأدركت أن التاريخ ليس إلا قصة واحدة يتغيّر أبطالُها. عرفت بينما تتحسس المسدس أن القواد يموت الآن، بادئا رحلة جديدة كشبح، ستنتهي بقتله، ثم عودته للحياة، وكأنها تقرأ المستقبل في هواء البيت. ومجددا سألت نفسها: لماذا يسرق القوّاد الجميع بينما يُهزم ببساطة من الفتاة الغريرة نفسها مرتين؟ ومن جديد أجابت: لأنه أحب الفتاة نفسها مرتين.

- أرادت أن تقتل رجلا، كان يجب أن تكون أنت، ربما كانت فرصتي الأخيرة لأقتلك بيدي الشابة، تلك التي لم تكن سوى يدها. تركتُ لها المسدس، متمنيةً أن تفعل، حيث لا تزال يداي مرتعشتين،

وحيث أعرف أنني أستطيع حمايتها من العقاب، وبحدسٍ تمنيتُ أن يخطئ، كنت أسأل نفسي: ماذا لو لم تفعل؟

***

اتصلَت به بعد ساعة، تبشره أنها عثرت على طلبه.

كان إنهاء روايته جرحها الشخصي، لم تفقد شعورها بالمسئولية عنه، من أجل نفسها هذه المرة وليس من أجله. رأت شهرزاد دائما أنها وقد خسرت كل شيء، فإنها كانت تستحق على الأقل عزاءً مكتملا في حكاية.

- بس حتيجي ازاي في الحظر ده؟

- حاتصرّف.

في البيت، وبينما يجاهد كلاهما كي يتحكّم في ارتعاشه، ناولته شهرزاد مخطوطه، ناظرةً لحفنة الأوراق البيضاء التي جلبها ليكمله، وكان الفارق بين الاثنين كافيا لتعرف أي مسافةٍ شاسعة تفصل بين الزمنين، شاعرةً أنهما أقرب ما يكونان للجلدين اللذين يتقاسمان جسده.

نظر للسرير الذي جعل منه عجوزا للأبد، وتنسّم العبير الأليف لهوائه المعقّم، ممررًا راحة كفه على ملاءته كأنه يتحسس ماضيه، فيما يحاول بأقصى ما تبقى له من قوة، أن يقمع انفعاله.

عندما غادر هذا المنزل لآخر مرة، وبينما يتلفت عند منحنى الشارع مشاهدا سقوط المرأة التي سجنته في جسدِ آخر، فكّر على الفور في

اليـوم التالـي، الغـد، هو الـذي أدرك أن ليـس ثمة غد. كيف سـيدخل الجريـدة على هـذه الهيئة؟ ماذا سـتقول دميانـة، الخادمة الشـابة التي تجـيء يومين في الأسـبوع لتأميـن طعامه وتنظيف وسـاخاته وترتيب فوضاه واسـتقبال منيّه؟ كيف سـيواجه العالـم بهذه الهيئة؟ ماذا سيقول وكيف سـيرد على الأسـئلة؟ لكن أحدا، لدهشـته، لم يسـأله. تحدثت معه الخادمة في أول زيارة بشـكلٍ عادي وهي تستفسـر منه عما حدث للبلد، ناطقةً ببساطة كلمة «نكسة» ومصححا هو لها «هزيمة»، وكانت الكلمـة الوحيـدة التي أسـهم بها دون أن يجيب سـؤالا. فـي الجريدة انضم للعجائز بيسر، وقد صار واحدا منهم، بل إنه شعر أنه بات موضع ترحيـب، والعبارة الوحيدة التي كانت تقال على هيئته الجديدة، كانت واحـدة من تلك العبـارات الرمزيـة التي يُعمّـق مجازُها مـن عاديتها: «حتى جبريل كبر فوق عمره 100 سـنة». هو نفسـه رأى أطفالا تحولوا في اليوم نفسـه إلـى عجائز، أطفـالا كثيرين، اسـتبعد أن يكونوا فقدوا أزمنتهم على يدي قوادة البيت.

وفي لحظة، صدّق جبريل أن تلك المرأة لم تسرق زمنه كما اعتقد، بـل أعادته لزمنه الحقيقي، مُسـديةً إليه معروفـا، ليتحوّل لأول مرة من نتوء شاذ إلى شخصٍ ينتمي حقا لجميع العجائز الذين يعيش بينهم.

يوما بعد الآخر، سيشـعر بالجلد يلتصق بـه. لن يعود «يأكله»، كأنه يأخذ حيزه الطبيعي عبر الجسد. وذات يوم، وبينما يشد الجلدَ الزائف بإصبعين سيكتشف أنه التصق به تمامًا.

***

في الغرفة نفسـها التي نام فيها إلى جوار شـهرزاد قبل ستة وأربعين سـنة، وعلى السـرير نفسه، الذي لم يتغير فيه شـيء، رأى الوجه النائم الـذي صعقـه حـدّ أنه بـدا دائخـا مثـل ذبابةٍ فـي كـوب. كانـت الفتاة النائمة هي، شـهرزاد، فكّر لـو أنها ابنتها فقد أنجبتهـا تلك المرأة دون شـراكة رجلٍ آخر، حتى أنه، بينما يخمن لها اسـما، لم يجد أنسب من «شهرزاد»، دون أن يعرف أن هذا كان الاسم الحقيقي للفتاة النائمة.

وهنا شـعر أنه عاد حقا في الزمن، حتـى أن صورة الجندي الطارئة على الحائط بدت له خيانةً فادحة لذلك الماضي المُكتمل.

كانت سيدة البيت الجديدة، روزا الصغيرة ترتد به للخلف بالضبط مثلمـا أقنعتـه روزا الكبيـرة أنه يمكـن أن يقفز للأمـام، وكأن إحداهما فكـرة الأخـرى. أي رابطةٍ غامضة بيـن هاتين المرأتيـن اللتين تملكان الاسم المستعار نفسه والقدرة نفسها على التلاعب بالأزمنة؟

ظل يسـأل نفسـه حد أنه، وعندمـا غادر سـرير الفتاة في الليلـة الأولى، سـألها عن روزا الكبيـرة: هوا روزا ده كان اسـمها الحقيقي؟ فأجابت: لأ.. كان اسمها شهرزاد.

***

بـدلا مـن أن يكمـل مخطوطـه القديـم، بدأ جبريـل، صفحـةً بعد صفحةً، مفاجئا نفسـه، يمحـوه، مأخوذا، مرة بعد مـرة، بإزالة ما خلّفه من أنقاض ليكتب روايةً جديدة بطلها الوحيد هو الحاضر.

في تلك اللحظة، قررت شهرزاد أن تقتله، بالضبط، بالطريقة التي قتلته بها روزا الكبيرة قبل أقل من خمسين سنة، مع تغيير طفيف في الزمن، إذ ستجعله هذه المرة يضيع في الحاضر.

كانت تراقب جلده المتجعد، يكاد يذوب مع كل زيارة، مفسحا لجلده القديم، المشدود لا يزال وقد ظل محتبسا دون أن يتعرض لهواء الأزمنة، معيدا إليه قدرا من شبابه المفقود، وكأن الرجل كان عدوًّا لزمنه: يبحث عن شيخوخة مستقبله في شبابه، ويفتش عن شباب ماضيه في عجَزه.

كانت تراقبه، وتراقبها، تتململ من دورها كمحض صورةٍ منها أورثتها كل شيء حتى الاسم، لتصبح، لأول مرةٍ نفسها. وقد راحت الفتاةُ تحلّ محلها، كأنما تزيح صورةً لتضع واحدةً في فراغها، تطابقها بالضبط حتى أن الفارق الوحيد بينهما هو أن واحدةً منهما ليست الأخرى. كانت تفعلُ ذلك، دافعةً المرأة التي بدأت تحريكها كدمية إلى الظل، حتى صارت هي من تمسك الخيط تاركةً دمية أمها لشيخوختها، وواضعةً إياه، دفعة واحدة، في زمنٍ مطلق هو زمن الحب.

لقد قدمتها له ليبتعثها عبرها، وكأداةٍ تستطيع من ثقوبها أن تتلصّص على روايةٍ لكي تقرأها لحظة كتابتها، آملةً من الفتاة أن تقدمه لها، بالضبط مثلما كانت تفعل مع زميلات المصنع، تاركةً إياها تُكمل حكايتها، التي ظلت، بالضبط كمخطوطهِ، ناقصة، في انتظار كلمة النهاية.

لقد كان هذا المخطوط هو الذاكرة الوحيدة لشهرزاد، والذي بتوقفه توقفت هي عن أن تتذكر. كأن ذلك العجوز جاء ليخونها من

جديد، وكأنها شخصٌ خُلق فقط لكي يخونه هذا الرجل. وبالضبط مثلما حدث قبل ستة وأربعين عاما، لم يتحرك خطوةً ليفتح بابا أغلقه دائما في وجه من يجب أن يفتح لهم.

بدا ذلك محوا نهائيا لوجودها الذي لم يعد ثمة ما يدلّ عليه سوى هذه الأوراق. كان ذلك يُخرجها من ذاكرتها، تنسحب إلى أن تضيع تماما، وقد تحوّلَت من بطلة مطلقة للقصة، إلى نفس المرأة في الروايتين السابقتين وفي كل حكايةٍ محتملة: مجرد مديرة منزل تنطق جملتين في كل فصل أو قوّادة تضع الفتيات في أسرّة البطل.

أدركت شهرزاد أنها خسرت حربها النهائية، وفكرت في القواد الذي كان لا يزال رجلها، والذي تمنت الآن لو أنها، في ذلك اليوم البعيد، خانته معه، لتكمل خطة سيدتها، بأن يراها امرأةً في فراش رجلٍ آخر. وفي هذه اللحظة، حمدت الله لأول مرة أن القواد لا يموت.

إنها تخونها، لكن شهرزاد تسأل نفسها: وأنا؟ ألم أخن شهرزادَ أخرى؟ لابد أن تُذَكِّرها أنها عاهرة، والعاهرة لا يجوز أن تقع في الحب. العاهرة في حقيقتها امرأة يجب أن تبقى عذراء للأبد، حتى لو أُولج العالم فيها، إن أرادت ألا تُهزم.

ستُدفن هنا، وسيغلق عليها للأبد. إنه بيتها، حرفيا هو بيتها، ومقبرتها أيضا، حيث عثرت على السرير الوحيد الذي لن تضطر لاستبداله، وحيث وجدت الحب، الحب الذي طالما ظهر في طريقها فلن يعني سوى الموت، لأنه لاشيء يفضّ بكارة عاهرة سوى الحب.

***

تخلعُ البالطو الأبيض ثم ثوب الحداد، لتخلع عن نفسها روزا وشهرزاد معًا. ولتصير في عريها هذا، لا أحد. تعود عاريةً تماما، وعزلاء.

ثم تُخلعه ملابسه. الجلدان متداخلان. أيهما هو الآن، بينما كان، مثلها تماما، اثنين يصارع أحدُهما الآخر كي ينجو؟

تضع نفسها فوقه، بشوق جميع السنوات التي جعلت منه حبيبها الوحيد ولم يكن فيها، يومًا، لها. من يخونان الآن؟ يخونان الفتاة التي تلد هناك، وتحتضر. يرى اهتزاز الوجه الباهت في القلادة، ولأول مرة يشعر بضياع ملامح ذلك الجندي الذي لا يكف عن الموت، كأنه تحوّل داخل صورته إلى رفات.

توقظ عريه بكل ما تجيده امرأة لتُحيي عري رجل، لكنه خامد، لا سبيل لكي يدخلها ولو لمرة، هو الذي كان قادرا على مضاجعة العالم، إلا هي.

تصفعه، تبدأ بتمزيق جلده غير قادرةٍ على تمييز أي الجلدين زمنه، زمنه الذي يخذله حتى وهو معها، حتى وهو مستسلم لوطأة جسدها، ليخبرها، لمرةٍ أخيرة، أنه لن يكون أبدا لها.

14 أغسطس 2014

لا تحتاج شهرزاد أن تنظر في نتيجة الحائط، التي تنزع عنها ورقة جديدة بنفسها منذ أتت، لتعرف أن اليوم عيد ميلاد جديد، أنه على عكس ما اعتقد قبل عام، وقبل أعوام كثيرة، لا يزال حيا.

كانـت تعرف، بينما تنزع ورقة اليـوم كأنها ورقة التوت فوق عورة، أنها لن تنزع ورقة جديدة في الغد، لأنه لن يكون هناك غد. تفتحُ النافذة لآخر مرة، لتُلقي بالتقويم إلى الشارع.

تمد ذراعه نحوها، لتنظر في ساعته، ساعته التي لم يغيرها منذ رأته لأول مـرة، والتـي لم يخلعها أبـدا حتى وهو في كامـل عريه. تنظر في عروقه بأصابع الممرضة التي تنتقي الوريد الأفضل.

ترتدي ملابســها، فســتان روزا الأســود ومـن فوقه بالطو شــهرزاد الأبيض. تُلبسه، قميص الشاب الذي جلبه على شرف ابنتها، والبنطال الذي كان يرتديه لها عندما كان شابًا. تشده لينهض.

- قوم معايا..

إنها تكلفه بمهمةٍ أخيرة. وهو يتبعها دون أن يعرف.

يعبـران المدينة معـا. يعبران بوابة منـزل النائمات معًـا. يعبران الفناء معًا. يعبران باب غرفة البروفة معا. يعبران جميع الأبواب التـي كان يجـب أن يعبراها معا، التي قطعهـا كلّ منهما وحده، كأن موعد اللقاء هو النهاية.

وأخيرا، يزيحان، معا، بيدٍ واحدة، باب غرفة الفتاة النائمة.

يقتـرب سـريرُها، كأنـه هو من يتقـدم باتجاههمـا، بينما يكاد يبتلعهما الاتساع النهائي بين ساقين منفرجتين: إنها تلد.

لا تصرخ، لا تبدو متألمة، كأن إخراج جسـدٍ آخر من أعماقها ليـس بحاجـةٍ لتمزيـق خرقـةٍ بيـن شـفتين، لعضة على الشـفة السفلى، كأن الولادة لا تعوزها مرارة الدمع، وكأن الميلاد ليس بحاجةٍ لصرخة.

توقفت يدُها أخيرا عن الكتابة، وانتمت للجسـد النائم. وإلى جوارها، بين إطاري الدراجة الساجية، استراح المخطوط الذي اكتمـل قبل قليـل، مخطوط الرجل الذي يقـف الآن على حافة الفراش الذي خذله مرتين، ومخطوط الفتاة التي تلفظ جنينا.

ترفع شهرزاد المخطوط، تهزه لأعلى وأسفل على راحة يدها المفـرودة، كـأنها تزنـه. تبدو غير راضية عـن درجة خفته. كأن مـا حـدث لابنتها كان يسـتحق ثمنـا أعلى، كان يسـتحق روايةً أكبـر مـن هـذه، أكثر ثقلا مـن أن تطفو علـى راحة يدٍ مرتعشـة لامرأةٍ تشيخ كلما تنفست، وبدا لها أن هذه هي الإهانة الأخيرة الموجهة لحياتها.

تقرأ العبارة الأخيرة في رواية ابنتها، كمن يقرأ طالعا: «أدركتُ أنني لن أسـتيقظ ثانيةً». تمد يدها نحوه بالمخطوط. بدوره يمد يدين مرتعشـتين، يحمله فوق راحتيه كأنمـا يحمل رضيعه، أو كفنه. يتردد، ثم يشيح ببصره، يعيده إليها من جديد.

توسـع الفتـاةُ النائمـة أكثر بين سـاقيها، حتى تلامـس قدماها الجداريـن المتقابليـن، قبـل أن تلفظ فتـاةً، بقامتهـا، وفي نفس عمرها، كأنها أعادت ولادة نفسها. وتغمض عينيها المغمضتين، إغماضة الموت هذه المرة لا المنام.

تتلقف شـهرزاد الجسـد العاري الذي حسم أخيرا وجهته بعد أن ظل عالقا لتسعة أشهر. الرضيعة لا تبكي، هل يمكن وصفها بالرضيعـة؟ إن عانتها حديقة سـوداء، يعبرها نهر دم داكن، وقد خرجت للحياة في وقت حيضها.

تحملها وتبسـمل، ومن بين دموعها تسـمح لنفسـها أن تتأمل عينيها. نفس عيني الفتاة التي لفظتها للتو.

غير أن المولودة تقف على قدميها، ودون أن تنظر إليهما، تتحرك صوب باب الغرفة المفتوح، وتغلقه خلفها، قبل أن يسمعا صوت انغلاق بوابة المنزل الحديدية.

في هذه اللحظة، تقترب من ابنتها، تمرر يديها على عينيها المغلقتين، كأنها تسدلهما، غير محتاجة أن تتأكد أن ذلك الجسد أصبح الآن جثمانا.

لا تسأله كيف نامت ابنتي. لا تسأله ماذا فعلتَ؟ كيف كانت نظرتك الأخيرة في عينيها؟ لا تسأله كيف واريتها نومك، كيف جعلتَ منها حلما خاصا لك؟ كيف أصبحت تتجوّل في ماضيك، في نزهة أشباحك وقد فقدت تجسدها أخيرا كمن أذاب يدا في وداع؟ لا تسأله: بأي سلطة تركت في جسدها النائم يدا محررة لتعيد كتابة الرواية التي كتبتها أنت.

إنه ينظر لها، بالعينين ذاتهما، فترى فيهما صورة ابنتها، كأنها تنبع من داخله ولم يعد لها من وجود خارج ذلك الجثمان. كأنها ارتدّت في هذه اللحظة لتصبح شخصا آخر لا وجود له، هو الشخص الذي أرادت دائما أن تكونه.

لا تسأله. ليس لأنها تعرف مثله. ليس لأنها كانت شريكة المشهد الأخير، أو، ربما المؤلفة الحقيقية من خلف الستائر لقصة لن تضع اسمها عليها، لكن لأنها تدرك الآن أن الموت هو الإجابة الوحيدة الممكنة.

إنه ميت، لا ينقصه سوى أن يتخذ شخصٌ آخر القرار عوضا عنه. أن يصير شخصٌ ما إلها للحظات، برصاصة الرحمة التي تضع الجثمان حيث يجب أن يوضع، وقد كان هذا الإله يواجهه الآن في جسد روزا، أو في جسد شهرزاد، إله أضعف من ضحية، غير أنه، كأي ضحية، يملك فرصةً أخيرةً ليقبض روح جلّاده.

إنه ميت ويرحّب بسائل شهرزاد المميت الذي سيتمدد في دمه، حتى أنه رفع ذراعه بإرادة جميع السنوات التي خذلته، كأنه يصافح يدا خارجةً من مقبرته.

دون أن تكون بحاجة لتنطق كلمة، أو لتقول قرارا، يُشهر ذراعه، كأنما يعرف أنه هنا ليموت وليعجّل بذلك. لكنها قبل أن تفعل، تخلع السلسلة، تحاصر بها عنق الفتاة النائمة، لتُدفن معها.

بينما تحدّق في عينيه، كأنها ترى عوضا عنه مشهده الأخير، تشعر أنها بإغلاق هاتين العينين ستدفن ابنتها التي خمدت في الفراش بينما لا تزال صورتُها تتحرك في عيني رجل.

تدس الإبرة القاتلة في وريده، وتشعر براحة الاقتراب من الموت، كأن السائل السام بدأ يجري في عروقها هي.

تشهر ذراعها أيضا، وتستقبل جرعةً أخيرة، تمنح شهرزاد حقنة لروزا، لتعبر العتبة الهشة نحو العالم الذي لا عجائز فيه. بينما تستعيد هيئة المولودة التي غادرت، والتي، رغم اللحظات

الخاطفة بين ولادتها ومغادرتها استطاعت شهرزاد أن تحفظها، وقد أفرغت ذاكرتها، من جديد، في لحظة، لمرةٍ أخيرة ونهائية، كمن يفرغ أحشاءه ليُدفن نظيفا، لكي تكون تلك المولودة، ذلك الميلاد، آخر ما يقطن ذكراها قبل السبات الذي لا يقظة منه.

تتذكر شهرزاد: كانت المولودةُ نسخة من الفتاة النائمة. لا. بل هي.

إنها هي، بنفس طولها وجسدها وعمرها الآن.

إنها هي، كأنما كانت الفتاةُ النائمة تلد نفسها على هيئتها الأخيرة.

إنها هي، مع اختلافٍ وحيد: كانت عيناها مفتوحتين، ولا يبدو أنهما ستُغلقان أبدا.

إشارات

- مقطعا الاستهلال لقسمي الرواية، بترجمة «ماري طوق» و«صالح علماني» على الترتيب. (بتصرف)

شكر خاص

للصديقـة نورا رشـاد التـي صحبتني فـي رحلة المخطـوط خلال مراحل عديدة، وزودتني بعديد الملحوظات القيّمة والداعمة.

في "طعم النوم"، يقدم طارق إمام أكثر نصوصه طموحًا، برواية تأريخية تقرأ التاريخ المصري المعاصر في نحو خمسين سنة وصولًا لأسئلة اللحظة الراهنة.

تتقاطع "طعم النوم" مع "الجميلات النائمات" لكاواباتا و"ذاكرة عاهراتي الحزينات" لماركيز معًا، لتُقدِّم معارضةً روائية تستلهم "ألف ليلة وليلة" حكائيًّا. لكن "إمام" هذه المرة يقلب لعبة الروايتين السابقتين مُنطلقًا من وجهة النظر العكسية بالضبط، والمسكوت عنها "روائيًّا".

هذه المرة، الفتاة النائمة هي من تكتب روايتها، مستعرضةً تقاطع التاريخ الشخصي بتاريخ وطن وجرح الذاكرة الفردية بألم الذاكرة الجمعية، على شرف مدينة قلِقة هي "الإسكندرية"، المتخبّطة في سؤال هويتها، والتي تحضر هنا بطلًا حقيقيًّا وليس مجرد مسرح للحدث.

إنها رواية جميع النساء اللائي لم يتحدثن أبدًا: رواية حُب وجريمة، تأريخ وتأمُّل، يمتزج فيها الواقع بالخيال، وتسردها يدُ الشعر.

طارق إمام روائي مصري من مواليد 1977. أصدر عشرة كتب بين روايات ومجموعات قصصية، من أبرزها "هدوء القتلة"، "الحياة الثانية لقسطنطين كفافيس"، "مدينة الحوائط اللانهائية". يُعدُّه النقاد أحد أبرز المجددين في السرد المصري الحديث والأشد غرامًا بالتجريب، كما تُرجِمت أعماله لعدة لغات. وهو أكثر كُتَّاب جيله تتويجًا بالجوائز حيث حازت أعماله عديد الجوائز الكُبرى مصريًّا وعربيًّا ودوليًّا، منها جائزة الدولة التشجيعية، جائزة ساويرس مرتين، جائزة وزارة الثقافة المصرية مرتين، جائزة سعاد الصباح، وجائزة متحف الكلمة العالمية.





الدار المصرية اللبنانية